جمال الغيطاني

الزيني بركات



رجب ٩٢٢هـ

أغسطس إلى سبتمبر ١٥١٧م

(مقتطف "٣" من مشاهدات الرحالة الإيطالي فياسكونتي جانتي، الذي زار القاهرة أكثر من مرة في القرن السادس عشر الميلادي أثناء طوافه بالعالم.

تسجل هذه المشاهدات أحوال القاهرة .. خلال شهر أغسطس ١٥١٧ ميلادية، الموافق رجب ٩٢٢هـ)

تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام ، وجه القاهرة غريب عني ، ليس ما عرفته في رحلاتي السابقة ، أحاديث الناس تغيرت ، أعرف لغة البلاد ولهجاتها ، أرى وجه المدينة مريضا يوشك على البكاء ، امرأة مذعورة تخشى اغتصابها آخر الليل ، حتى السماء نحيلة زرقاء ، صفاؤها به كدر ، مغطاة بضباب قادم من بلاد بعيدة ، أذكر قرى الهند الصغيرة إذ يدركها الوباء ، يثقل هواؤها بالرطوبة ، الليلة ، تنتظر البيوت أمرا قد يأتي غدا أو بعد غد ، أصغى إلى وقع حوافر تصطدم بحجارة الطريق ، تبعد ، تنأى ، أطل من مشربية البيت محاذرا أن يراني أحد ، أطل والظلام يلف البيوت ، لا أرى مئذنة جامع السلطان الغوري الجديد ، لم تمضِ سنوات على بنائه ، لم أره عندما جئت هنا آخر مرة قبل رحيلي الطويل إلى الشرق ، سمعت باستعدادات تجرى لبنائه ، تشييد القبة الضخمة المواجهة له ، أطل برأسي قليلا ، أخاف انفتاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب ، إذ يجدونني أفرنجيا ، يدفعون بي إلى الموت بلا محاكمة ، لا استجواب ، لا سؤال ، من أنا ، من أين جئت !! لن تتاح الفرصة لأخبرهم ، لأقنعهم ، إنني أعرف الوالي الأمير « كرتباي » معرفة شخصية ، بل إنني أصغيت مرتين إلى متولي حسبة القاهرة ، الزيني بركات بن موسى ، إنه صاحب مناصب عديدة أيضا ، ومسئول عن حفظ الأمن والنظام ، لو رآني فسيتذكرني ، أعرف أنه لا ينسى وجها عابرا رآه مرة واحدة ، حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام ، على أية حال سأبقى الليلة ، بالتأكيد لن أنجو من العسس ، المنسر ، المماليك ، بيوت المدينة كلها مغلقة ، مرعوشة تود لو توارت ، تهفو إلى الأمان المرجو ، شموع بيتي مطفأة ، أخشى تراقص الضوء في أحداق العيون المتلصصة ، قبيل العصر مشيت من الحسينية ، في صدري نفس الحنين الذي يجيئني كلما نزلت بلدا ، كلما عدت إلى

مدينة زرتها من قبل ، اقضى اياما قبل اتصالى بمعارفى من اهلها ، اجوبها من اعلى إلى اسفل ، اسعى وراء اخبار من اعرفهم ، ارثى الذين ذهبوا . ارى اليوم الذى فارق فيه الواحد منهم دنيانا ، اسال نفسى ، اين كنت عندئذ ؟؟ فى اى مدينة ؟؟ القى البعض صدفة ، افتح ذراعى على عادة اهل البلاد ، اقبل كتفه ويقبل كتفى ، اتراجع لاتامله ، اعود لاحتضنه من جديد ، اذكر انه لم يتغير إن كان متقدما فى السن ، ان الصحة تطل من عينيه ، يغمغم بحمد لله ويشكره ، يحلف ايمانا مغلظة ليصحبنى إلى داره فامضى ، نجلس فى غرفة الضيافة ، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة صغيرة بها ريحان وفل ، تتوسطها نافورة صغيرة ارضيتها مرصعة بالرخام الملون الجميل ، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجيء ضيف ، لكن اليوم طال تجوالى ، لم الق واحدا من اصحابى القدامى ، ربما تغيروا ، سمعت من العامة ان كثيرا من اعيان الناس ، والمشايخ ، نقلوا الثمين الغالى من ثيابهم وحوائجهم إلى الاماكن البعيدة المجهولة ، رحلوا عيالهم الى الأرياف ، هجروا بيوتهم وسكنوا المزارات وفساقى الموتى ، سمعت بكثرة الإشاعات ، كل إنسان يقول ما يحلو له ، اى شخص يدخل فيما يعنيه ومالا يعنيه ، وطالب البعض بضرورة تدخل الامير طومانباى نائب الغيبة لإسكات الالسنة ، قال البعض هذا مستحيل فانقطاع الاخبار معناه ان حدثا فظيعا لا نجرؤ على التفكير فيه وقع ، صاح البعض ، وهل يقع فعلا مالا نجرؤ على الظن به ؟ لايمكن ، جيش السلطان من فرسان الإسلام وحماته ، كل فارس منهم مقوم بالف من العثمانلية وكما غلبهم الأشرف قايتباى فلابد من هزيمتهم على يد الغورى ، يقول آخر ، إذا صح هذا فلماذا لم تصل رائحة من الأخبار المفرحة ، لم تدق البشائر ، ولا الطبلخاناه ، كيف تصدق ان شيئا لم يقع ، لم يحدث ، حتى الأمور هنا مضطربة ، فى المقهى عدل رجل وضع عمامته ، سال ، هل راى احدكم الزينى بركات بن موسى منذ اول امس ؟ نزل صمت معبق بحذر ، اسندت وعاء الفخار السلخن ، لم اشرب إلا رشفة من الحلبة ، ما الذى جرى للزينى بركات بن موسى ؟ إذا لم يجر ، فاى إشاعات تتردد حوله ؟ نظر إلى صاحب السؤال ، خمنت انه ربما يعمل فى خدمة جامع ، يتاجر فى الكتب القديمة ، ربما طالب يدرس العلم فى الأزهر ، لهجته ، اسلوبه ، يوحيان بمهنة من هذه ، كلما رايت رجلا لا اعرفه ، اسال نفسى ، اى مهنة يعمل ؟ فى اى مكان اقام ؟ الصين ، الهند ، او صحارى الحجاز ، طال سكوته ، قال احد الحضور ، فعلا لم اره منذ ثلاثة ايام ، قال آخر .. بل خمسة ، كل منهم يقطب جبهته ، يحاول التذكر ، حتى انا قلت لنفسى ، فعلا لم ار الزينى خلال الأيام التى قضيتها هنا ، الزينى يراه اهل القاهرة يوميا ، ولو مرة واحدة ، تدق الطبلخاناه امامه ، يمشى السعاة فى ركابه ، الزينى دائم التفتيش على اسعار البضائع ، يتعقب اوكار الفساد ، مشى الناس فى الطرقات ، له قواعد لابد من مراعاتها ، الالتزام بها ،

احيانا يمنع النساء من ارتداء ازياء معينة ، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك في بعض الفترات . آخر زياراتي لمصر ، رايت الزيني بركات قويا عفيا ، لا ادرى كيف صارت به الحال ؟ ثلاث سنوات تغير الإنسان حقا ، رايت الزيني ينزل بنفسه ، يناقش باعة الحلوى ، والاجبان ، والبيض ، يقف وقتا طويلا مع الفلاحات بائعات الدجاج والأوز والارانب والبط ، يسعر الأصناف بنفسه ، يجرس المخالفين في المدينة ، اعرف رضاء الناس عنه ، حبهم له ، اذكر ما كتبته عنه بعد لقائى الأول به ، رايت رجالا كثيرين ، بربرا وهنودا وإيطاليين وحكاما من بلاد الغال والحبشة والقصى شمال الدنيا ، لكنني لم أر مثل بريق عينيه ، لمعانهما ، خلال الحديث تضيقان ، حدقتى قط في سواد ليلى ، عيناه خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية ، في ظلامها ، عبر صمتها المطبق ، لا يرى الوجه والملامح ، إنما ينفذ إلى قاع الجمجمة ، إلى ضلوع الصدر ، يكشف المخبأ من الآمال ، حقيقة المشاعر ، في ملامحه ذكاء براق ، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدنى الروح منه ، في نفس الوقت تبعث الرهبة ، سالنى عن بلاد رحلت إليها ، كيف اقمت فيها ؟؟ كيف تعاملت مع اهلها ؟؟ حرية النساء في بلاد الفرنجة ؟؟ استفسر عن العدل في الرعية ، وطرق البريد في الهند ، وذكر اسماء مشايخ في جدة ومكة ، واعيان من دمشق ، قلت انني لم اذهب إلى جدة لكنني زرت مكة ، واقمت في دمشق ، كتب لي اسماء وعدته بالسؤال عن اصحابها ، وقتها سمعت حادثة طريفة فصل فيها الزيني بنفسه ، حدث ان ارسلت جارية رومية بيضاء إليه تستغيث به ، قيل انها لم تتجاوز الخامسة عشرة ، اشتراها من سوق الجوارى رجل كبير السن ، يعمل في استقطار ماء الورد ، ضخم الجثة ، نهم ، كثير الأكل ، كثير النكاح ، ومنذ شرائه الجارية الرومية البكر الحسناء ، تفرغ لها تماما ، هجر معمله ، لم يعد يخرج من بيته ، لا يمضى إلى الصلاة ، بل يأتيها كابن العشرين في أوقات متعددة ومختلفة من النهار ومن الليل ، حتى زعموا - واظنه تشنيع من العامة - ان صواتها يعلو خارج البيت ، فيسمعه المارة بوضوح ، يبدأ حادا ، يسمع جرى اقدام ، يسود صمت لا يستمر كثيرا حتى يعود بعد قليل من جديد ، شهد الجيران بهذا ورقوا لها ، تساءلوا فيما بينهم متى تنام البنت إذ ان صوتها لا يهدأ ليلا ولا نهارا ، قالها الرجال بحسد ، لم ترتفع عيونهم عن باب البيت الذى لم يفتح اسبوعا كاملا ، وصار الشبان يرقبون المشربيات ، وإذ تعلو صرخات البنت ، يتضاحكون ويتغامزون ، ويشد بعضهم شعر بعض ، وقال سقاء يحمل الماء إلى البيت - استدعاه الزيني إلى الشهادة - انه سمع باذنيه صراخ الجارية في الحرملك ، قال انه رآها مرة تطل من نافذة المشربية المطلة على فناء البيت الداخلى ، منفوشة الشعر ، خرج يهز رأسه متعجبا مما راى ، المهم إنها عندما استغاثت بالزيني بركات ، ارسلت له خادما صغيرا ، قام الزيني لفوره ، شاور العلماء في الأمر ،

تباحث معهم ، وافتى شيخهم بصحة ما ينوى الزيني القيام به ، هنا توجه الزيني إلى بيت الرجل ـ إسمه العطار فيما أذكر ـ كبس البيت ، هاج الرجل وصار يزعق غاضبا ، ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم ، قبض عليه الزيني ، أمر ببطحه أرضا ، كشفوه فقيل انهم روعوا لمنظره ، واقسم شيخ الحنفية انه لم ير شيئا كهذا في حياته من قبل ، قال الزيني ، البنت تصغرك بأربعين سنة ، اليس حراما أن تؤذيها .. وبهذا أيضا ؟ ضربه خمسين عصا ، ثم امره باعتاقها ، وفعلا ، اعتقها الرجل مرغما ، لكنه لم ينس ما فعله الزيني به ، أصيب بحسرة كبيرة على فراقه البنت ، بدأ يظهر في الحارات زائغ العينين ، ممزق الثياب ، ريقه يسيل ، يبحث عن شيء مجهول ضائع ، لا يذكرها باسمها ، إنما ينادى شيئا يرفض الإفصاح عنه ، كلما ظهر في مكان صاح عليه العامة ، ضربوه على موضع عورته ، ضحكوا وسخروا منه ، بينما تدور عيناه ، تبحثان عن الأمر العزيز المفتقد ، وسمعت ممن أثق به ، أن الشيخ العطار هذا لم يقرب امرأة في حياته قبل البنت ، لم يتزوج ، طوال حياته ، يعول أمه وأخوته ، وعندما تزوجت صغرى شقيقاته أصبح وحيدا ، بدأ يقتصد ثمن هذه الجارية لمدة أعوام عديدة ، جارية معينة رسم صورتها وهيئتها في ذهنه بعناية ، بيضاء كطبق الفضة ، نهداها كرتان من الملبن ، لهما ملمس الحرير ، حلم بها سنوات حتى عثر عليها ، لم تطل فرحته بها ، أخذوها منه ، انتزعوها انتزاعا ، فيا فرحة ما تمت كما يقول عامة مصر ، اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات ، أكد جمع منهم صحة ما قام به ، خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك ، ورأى فريق آخر ، أنه تدخل في أخص أمور الناس ، وأن أحدا من الخلق لا يأمن على بيته ، أو عياله بعد الآن ، خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفى استغاثة البنت بالزيني بركات ، إنما استطاع الزيني معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على أدق ما يجرى في البيوت والزوايا ، قيل أيضا أن العطار مظلوم وليس عنيفا ، وتساءل الرجال هل توجد امرأة تكره هيئة رجل كهيئة العطار ، البنت فعلا لعوب وكرهته ، استغاثت بالزيني بركات لتهرب منه لسبب خفى عندها ، وبقى شعور خفى بالرهبة في أعماق الناس ، تعجبوا لمهارة المحتسب ، قدرته على النفاذ إلى أدق الأمور التي تخص البيوت ، وهذا مالم يتفق لغيره قط ، قيل بوجود فرقة خاصة من أشداء البصاصين تتبعه شخصيا ، لا يعرف من رجالها مخلوق ، أين يعيشون ، كيف يعملون ، هذا أمر خفى لا يدرى به إنسان ، وهذه لا علاقة لها بفرقة بصاصى السلطنة التي يرأسها رجل عتى معروف ، المهم ، سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة ، رأيته بعيني وهو يلف الحوارى ، يقف بين الحين والحين ، يزعق في الفراغ منهالا بالسباب والشتائم على شخص لا يذكر إسمه أبدا ، وقيل انه يصنع تماثيل صغيرة من الورق يحرقها يوميا قبل نومه ، ويتلو عليها تعاويذ خاصة ، وظل على حاله حتى كان

من إمره ما كان ، وما سنذكره في حينه ، أعود إلى الرجال في دكان الشاي ، تساءلوا فعلا عن السر في اختفاء الزيني ؟؟ تعجب كل منهم كيف فاته الأمر ، اختفاء الزيني حدث غير عادي ، انها الأيام المضطربة التي ينسى فيها الإنسان نفسه ، الم يذكر أحد المشايخ الصالحين في خطبة الجمعة الماضية ، أن أوان الريح التي تهب قبل القيامة ستكنس كل شيء ، ريح يرسلها الله عز وجل ، يمانية الين من الحرير واطيب من نفحة المسك فلا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من الإيمان بوجود الخالق ، أو الحق أو العدل تبعد الأب عن بنيه ، والأخ عن أخيه ، ويبقى الناس مائة عام لا يعرفون دينا أو ديانة ، وهم شرار خلق الله ، وعلى هؤلاء تقوم الساعة ، تباكى الرجال في المسجد ، وصار كل منهم يعانق صاحبه ، وعندما خرج البعض إلى الخلاء، خيل إليهم انهم يشمون رائحة طيبة ، فيها نفحة المسك ، جهروا وأعلنوا ، زمن الهلاك أت لا ريب فيه ، فزعوا ، هلعوا ، وهكذا ، فمثل هذه الأيام ، ينسى فيها المرء امورا جساما لا يتكرر حدوثها ، كان يمضي يوم بأكمله ، لا يظهر الزيني بركات بن موسى في طرقات القاهرة ، ولا ينتبه احد ، قال الطالب الأزهري ـ كما ظننت :

— أعرف أن الزيني اختفى في مكان لا يعلمه إلا القلائل جدا ..

سكت ليوحي ، أو ليبدوا واحدا من هؤلاء القلة . قال الحضور :

— اين يا سعيد ؟

— إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة ..

اتسعت أذانهم ، رأيت الزيني بعيني عقلي ، يجلس في مكان خفي ، تنبئه الأيام بأحداث جسام ، نواب يدخلون ويخرجون ، يرسلهم إلى شتى البلاد ، والمعاقل البعيدة للعربان في الصحراء ..

تساءل أحدهم :

— كيف تبقى البلاد بلا محتسب والدنيا في حرب ؟؟

— عندما كان الزيني يسافر لمدة اسبوع ، بمجرد أن يخطو خارج القاهرة ترتفع الأسعار ، يفعل كل إنسان ما يحلو له ، فما بالك وقد اختفى الآن ؟

قال سعيد :

— ابدا .. عين الزيني ترقب الناس كلهم رغم ابتعاده .. ولا تنسوا الشهاب زكريا ..

صمتوا ، في العيون رجاء أخرس ، خوف موغل في الأعماق ، في الطريق على مهل اليم مضى طابور من سجناء الفلاحين مربوطين من أعناقهم بسلاسل حديدية ، يبدو أنهم متجهون إلى سجن من السجون ، أخرج طفل لسانه مرات عديدة ، دق طبل بعيد ، ربما يغادر الفلاحون عالمنا بعد قليل ، مشيت قربهم ، عيونهم زائغة ، يتمنون

لو احتووا كل ما يمر بهم ، نفس ما رايته في طنجة ، طابور رجال يعبرون اسوار المدينة البيضاء مشدودين إلى بعضهم البعض برباط الهلاك الأبدى ، في العيون نفس النظرة ، هذا الرجل المسوق إلى الإعدام في تلك الجزيرة الصغيرة بالمحيط الهندى ، يرجو من الناس إعادة النظر في أمره ، ان يلحقه طائر رخ فيطير به ، العينان تقولان المعنى نفسه ، ان يعلم الناس انه بعد خطوات ، بعد مسافة زمنية معينة ، لن يفتح عينيه ابدا ، تضيع منه المعالم والاشياء ، ربما اموت بعد لحظة ، اجهل هذا ، لكن ان اعرف تماما ، اعلم بمفارقتى الدنيا في لحظة معينة ، هذا ما يطبع الوجوه بنفس ما رايته ، نظرة الخروج إلى عالم آخر نجهله ، ما من منقذ ، ما من منج ، ما من معجزة مأمولة ، ارى الرجال الماضين إلى الموت ، اذكر خروجي من بلد إلى بلد ، رحيلى الدائم ، اذكر من سبقونى ، ورجال خرجوا من البندقية ، مبتدئين رحلة ربما امتدت ثلاثين عاما ، ربما مات الإنسان في بلد يبعد آلاف الفراسخ ، مشيت وفي نفسي خوف ، كل ما اراه يجسد رعبا ، القاهرة مسوقة إلى مصير لا يفصح عن نفسه ، القاهرة منفية عن بيوتها ، مشيت حذرا ، بالأمس نزل المماليك من القلعة ، توجهوا إلى خان الخليلي وكادوا يحرقونه عن آخره ، ضبطوا تاجرا روميا - ورومى تعنى التركى العثمانلى - يجمع الاخبار ، يراسل ابن عثمان باحوال الخلق ، عندما امسكوه كاد العامة يمزقونه ، غير ان بعض البصاصين التابعين لزكريا بن راضى كبيرهم ونائب الزينى ، تحفظوا عليه ، وابقوا على روحه حتى يتم استجوابه ويظهر زملاؤه الآخرون ، وسمعت من يقول بإعدام الوالى كرتباى في جب القلعة سرا ، ولم يتأيد هذا . وارتج الناس عندما سرت اقاويل بوصول رسول إلى القاهرة قادم من الشام ، جاء عبر دروب التيه في الصحراء ، طلع إلى القلعة واجتمع بنائب الغيبة ، ونقل إليه اخبارا مفزعة ، مؤداها ان جيش السلطان هزم في مكان قرب حلب ، ولم تعرف التفاصيل ، يقولون : امتع اللحظات التى يذكرها الرحالة فيما بعد ، لحظات تتغير فيها الأمور والأحوال ، معاينة وقوع الأحداث الكبيرة ، رصد آثارها على الوجوه والبيوت والمدن ، اقول بعد سنوات ، بعد مشاهدتى بداية حرب ، وقوع طاعون ، شهدت بعينى ما جرى ، ما حدث ، عند الغروب تابعت الطريق ، ايد ضخمة قوية تسحب الناس وتلقيهم داخل البيوت ، اشم هواء لم اعرفه إلا في « حيدر اباد » بالهند عندما فاجأها وباء عفى افنى واهلك ، بقيت محاصرا بطاعون جلف سنة كاملة ، اولد في كل يوم مرات عدة ، ارى القاهرة الآن رجلا معصوب العينين ، مطروحا فوق ظهره ، ينتظر قدرا خفيا ، اشعر بانفاس الرجال داخل البيوت ، تتقارب رءوسهم الآن ، يتهامسون الآن ، يتهامسون بما سمعوه من اخبار ، النداءات مجهولة ، الوقت يمضى ولا يمضى ، لا يمكننى الطلوع إلى الطابق الاعلى لأرقب مواضع النجوم ، ربما يقترب الفجر ، غير اننى حتى الآن لم اسمع ديكا واحدا يصيح .



● رسم : جون فريدرش .

كل إنسان يقول ما يحلو له ، أى شخص يدخل فيما لا يعنيه .

السرادق الأول

ماجرى لعلى بن أبى الجود وبداية ظهور الزينى بركات بن موسى

(شوال ٩١٢ هـ)

أول النهـــار :

وفيه تغرق البيوت فى نعاس طرى ، تتأخر الشمس فى الوصول إلى حوارى الحسينية ، الباطنية ، الجمالية ، والعطوف ، بينما ترى واضحة من فوق أسوار وأبراج قلعة الجبل ، جماعة المماليك التى تخترق شارع حدرة البقرة لم يخرجوا من القلعة ، خرجوا من بيت الأمير قانى باى الرماح أمير الخيل السلطانية ، عبروا الخليج ، نزلوا على مهل إلى باب اللوق ، أشرعوا سيوفهم فى وجه النهار المقبل ، السقاءون الذين قابلوهم قرب باب اللوق ، أول من يستيقظ فى المدينة ، يحملون الماء من النيل إلى البيوت ، يجهلون مقصد الفرسان ، تنثر حوافر خيولهم دوامات ترابية صغيرة ، تسرع خطوات الجمال مثقلة بقرب المياه البنية اللون ، يخفت همس السقائين ، يبقى فى أذهانهم انطباع خفيف كأثر ضربة المجداف فى مياه ترعة هادئة ، ينسل المماليك أول النهار ، تبدو البيوت ، أيام ما بعد عيد الفطر ، دائما يركب الخمول هذه الأيام التى تعقب الأعياد .

★ ★ ★

على بن أبى الجود ، لا يصحو إلا بعد مضى ثلاث ساعات من النهار ، دائما ينام متأخرا ، بعد عودته كل ليلة من القلعة ، يجىء نوابه ، يراجع معهم ما تم من أعمال خلال اليوم المنقضى ، قرب الفجر يصرفهم ، يخلو إلى نفسه مقدار ساعة ، ثم يمضى إلى إحدى زوجاته الأربع ، أو جواريه السبع والستين ، منذ شهر اكتمل عددهن سبعا وستين ، بعد مجىء واحدة حبشية ، وأخرى رومية ، على بن أبى الجود لا يخطىء طريقه إلى من اختارها لقضاء آخر ليلته ، يخطرها قبل مجيئه بساعات وعندما يدخل إليها ينفذ إلى أنفه عطر ، رائحة ثياب ممتزجة بعبير أنثى ، كل درجة يعلوها فوق السلالم القصيرة ، التى تنتهى بها هذه الطرقات ، فجاة تبعده شيئا فشيئا عن ضجيج النهار الراحل ، ما استمع إليه ، ما أضافه إلى سجلاته ودفاتره ، ما بلغه من شائعات ، أحاديث تتردد عنه هو بالذات ، ما يردده الأمراء والعوام على السواء ، الليلة عندما دخل إلى حجرة « سالمة » امرأته الثالثة ، بدأت تخلع عنه ثيابه ، عباءة زركش سوداء حفت بالقصب والذهب ، عمامته الصفراء الكبيرة الملتفة بشاش لونه أبيض ، مثلها لا يرتديها إلا الأمراء مقدمو الألوف ، سمح لعلى

بن أبى الجود بارتدائها منذ سنة ، ينحنى بها أمام السلطان ، يجالس الأعيان ، يشق بها فى المواكب . ومعروف ، لم تخلق العمائم الكبار لأى إنسان ، لا يجرؤ أى شخص على لبسها فى حضرة من له المقام ورفعة الشأن ، منظر العمامة فوق رأسه يوغر قلوب الحساد ، يوقظ النميمة ، يحرك الدسيسة ، على بن أبى الجود لا يبالى ، يتعمد التجول بها ، وتحسسها ، وإبرازها ، وإمالتها إلى الخلف ، وإلى قدام ، بالذات فى أوقات حديثه إلى الأمراء الكبار ، حذره بعض الأصحاب ، ألا يزهو أو يختال بعمامته فى حضرتهم ، لكنه لا يعنيه أمرهم ، يحرص جدا على معرفة كلامهم عنه ، تعليقاتهم عليه ، وإذا ما وجد فيها ما يستحق نقله إلى السلطان طلع لفوره إلى القلعة ، يضيف ويبدل فى الكلام ، بحيث يغير خاطر السلطان على قائله ، ولا يخفى ما فعل ، بل يتجاهر به ، ويفيض فى الحديث ، كيف أصغى السلطان إليه ، كيف ربت كتفه وعطف عليه ، الليلة ، فيما يبدو أخطأ نواب على بن أبى الجود ، لم يذكروا له وقوع أى حدث غير عادى ، فيما بعد ، زعم البعض أنهم عرفوا ما دار ، بالذات فى بيت الأمير قانى باى أمير الخيل السلطانية ، ولمح العامة ، بل أوضحوا وصرحوا إلى زكريا بن راضى أحد نواب على بن أبى الجود ، وكبير بصاصى السلطنة ، أنه لم ينقل ما يعلمه إلى على ابن أبى الجود ، هذا ما جعله ينام راضيا ملتصقا بزوجته الثالثة متألمة ، سالمة أيقظتها حركة غير معهودة ، أقدام تسرع ، أبواب تفتح ، صيحات بعض الحريم الخافتة ، الأصوات تصل إلى هنا متسلخة ، غير واضحة ، تختلط وتضيع معالمها ، ساقية ترفع مياها ، تدور وتصر أخشابها القديمة ، أمطار تلمس أرضا جافة ، قارب يتأرجح ، حوافر تعدو ، تعدو ، ماذا يجرى بالضبط ، إيقاظه قبل الأوان صعب ، « سيدى على » ، « سيدى على » يتقلب ، أوان تسقط ، يصرخ طفل ، تسقط كتلة خشب ، تتسابق دقات قلبها ، تصغى ، وقع أمر ، ماهو ؟ لا تدرى ، فجأة ، يتدفق دمها مذعورا فى عروق أرجفها رعب ، لم تشعر باستيقاظه المفاجىء ، إصغائه ، جفاف ريقه ، أما الباب فدفعته قدم محاطة بحذاء فرسان المماليك الجلدى الأسود ، الذى يغطى قصبة الساق ويلم السروال .

★ ★ ★

من بوابة الأمير قانى باى الرماح أمير الخيل السلطانية ، خرج مناد غليظ الصوت ، يعرفه الناس ، فى اللحظة نفسها خرج مناد آخر من بيته القريب من قصر الأمير قوصون الدوادار ، قرب حارة بيرجوان ، يتجه إلى العطوف ، إلى الحسينية ، إلى حارة الروم الجوانية ، هواء خفيف عذب يحمل إلى الآذان دقات طبل وأصوات منادين آخرين ، نداءات توقظ النيام ، تفك تلامس الجفون ، عمال الحمامات يخرجون ، عمال المستوقدات المجاورة ، باعة لبن ، باعة فول ، يتوقفون ، تصغى الآذان ، النساء يصحن مناديات بعضهن البعض ، بائعة بليلة تزعق فى حارة الميضة

التى فتحت بوابتها منذ قليل ، فجأة لا تنادى المرأة على البليلة ، إنما تنقل الخبر بصوتها المرتفع ، الرءوس تطل من الأبواب الصغيرة فى الحجرات الصغيرة داخل الربوع الضخمة ، أطفال صغار ، أطراف جلاليبهم بين أسنانهم ، يسرعون إلى أين بالضبط ؟ لا أحد يدرى ، تلوت زغرودة فى الهواء أطلقتها امرأة من إحدى الطيقان المرتفعة جدا ، جاوبتها أخرى ، ثم زغاريد ، نساء حافيات خرجن من العطوف ، الجودية ، السكرية ، يحملن أطفالهن فوق أكتافهن ، يصفقن ، يواجهن النهار الجديد بفرحة وليدة .

* * *

سعيد الجهينى :

من داخل رواق الصعايدة فى جامع الأزهر ، يصغى سعيد الجهينى إلى ضجة الخلق ، نافذة الرواق العلوية تطل على مدخل الباطنية ، تتدافع الأصوات إليه ، أخيرا .. أمسكوا على بن أبى الجود ، رسموا عليه ، بالأمس قبيل المغيب رأت الجموع موكبه ، هل جرؤ واحد على الظن وقتها أن نفس الطرقات ستشهده مشهرا مجرسا فوق حمار أزعر ، لا ذيل له ، الناس تسد الشارع كالجراد المنتشر ، فى القلوب غل رأى الفرصة فانفجر ، سعيد يراه الآن بعينى عقله ، هاهو ذا يمتطى حصانا عليه كنبوش مذهب ، يمر أمام بيوت المشايخ أو الأمراء ، تتقدمه طبول قوية تفوق فى ضجتها طبلخاناه تدق أمام أى أمير ، هاهو ذا يمشى فى الطرقات مترجلا ، يحفه حرسه الأشداء ، عندما اقنع السلطان بفرض ضريبة على الملح ، الحق الضرر بالمسلمين ، ملح الطعام عز وجوده . على بن أبى الجود يمشى لا يجرؤ إنسان على رفع عينيه فى وجهه ، عمامته تذهل الأبصار ، لم تمض ساعات ، هاهو ذا يركب حمارا بالمقلوب مبهدل آخر بهدلة ، يلطمه الصغير والكبير ، النساء يبصقن عليه ، الرواق خال تماما ، كلهم خرجوا ، فى الهواء رائحة رطوبة ، وخبز جاف مكوم فى أركان الحجرة المستطيلة الطويلة قاتمة الجدران ، أدخل قدميه فى النعل القديم ، لابد من طلوعه إلى مولاه الشيخ أبى السعود ، يمضى إليه فى كوم الجارح ، يتبادل معه الحديث ، يصغى إلى رأيه فيما جرى وما حدث ، صحن الجامع الكبير يشغى بالمجاورين وطلبة العلم ، فعلا ، لابد من مضيه إلى مولاه أبى السعود ، لكنه الآن يجلس بجوار العمود الرخامى الكبير القريب من باب زاوية العميان ، يمس الأرض الصلبة بعود قش ، سعيد يرقب ما تجىء به الأيام بحذر ، لا يخفى أبدا فرحته بزوال هذا الظل الثقيل ، لكن ماذا تأتى به الأيام ؟؟ بل ماذا يخبىء اليوم نفسه ؟ ربما انتهى الأمر بفتنة بين الأمراء تروح فيها رقاب ، تسيل دماء أبرياء لا حول لهم ولا شأن ، تغلق أبواب وطيقان ،

تشعل حرائق فى البيوت ، تهدم مساجد وزوايا ، من يدرى ؟ ربما جاء من هو أعتى وأقسى ؟ هنا ضرب سعيد عود القش فانقصم ، نفض يديه ، عزل على بن أبى الجود فيه رحمة بالعباد ، ضج الناس وهاجوا ، سعيد يسمع الآن ما قاله أحد المجاورين هنا منذ ثلاثة شهور ، مال عليه عمرو بن العدوى ، أخبره بما يضمره ، ضاق بما يأتيه على بن أبى الجود فى حق الخلق ، المظالم المستجدة فى كل يوم ، عمرو يعلم تماما ما يفعله الظالم ، يخلو إلى نفسه ساعتين فى كل ليلة ، يفكر فى طرق جديدة للمظالم ، يختلق فنونا جديدة لتعذيب ضحاياه ، بل قيل بين الناس انه أوصى زكريا بن راضى — عليه سخط الله وغضبه — بالبحث عن طرق جديدة لإنطاق الضحايا والمساجين ، أساليب لا يحلم بها إنسان ، قال عمرو إنه قبض على امرأة حامل ، فقيرة لا ظهر لها ، ضربها بين يديه بالمقارع ، أحرق أطرافها بالقطران حتى رمت مافى رحمها ولدا ذكرا فى ستة شهور ، لم يكتف على بن أبى الجود بهذا بل شنقها عند باب زويلة ، لماذا ، هل تدرى يا سعيد لماذا ؟ لأن رجال زكريا ضبطوها تبيع قفة بها ثمار العجور ، وكما تعلم فهو يحتكر بيع العجور ، مال عمرو هامسا ، نويت قتله ، ارتجف سعيد ، نظر فى عتمة المغيب إلى عينى صاحبه البراقتين ، جف ريقه ، أطرق وعاود النظر إلى صاحبه ، كرر عمرو ، سأقتله لأريح الخلق منه ، فى تلك الليلة عينها بصق الشيخ أبو السعود ومضمض فمه بماء عذب ، أصغى سعيد إلى صمت وديع يترقرق كماء الورد فى أنحاء الزاوية ، حمد الشيخ ربه لإصغاء سعيد إلى عمرو بن العدوى صامتا .

« هل أتجنبه يا مولانا ؟ » .

« لا ، لم أقصد هذا ، إنما الحذر واجب ، من يريد قتل إنسان كعلى بن أبى الجود لا يعلن نيته .. »

فى الرواق راح سعيد يرقب صاحبه ، ساعة الدرس ينظر إليه خلسة ، يحاول العثور فى تصرفاته على ما يؤكد تلميحات الشيخ أبى السعود ، إذ يتحدث إليه ، ينتقى ألفاظه لا يتطرق إلى نقد أمير أو كبير ، يراه سعيد متجها إلى البيت القائم قرب المقطم ، يخلو إلى زكريا بن راضى ، لا ، ليس زكريا نفسه ، إنما أحد نوابه ، طالب علم فقير مثله لا يجالس زكريا الذى ترتعد لذكره النفوس ، عمرو ينقل ما قيل ، تجىء الأيام التالية برجال غرباء ، يسألون خفية عن سعيد ، يتبعه بعض المستصنعين لزكريا ، يجهلهم لكنهم يعرفونه ، يرصدون خطوات قدميه ، الحارات التى يطؤها ، ضحكاته ، لحظات شقائه الخفى ، فرحه وبهجته ، فى لحظة معينة ، لحظة يجيئون فيها كعصبية ، رعد أول الشتاء يفاجىء أهل مدينة آمنة ، يمد أحدهم يده ، يلمس كتفه ، يلفظ لفظا واحدا ، يساق إلى سجن زكريا بن راضى ، ينوعون له العذاب تنويعا ، يلقونه فى سجن كبير ، العرقانة ، الجب ، المقشرة ، تنسل أيامه ، ينسى

خبره ، يفنى ذكره ، يضيع اثره ، سعيد يبدو مهموما يسمع بشنق عبد ، قطع يد سارق ، إشهار إمراة ضبطت تسرق رغيفا ، تقطع يدها اليسرى ، أو اليمنى إذا وجدوا اليسرى مقطوعة من قبل ، يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه ، لماذا يحدث هذا كله ، لماذا ؟؟ تعلو الأسئلة وتنزل كعصا نقرزان ، حلقات غليظة فى سلسلة حديدية ساخنة تلهب منه العصب ، تسل النخاع ، تجفف ماء الحياة ، يود لو يزعق من فوق مئذنة الأشرف قايتباى بالأزهر ، يوقظ بيوت العامة الفقراء ، منازل الأمراء ، توخز عينيه أسوار قلعة الجبل ، يرفع يديه ، يطلق اذانا طويلا لا رجعة فيه ، يسب كل ظالم أثيم ، يرى بعينيه زكريا بن راضى مخوزقا بجوار باب الوزير ، سعيد لا يود أن يمضى بين الناس إلا زاعقا ، راجفا محذرا من امور تاتى ، فى كوم الجارح يهدئه الشيخ أبو السعود ، الصالح ، الطيب المنجب ، النجيب ، العارف بالأصول والفروع ، دار ولف الدنيا ، اقام زمنا بالحجاز واليمن ، عرف لغة الهند ، ولهجة الأحباش ، عالج أمور المسلمين فى فارس ، وناقش علماء الأناضول ، راى بعينه مياه المحيط الأعظم عند حدود الدنيا الغربية ، يصغى سعيد إليه ، تغيب عنه لحظة دائما يتوهمها ، لحظة يضع فيها أحد المستصنعين البصاصين يده فوق كتفه ، يضحك كاشفا صفين من أسنان صفراء .

« تسمح معانا »

الآن ، على بن أبى الجود نفسه مشكوك فى الحديد : لاتعرف البهجة طريقها إليه ، بعد ذهابه إلى مولاه سيمضى إلى الشيخ ريحان ، يبادله الحديث ، حتما سيقول الشيخ ريحان ، انه علم الخبر قبل أيام ، ربما تمادى ومال على اذنه هامسا : قوصون وقانى باى لم يتحركا إلا بعد استشارته ، سعيد سيدارى ابتسامة ، وينتظر ، ربما تبدو سماح ابنة الشيخ ريحان ، عسى أن يسمع ضحكتها ، حفيف ثوبها ، ربما تدخل على أبيها فتدارى وجهها ، لكن الشيخ ريحان يدعوها ، سعيد ليس غريبا ، وهو ابن جهينة ، ولو تاخر ميلاده سنوات لأمضيا وقتا فى اللهو ، فى اللعب ، ربما اسعده الحظ بقدر معقول ، يشم رائحة طعام هى طاهيته ، ياكل منه ، يرتعش قلبه ، ترفرف روحه ، يعود إلى الرواق ، يخلو إلى نفسه طوال الليل ، يقتات اللحظة ، يعيشها ألف مرة ، الآن تثور ضجة بين المجاورين ، يؤكد احدهم استحالة مجيء إنسان يشغل وظائف على بن أبى الجود كلها ، وكالة بيت المال ، التحدث عن جهات الشرقية ، ثم الحسبة وهى أجل وظائفه ، إلى جانب مهمته الأصلية التى لم يعد يمارسها تقريبا فى أعوامه الأخيرة ، بشمقدار السلطان ، كان يحمل نعل السلطان فى أوقات الصلاة ، وظيفة ليست غريبة عليه ، من قبل عمل بشمقدار صغيرا للأمير طومنباى ، وعندما علا نجمه وبرق ، سطع فاله ، وبلغ سعده ، تبرأ من البشمقدارية مع انها الأصل ، « من إذن ؟؟ »

الأسماء كثيرة .. لكنها لن تخرج عمن نعرفهم .. الأمير ملماى .. طغلق .. ططق .. قشتمر ..

« آه .. عد غنماتك يا جحا .. »

« لكن .. مستحيل أن يشغل أمير واحد كل الوظائف .. »

« من مدة والتدبير عمال لإزالة علي .. فهل يطرده السلطان ليأتي آخر يستبد بالأمر كله ؟؟ »

من إذن .. من القادم ؟؟

كل يحاول النفاذ إلى ما يجيء به الغيب ، تدبر أمور ، في القلعة يدور همس فوق الحشايا ، في الحجرات المغلقة داخل بيوت الأمراء ، والقضاة ، علي بن أبي الجود ينتظر مكبلا في قبو مظلم نتن الرائحة ، يرى أيامه وهما ، حلما ضاع ، اندثر .

« ربما جاءنا من لا يخطر ببالنا قط . »

« عد أغنامك يا جحا .. قلت لك .. يا جحا عد أغنامك . »

الدروس معطلة . لن يطول الأمر ، ليس معقولا بقاء هذه الوظائف شاغرة ، أشعة الشمس الراحلة تفرش صحن الجامع ، خبز الجراية مرصوص منذ الصباح يجف ليحفظ زمنا ، طنين الحديث لا ينتهي ، سعيد يرى عمرو بن العدوى ، نحلة حائمة ضلت طريقها إلى جحرها ، من حلقة إلى أخرى يتنقل ، يصغي ، يشارك في الأحاديث ، يغضب وقت الغضب ، يفرح لحظات الفرح ، يلقي رأيا يبدو عارضا ، قيل صدفة ، لكنه يدفع الحديث في اتجاه تشتهيه سفن زكريا ، لا يقترب من الشوام والطلبة الأفغان ، أو المغاربة ، لا يهمه أمرهم ، دائما بعيدون عما يجري ، في المساء ينقل عمرو ما يراه وما يسمعه ، لكن هذا المساء بالذات ، إلى من يمضي ؟؟ من يصغي إليه ، يبتسم سعيد إذ يجول السؤال بذهنه ، هل تبقى آذان زكريا وعيونه مفتوحة كالعادة ؟؟ هل يجد الوقت ليصغي ؟؟ هو أو نوابه ؟؟ ربما يفكر الآن فيما يجب عمله بعد ذهاب ولي نعمته علي بن أبي الجود ، علي هو الذي أقره كبيرا لبصاصي السلطنة ونائبا له ، لمن يمضي الليلة عمرو بن العدوى ؟؟ سعيد يقرض شفته السفلى ، كيف يعذب عمرو يوم القيامة ؟؟ ربما أطاح رقبته بكلمة ، يسفك حياة أسرة بوريقة ، يقطع الأمل من قلب أب عجوز ينتظر عودة إبنه الفقيه ليؤم المصلين في القرية ، آه لو يمضي سعيد الآن ، يمسكه من عنقه ، ينفذ إلى أعماقه المكنونة ، بنظرة حادة كسكين تغوص بين لوحي كتف ، صمت في صحن المسجد ، سعيد الآن حذر ، كلماته تخرج بحساب ، فراش عمرو وكيس جرايته لا يبعدان عنه إلا بمقدار ثلاثة مجاورين يتمددون فيما بينهما ، لو تقلب في الليل ، لو خرج يتوضأ قبيل الفجر ، عيناه تقعان عليه لا محالة ، ربما يخطيء مولاه ، لكن معاذ الله ، لا يظن السوء بإنسان ، يستدير متمهلا ، رائحة الحصير القديم ، الرحبة خارج المسجد

تفيض بالمارة ، حمير مربوطة إلى جدار قريب ، صوت المنادى لا يمل تكرار الخبر ، إمساك الظالم الطاغى المستجبر ، على بن ابى الجود ، الحوطة على موجوده ، على حواصله وامواله ، على حريمه وجواريه ، ترسيمه فى جب القلعة حتى يتكشف امره ، امراة تلقى درهما إلى المنادى ، حلاوة البشارة والنقوط ، بهجة تمتد إلى روح سعيد ، بطيئة كسريان ماء فى شقوق ضيقة ، يرى سماح ، آه لو تصحبه الآن ، ترقب الناس معه ، يسمع وقع اقدامها ، لا يعرف صاحب الخطى ، لكنه يثق عند جلوسه إلى الشيخ ريحان انها هى ، وهى بالذات ، فرحة الناس تدفئه ، لو فاض درهم عن حاجته لأعطاه للمنادى ، ينحل خيط مر إنعقد فى لعابه من قبل ، يذوب متلاشيا ، من داخل الباطنية خرج صبيان يعملون فى مصبغة خضر شيخ الصباغين ، صبغوا وجوههم باحمر واخضر ، يرقصون ، يغنون . ؟

إحزن . إحزن . يا حسود ..

شالوا على بن ابى الجود .

★ ★ ★

(مرســوم شـريف)

بسم الله الرحمـن الرحيم

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويامرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر)
(وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)

أما بعد :

الحمد لله الذى هدانا إلى كشف اشرارنا ، والاهتداء إلى خيارنا ، لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام فى البلاد ، فمن بعد ترسيمنا على الباغى بن أبى الجود ، وإقامتنا دونه الحدود ، راينا ملء وظائفه ومراتبه ، وحتى نحفظ العدل ، ونطلب منه المزيد ، فكل منا عليه رقيب عتيد ، راينا توزيع هذه الوظائف على ارباب المعرفة والعلوم ، والأمر بهذا حمل إن لم تتوزعه الأكف ثقل على الرقاب ، وبدانا بوظيفة الحسبة لأنها تمس أحوال الناس ومعاشهم ، ولا يمكن تركها شاغرة ، وبعد الاطلاع على أحوال الناس ، ومعرفة اى الخلق منهم يريحهم ويجنبهم الصعاب .

وبعد قراءة التواريخ الماضية ، واستيحاء العبر ، والوصول إلى حقيقة المبتدأ والخبر . وبعد طول تفكير وتدبير ..

قـــررنـا

يتولى بركات بن موسى ، حسبة القاهرة ، لما تبين لنا بعد ما قدمناه ، ما فيه من فضل وعفة ، وأمانة وعلو همة ، وقوة وصرامة ، ووفور هيبة ، وعدم محاباة أهل الدنيا وارباب الجاه ، ومراعاة الدين ، كما انه لا يفرق فى الحق بين الرفيع والحقير ، لهذا انعمنا عليه بلقب « الزينى » يقرن باسمه بقية عمره .

وقد أوصيناه بالنظر فى المكاييل والموازين ، والتحذير من الغش فى طعام أو شراب ، وان يتعرف الأسعار ، وان يستعلم ويستقصى الأخبار ، ما يتردد على أفواه الناس ، فى كل درب أو حارة ، كل بيت أو سوق ، بدون علم أهله ، وان يعين له نوابا ينظرون امور المسلمين ، بشرط ان يكونوا امناء مؤمنين ، والا يمكن أحدا من العطارين ، من بيع غرائب العقاقير ، وان يمنع المتحيلين على اكل أموال الناس بالباطل ، وان يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمنع عن الفسق ، والنظر فى أمر فقراء المكاتب ، والعالمات والمغنيات من النساء ، ولا يمكن منهم أحدا ، ولا يستتيب عليهم إلا من عرفت أمانته ، واثرت صيانته ، وان يكونوا من أهل

العفة والأمانة والنزاهة ممن بعدوا عن المطامع ، ونأوا عن السوء ، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، فلا يبالى باحتسابه بغض الناس له ، وسخطهم عليه ، أو رضاءهم عنه ، وأن يكون مواظبا على سنن الرسول ، من قص الشارب ، ونتف الابط ، وحلق العانة ، وتقليم الأظافر ، ونظافة الثياب والتعطر بالمسك ، هذا ما رأيناه ، وبه أمرنا ، وسلام على أشرف الخلق ، سيد المرسلين ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

« قلعة الجبل »

ثامن شـــوال

★ ★ ★

زكريا بن راضى :

فى أى وقت أو مكان ، هل حال أمر بينه وبين فهم ما يجرى ، النفاذ إلى الأحداث ، الصغير منها والكبير ، الآن بالذات يحاول تلمس الأسباب ، ما يجرى الآن يحيره ، أول الليل ، نزل إلى السجن الصغير المدفون تحت البيت ، تقدمه المشاعلى مبروك ، لا يذهبان إلى السجن إلا نادرا ، مرات قليلة خطا فوق الممر المعتم الضيق ، فى نهاية تجاويف صغيرة فى الجدران الرطبة المبللة اللزجة ، تضيق الفجوة بقامة الإنسان ، السجين يضطر إلى إحناء ظهره عند الوقوف حتى لا يصطدم رأسه بالسقف غير المستوى ، لا يمكنه تلفت أو تقلب ، أو قعود ، أو نوم متمددا لضيق المكان ، وبسبب المياه التى يرشها مبروك الأخرس عدة مرات كل نهار ، يحافظ على منسوب إرتفاعها فوق الأرضية اللزجة المبللة ، زكريا لا يلقى المحابيس هنا ، يبقى فى الطرف الآخر للبيت ، يجىء مبروك ، يفك قيود المحبوس المطلوب ، يعصب عينيه بمنديل ، يدفعه بحربة قصيرة فى ضلوعه ، فى النهاية يقف أمام زكريا ، يبقى السكون بلا خدش فيتزايد رعب السجين ، لا يدرى من أين تجيئه الضربة ، وبعد لحظات تطول أو تقصر يمد زكريا فجأة يده ، يلمس كتف السجين ، غالبا ما يلمسها برفق ، على مهل ، بتأن ، كثيرون لم يحتملوا المفاجاة والمباغتة الخفية اللينة كبطن الأفعى ، يسقطون مغشيا عليهم ، ترفع العصابة عن العينين ، فى البداية تترقرق ابتسامة هادئة ، نار قرب انطفاؤها ، يمضى وقت ، ترتفع صرخات زعيق وآلام ، تصر عجلات الساقية التى تبدأ فى رفع المياه من البئر العميقة ، أحيانا يأمر زكريا بقرع الطبلخاناه ، خاصة فى الليل ، فى السكون الغويط ، يسمع من

بعيد ، يدرك القلائل جدا ، أشد المقربين إلى زكريا والعاملين معه ، يدركون ما يحويه قرع الطبلخاناه الآتي من سفح المقطم ، الليلة يمر ، زكريا بنفسه في السجن المعتم الرطب ، قبل ذهاب النهار طلب من مبروك إخلاء التجاويف من كافة السجناء ، جمعهم لا يدرى أحد بوجودهم ، لم يصدر مرسوم بإمساكهم ، زكريا لا يدرى ما تحمله الساعات الآتية ، لا يأمن أبدا مهما استقرت الأحوال ، عندما يرى الكل رسوخ الأمن وعمق جذوره في جوف الزمن ، لا يخطىء زكريا تقدير أضيق الثغرات ، وأتفه الاحتمالات ، من يدرى ؟؟ ربما أرسل أمير إلى السلطان يخبره بأمر المحابيس هنا ، منهم من نسيه زكريا لطول المدة ، ربما جاء مماليك الغورى ، الجلبان أو القرانصة ، تسلقوا الأسوار ، نفذوا من الأبواب ، الممرات والحجب ، أمسكوه ، بهدلوه ، ثم يفتشون السجن ، سوف يبحثون عن شعبان ، شعبان بعينه ، من شهور اختفى لم يدر به مخلوق ، شعبان غلام السلطان المقرب ، المفضل على غيره ، جليسه في خلواته ، أنيسه في سهراته ، يقعد إلى يمينه دائما في نفس مكان الأمير الدوادار ، وأمير السلاح وأمير آخور وكبار رجال السيف والكتاب ، شعبان فلقة قمر ، هلال فضة مولود ، شفتاه حبتا ياقوت ، عينا هر ، فمه مسك وطيب ، خده الين من حرير ، يده في طراوة العجين ، لا يتجاوز العشرين ، عندما قرر زكريا اختطافه لم يأمره أحد بذلك ، لم يوزه أمير ، لم يدفعه وزير ، أى مخلوق ، قرر أن يصل إلى جوهر الصلة بين شعبان والغورى ، سؤال محير الهب مرقده ، أحرق ما بين جفنيه ، هل يهوى السلطان الغلمان ، هل يؤثرهم على النساء ؟؟ أمر كهذا لا يغيب عن زكريا أبدا ، إذن لابد من الوصول إلى الحقيقة ، خاصة والقرائن تؤيد ما يحوم من ظنون ، منذ توليه أمور السلطنة لم يسمع أنه أزال بكارة أو أضاف إلى مشترياته جديدا ، فيما عدا عشر جوار وصلن إليه هدية من ملك البندقية عندما أرسل قاصده إلى القاهرة من شهور ، زكريا يعرفهن ، لديه أسماؤهن ، أوصافهن ويعلم من مصادره أن السلطان لم يقربهن ، وأنهن يتقلبن متحرقات ، ولولا أن الرجال المسموح بدخولهم إليهن طواشية لأتين من الفعال ما تتندر به أجيال وركبان ، أيضا لم يتزوج الغورى إلا اثنتين ، إذن هل توجد صلة بين السلطان وشعبان ؟؟ ولن يجيب عن السؤال إلا شعبان بشخصه . راح مبروك يرقب مرات طلوعه ونزوله ثلاثة شهور كاملة ، حتى ألم بعاداته ، حفظ المواقع التى يتردد عليها ، انحناءات طريقه ، عدد البيوت على جانبيه ، مواقع الخلاء فيه ، وفى لحظة معينة خلت السماء من القمر ، من ضوء النجوم ، كمن عدد من الرجال الملثمين على جانبى المدق الرملى الموصل إلى أول طريق القلعة ، وفى الليلة نفسها وصل مقر زكريا ، تأمل شفتيه ، تعجب من خلقته ، من رقته ، مد يده وتحسس نعومة بشرته ، استرسال شعره ، دهش لنصاعة أسنانه ، طيب رائحته ، رهافة لسانه . ..

هذا يخلق بين جنس الرجال ، خلع ثياب الغلام قطعة قطعة ، الولد لا يدرى ، غائب عن وعيه ، صرف زكريا رجاله . مال فجأة وقبل الغلام ، قال لنفسه ، وقع القبلة بعد صحوه أحسن ، وفعلا رأى فى الصباح تورد الوجه المليح ، ورد سقاه الندى ، أبدى كربا ، ورأى الغلام هادئا واثقا ، تحدث إليه ، لم يفصح عن غرضه مباشرة ، لم يكشف قصده ، استمع إلى وصف بلاد رآها شعبان ، تساءل بعدها ، أحقا لم يتجاوز العشرين ، شعبان رأى الصين ، زار فارس ، ورقص فى جبال الأناضول ، عالم بلغة الفرنجة ، يتقن لهجات البربر : أهالى الجبال فى بلاد المغرب ، كيف ألم بكل هذا ، متى اتسع العمر القصير ، كأن زكريا يجالس شيخا خبر الدنيا وأمسك باطن أسرارها ، الثغر العذب ينشد أرق الشعر وأعذبه ، خلاصة الحكم والمقولات ، متى استمع إلى هذا ؟؟ كيف لا يسأل عما يراد به ، لحظات عديدة أيقن فيها زكريا بوجود أسماء أخرى عديدة للغلام ، شعبان واحد منها ، ثلاثة شهور مضت كاد زكريا ينسى الهدف الأصلى ، يضل عن الوصول إلى حقيقة مابين السلطان وبين شعبان ، فى البداية حام ودار ، أنكر شعبان ، فى ثنايا الأحاديث والكلام يلقى زكريا بخبيث السؤال ، يبدى الغلام تجاهلا ، مرت الأيام ، وصبر زكريا ينفد كحبات الرمال من بين الأصابع ، فى ليلة ضاق به الأمر ، نزل إلى القبو ، أوثق الغلام ، عراه ، قبله فى شفتيه ، رأى انسحاب الدم من الوجه المليح ، من أذنيه ، تحسس العنق الناعم الأملس ، زام شعبان وعض يد زكريا ، طرحه أرضا ، أفسد الأرض البكر ، عبر مضايق مجهولة لم ينفذ منها إنسان ، وقف عند حافة لم يطلع عليها ذكر ، لم ينظر فى وجه الغلام ، غادره كدرا متضايقا حزينا ، لماذا ؟؟ لا يدرى ، ليس السبب فشله فى الوصول إلى حقيقة العلاقة ، بعد ثلاثة أيام نزل القبو ، رأى وجها بدلته قسوة تقاس بعشرات الأعوام ، فى البدء ظن أن الغلام أبدل ، أين ملاحة الوجه ، روقان أول العمر ، ناداه ، لم يجب شعبان ، لم يفه حرفا ، زال زهاء الشباب ، انكسر غصن الوردة ، نسى الغلام بلادا زارها ، قرى رآها ، ثلوجا بيضاء تفنن فى الحديث عنها ، أى لغز يحير زكريا ، غادر القبو مسرعا ، عاد إليه مرات خلسة ، روعه ما رآه وأفزعه ، نحل الغلام وكاد يفنى ، لو امتد الوقت ، لو فى الزمن فسحة ، متسع ، ربما توصل إلى سر ما حدث ، يضع يده على بدايات الأشياء ، ربما توصل إلى حقيقة الأمر بين السلطان وغلامه شعبان ، لكنه الليلة محسور ، الغيظ يهريه ، للأسف ، يقرر خنق شعبان ودفنه حيا ، بنفسه راقب الخنق ، مبروك وحده قام بالعملية ، ضربات معوله الصماء عالقة فى أذن زكريا ، الليل وغرابة الأمر ورحيل الفتى يكسبها رنينا قاتما مخيفا ، لكن ، لابد من تنفيذ ما أمر به ، ربما جاءوا واختطفوا شعبان حيا ، يطلعون به إلى السلطان ، يا مولانا هذا غلامك الحبيب وجدناه عند زكريا بن راضى كبير البصاصين ، ونائب على بن أبى الجود ، يا مولانا خانك زكريا فاختطف أحب الناس

إليك . فسق فى أقرب الخلق منك ، بدله وغيره . أنهى أوله وآخره ، كبير بصاصيك الذى جئت به يوما ، كدت تظهر ضعفك أمامه ، طلبت منه بقلب كليم ، أن يطلق رجاله ، عيونه ، بحثا عن شعبان ، حبيبه وصفيه ، زكريا هذا .. هنا لابد من هلاك عظيم ، فناء أكيد ، لن يوسط ، لن يخوزق ، الشنق وقتئذ نعمة لا ترتجى ، الموت خنقا أمنيه صعبة ، أما السم الزعاف فجنة لا ينالها أمثاله ، سيأمر السلطان بشيه حيا على نار بطيئة ، من قبل شوى ثلاثة رجال على السفود - قيل مجرد القول إنهم شوهدوا فى صحبة الغلام مرات - لم ينتظر ليستقصى ، من هم ؟؟ من أى جنس ؟؟ ما الذى يجمع ثلاثة من العامة بشعبان ، زكريا نفسه لا يعلم ، لم يخبره الغلام عنهم ، سبب اجتماعهم به ، عموما ، إذا مرت الأمور بسلام ، الليلة ، غدا أو بعد غد ، فسيطلق بعض الأتباع من عتاة البصاصين وأشدهم بأسا وقدرة على الاختفاء ليحاولوا الوصول إلى أصل هؤلاء الثلاثة ، جمع ما تيسر من معلومات عن الغلام ، من يدرى ؟؟ ربما عرف عنه وهو ميت مالم يعرفه قبل موته ، ربما كشف الأمر عن أمور لا تخطر ببال عاقل ، النيران لا تهب إلا من مستصغر الشرر ، فعلا ، ليس من الأمان بقاء شعبان حيا ، وغيره من المساجين ، أى شخص يبقى هنا ، حتى حقير الهيئة ، مبتور الأصل فاقد النسب ، أو مجهول الهوية من صغار المنسر والحرامية ، سيعلو شأنه وقتئذ ، يطلق العامة والخاصة التشنيعات المهولة ، يحطون فى حقه كل قبيح ، زكريا يحبس خلق الله ، زكريا لديه سجن تحت بيته ، ترى كم من الأرواح أزهق ؟؟ أى الطرق سلك فى تعذيب أجساد خلقها الله ، وقتها يقوم الكارهون ، الأمراء ، أولاد الناس ، مساتير الناس ، مشايخ الطرق ، طلبة الأزهر والمجاورون ، سيرون فى المحابيس ، كل من أمسكهم زكريا مساكين ، أرواحهم بريئة ، لم تجن ذنبا ، لم يتآمر أصحابها ، لم يسرق بعضهم ، لم يقل سبابا فى طريق عام ضد أمير أو كبير ، الآن ، يفتش السجن بنفسه ، يتناول المشعل من مبروك ، ينبش تجاويف السجن بعينيه ، عطن ونتن يتصاعد إلى أنفه ، العفن لزج ، لكن صبرا ، ما قام به يدفع بالرضا إلى روحه ، لتخل التجاويف من الآهات والتأوهات والأنات ليالى معدودات ، لن تتردد أسئلة المتحشرجين إذ يسأل بعضهم البعض عن أسمائهم ، عن قراهم وبلادهم ، الأسباب التى جاءوا من أجلها ، زكريا عندما رأى المحابيس تعجب ، رأى وجوها لا يذكر أصحابها ، كأنهم جاءوا بدون علمه ، نسيهم لتعاقب السنين وكثرة المشاغل ، الآن ، اطمأن زكريا ، يخرج إلى الهواء الطرى الآتى من أعالى المقطم ، يمكنه أن يخلو إلى نفسه ، مبروك يدرك تماما ما يريده أستاذه ، يبتعد مندمجا بالظلام ، يتحسس زكريا مقبض خنجره القصير مسموم النصل ، يقطع الفناء المتسع بخطوات ثابتة ، لعباءته حفيف ، ضحكة ناعمة كخيط حرير ، كشرنقة فراشة ، تجىء من أعلى ، بعضهن يتسامرن فى الحرملك ، لن يخلو الليلة إلى أى منهن ، لن يرى ابنه

يس ، يدفع جزءاً في جدار ، يغلقه ، يطلع سلالم ضيقة تؤدى إلى اعلى طوابق مبنى الديوان المجاور لمبنى البيت ، الناظر من بعيد ، حاد البصر ، يمكنه رؤية نقطة ضوء تتسرب الآن من ثقوب المشربية ، لكن مهما أوتى المرء من دهاء ، مهما انكشف عنه الحجاب ، لا يمكنه ابدا تخمين ما يضمه الطابق العلوى ، زكريا لا يجيء إليه إلا اوقات الاضطراب ، تقلقل الأمور ، تغير الأحوال السريع المصحوب بارتجاف الزمان ، انهيار القوائم ، تحلل الاسباب ، قبل بداية العمل يتكيء إلى حشية لينة تحجز عن ظهره برودة الجدار المكسو برخام احمر ملون باسود ، يغمض عينيه ، ما معنى الذى جرى ؟؟ حيرته الآن اشد حدة من اللحظة التى جاءه فيها الخبر ، حوله تشهق الجدران تسند طوابق خشبية مقسمة إلى مربعات وخانات ، كل منها يضم عددا من الدفاتر ، تختلف الوانها واحجامها ، هنا تتلخص الديار المصرية ، دائما يقول زكريا لأعوانه المقربين ، عندما اود الذهاب إلى اى بلدة فى مصر لا ابتعد عن بيتى ، أجيء إلى هنا ، لكل بلدة قسم ، كل قرية ، اى كوم او عزبة ، اى إقطاع فى بر مصر من أدناها إلى اقصاها ، كل دفتر يحوى أوصاف المكان ، ما اشتهر به ، ثم اهم الأشخاص فيه ، كافة ما يتوافر عنهم ، القسم الخاص بالقاهرة يحوى حاراتها وخططها وجوامعها ، رجالها وشيوخها ونساءها وغلمانها وجواريها وبيوت الخطا فيها وشرطتها وعسسها وفقهاءها وحماماتها واسواقها وخاناتها وطوائفها ومغنياتها وملاهيها ، واسماء الأروام المقيمين والقادمين والراحلين والافرنج العابرين ، ومن يتصل بهم ويتردد عليهم من المصريين ، كل امر كبير او صغير هنا ، اما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلق بهم ، امزجتهم وعاداتهم ، مشاربهم واهواؤهم ، ما مر بهم من افراح واتراح كله هنا ، يقول زكريا متباهيا ، هذا القسم فى الديوان مفخرة للسلطان وغرة فى جبين السلطنة المصرية ، لم يحدث قط ان اعد شيء كهذا فى تاريخ اى بصاص مصرى او افرنجى ، وبإذن الله العليم القريب سيجيء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به ، يلخصه منذ آهة الميلاد حتى رعشة الموت ، الآن ، يبحث بين الدفاتر ، بالضبط هذا ما يريده ، دفتر احمر مجلد بقماش ، هنا يرقد المباشرون وارباب الوظائف اصحاب الطوائف الصغيرة ، وفى آخره ملحق يتضمن من يظن وصولهم إلى مناصب يوما ، نوعيتها ، لا يذكر ما دون عن بركات بن موسى ، شهاب الحلبى ناظر الديوان أضاف إسمه منذ عامين تقريبا ، لم يطلب زكريا صفحته للاطلاع عليها ، لا يدرى هل اضاف شهاب الحلبى معلومات جديدة عنه ؟؟ الآن يتأخر الوقت ، الليل يوغل حتى العظام ، لولا سرية الأمر لأرسل فى طلب شهاب الحلبى ليجمع كل ما تناثر من معلومات حول الزينى ، لكن لكى يرسل إليه ، لابد من اجتياز حارات مسكوكة ودروب مغلقة ويتجنب عسس وعيون زكريا نفسه ، ربما يثير استدعاء شهاب الآن ظنون البعض ، لا داعى لحضوره ، لا داعى ، زكريا

بضيق ، بوغت بإعلان الخبر ، لم يستبق كافة رجاله فى الديوان ، ولم ينفذ ما اقترحه منذ فترة بخصوص تيسير سبل الاتصال بينه وبين نوابه ورجاله وأعوانه ، لابد من مراعاة هذا بسرعة وتنفيذه من الغد ، لولا حرصه على معرفة كل ما يضمه الديوان ، طريقة ترتيب الدفاتر والتقارير والأوراق لتاه الآن ، لا يدع احدا من نوابه يستاثر بامر ما حتى لو كان صغيرا تافه الشان ، لابد من إلمامه بكل ظروف العمل ، طرقه ومصاعبه ، حتى لا يلعب به احد رجاله ، يخدعه ، لكن ما احوجه الآن إلى شهاب الحلبى بالذات ، شهاب الحلبى لا يكلف روحه عناء البحث ، لديه ذاكرة عجيبة ، يعرف آلاف الأشخاص ، ما يخصهم ، لا ينسى امرا ابدا ولو مرت سنون ، يذكر ما تبودل من اوراق وتقارير ، ما اضيف من معلومات وسطور ، فى اى سنة من السنين ، الآن يقلب الدفتر ، يمسك بالشريط الملون الذى يفصل الصفحات عن بعضها ، حرف الألف لا يعنيه ، غير مهم ، ربما مات بعض اصحاب هذه الأسماء ، بعضهم يجب نقله إلى دفاتر طبقات اخرى لتغير اوضاعهم ، او اختلالها ، آه مثلا هذا ، احمد بن عمر خادم مسجد سيدى سويدان ، اصبح إماما للمسجد يقرأ فيه الحديث والقرآن ويؤم المصلين ، تزوج امراة حبشية ، يشاع عنه هواه بالحبشيات ، مع هذا مازال لقبه واسمه فى طائفة الخدام ، كل حريمه هنا . واحدة فلاحة من اوسيم ، ام اولاده ، منهم طالب ازهرى ، لا يجب تنبيه شهاب الحلبى ، ربما قيل وما اهمية هذا ؟؟ ابدا ، ابدا ، كل شاردة وواردة يجب تقييدها ، رصدها ربما جاء منها مالا يدرى مخلوق ، هاهى . الباء ، حرف الباء ، بالضبط بركات ، بن موسى ، اعلى الصفحة ، اقصى الركن الأيسر كلمة واحدة ، حروف خمسة لا غير ، المداد اسود ، الخط رفيع .

* * *

« بـــركـــــــــات » :

لو نظر جاهل إلى الورقة لظن خلوها من اى حرف عدا الإسم ، وما الذى يعنيه لفظ واحد فى صفحة بيضاء ، ناصعة تلمع تحت ضوء الشموع المعلقة إلى الجدران المبطنة بالخشب والرخام والرفوف المزدحمة بالدفاتر ، زكريا يمسح الورقة بقالب صغير شفاف لا يعرف تركيبه إلا قلة ، شيئا فشيئا تبدو ملامح الحروف ، تتكشف الكلمات ، يد خفية تخطها ، زكريا يمر بالقالب مرات ، نفخ الهواء حوله ، فقط اربعة سطور ، اربعة سطور فقط ، يستعيذ بالله العلى القدير ، ملهم البشر ، كاشف الأسرار ، عالم الغيوب ما لهذا الرجل لا ياتى من ناحيته إلا الحيرة ؟؟ كل ما خطه شهاب الحلبى اربعة سطور . (بركات بن موسى ، له مقدرة الاطلاع على النجوم ، امه اسمها عنقا) .

زكريا يطبق الدفتر ، أى شخص من سِفْلَةِ الخلق ، من طلبة الأزهر المشاغبين ، أى غانية ، أى بائع جبن مقلى ، أو سنبوسك ، لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف ورقة ، وهذا الإنسان يساوى سطورا أربعة يتيمة ، يغمض عينيه ، ليل ساكت لا يكشف سرا ولا خبرا ، يعرف أن القوم يسهرون الآن ، يهمسون ، يحطون آراءهم فى المحتسب الجديد ، وما ينتظرونه منه ، آه لو يجيء يوم يدرك فيه البصاص ما قيل على بعد آلاف القرى والبلاد ، لا يبعد أمر على الله . لولا ثقة زكريا فيما نقل إليه بعد الغروب ما صدقه الآن ، أكثر من مصدر ، أكثر من بصاص ، كل بصاص يجهل الآخر ، نقلوا إليه أخبار سعى بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة ، ذهابه اليومى إلى الأمير قانى باى ، طلوعه إليه ، بقاءه عنده ، حديثه إليه ، ثم ثلاثة آلاف دينار كاملة سلمها إلى الأمير قانى باى ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد العشاء . ثلاثة آلاف دينار يشترى بها بركات منصب الحسبة ، زكريا ينفخ الآن من فمه هواء ساخنا ، ظن وأيقن وصول الحسبة حتما إلى الأمير طغاز ، أصابعه تقبض على حافتى الدفتر ، هاهو أول الليل يسمع ما يحيره ، ما يجعله ينطق لفظا يكرهه « لماذا ؟؟ لكن هل يعقل هذا ؟ من أى طينة خلق بركات هذا ، هل جاء المسيح الدجال متنكرا ، هل نفذ إلى العالم ولم يدر به زكريا ، كيف ، كيف ؟ . بعد إصدار المرسوم السلطانى الشريف ، بعد الثناء على بركات بن موسى ، بعد الانعام عليه بلقب الزينى مدى الحياة ، بعد دفع بركات ثلاثة آلاف دينار ليشترى المنصب ، بعد طواف المنادى نهارا بأكمله ، بعد هذا كله يطلع من بيته فى بركة الرطلى ، يشق دروبا جانبية ، لا طلبخاناه تتقدمه ، لا دق كوسات ، بلا ضجيج ، أول ركوب له ، يطلع متخفيا إلى القلعة ، ينبطح أمام الأمراء جميعا ، يبكى ، دموع حقيقية ، لا شك فى ملوحة طعمها ، ينطق ما يجعل زكريا يروح ويجيء حتى الآن ، لا يمضى لرؤية إبنه الوحيد ، أى من حريمه ، يثقل الليل فوقه ، لا يعنيه إعدام على بن أبى الجود ، لا يهمه الآن استمرار الغورى أو خلعه وتولية أسفل الخلق مكانه ، كل همه الوصول إلى تفسير لما جرى من الزينى بركات بن موسى ، فى القلعة ، وأمام من ؟ أمام الدولة كلها ، ما لو سمعه إنسان لضرب الأكف عجبا ودهشة . فى ساقه خدر ، طابور نمل رفيع يسرى تحت جلده ، يعقد يديه وراء ظهره ، ربما لم يدفع ثلاثة آلاف . لكن أبدا ، لا أحد برفقة زكريا الآن ، يهز رأسه بقوة ، أبدا ، أبدا ، يثق من صحة عيون بصاصيه المتخصصين فى أمور قانى باى ، يعلم تماما دخول ألف دينار إلى خزائن الأمير قانى باى يوم استلامه البرطيل من بركات بن موسى ، لم تصله إيرادات من أى جهة أخرى ، أما الألفان المتبقيان من الثلاثة آلاف فطلعا إلى القلعة ، آه لو يتخذ السلطان رأيا الليلة لاستقر زكريا ، لكنه أمر الزينى بالانصراف حتى يرى من أمره ما يكون ، زكريا يمسك الدفتر ، يفتح الصفحة من جديد .

بـركـــات :

من الليلة سيتولى زكريا بنفسه أمر بركات بن موسى ، ليضيف شهاب الحلبي ما يروق له من معلومات إلى سطوره الأربعة التى لا تبل ريقا ، لا تشفى غليلا ، يميل زكريا إلى دولاب صغير يتناول منه دفترا مجلدا بحرير اخضر ، الليل حوله أخرس معصوب العينين ، يخرج من جيبه لفافة اوراق ، ما وصله من القلعة ، كل مادار فى قاعة البيسارية ، بركات بن موسى قبل رخامها ، بللها بدمعه ، لم يحدث هذا فى تاريخ سلطان من السلاطين ، منذ الآن .. كل ما يمس هذا الزينى من قريب أو بعيد سيقرؤه بنفسه ، ينقله هو ، عيناه ستتوليان أمره كلما جاءت الفرصة وسنحت ، من تجويف ضيق مغطى بستارة صغيرة ، يتناول وعاء من فخار ، يغمس قلما خشبيا رفيع السن فى إناء ملون .

« الصفحـة الأولى » :

عاشـر شـــوال عـام ٩١٢ هـ

على مرأى من الأمراء ، فى حضور جمع عظيم ، طلب الزينى بركات بصوت خدشه التأثر ، أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة ، قال بصوت مرتجف « الحسبة يا مولاى ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد ، وحاشا لله أن أجد فى نفسى القدرة على هذا ، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتى على إنسان ، أتمنى انقضاء عمرى فى أمن وسلام ، بعيدا عن امور الحكم والحكام ، ما أريده رقدة آمنة ، لا يقلقنى فيها سب إنسان ، أو سخط مظلوم غفلت عنه ولم انصفه من ظالمه ؟ » .

★ ★ ★

كـوم الجـارح :

عددهم كثير ، غير ان هدوء البيت لم يخدشه صوت عال ، فوق حشية قديمة مغطاة ببقايا سجادة لم يفن الزمن زهاء الوانها ، يجلس مولانا الشيخ ابو السعود ، يطيل الإصغاء ، يعرفهم كلهم ، بعضهم حفظ القرآن على يديه عندما قضى من عمره زمنا مجاورا لعمود رخامى فى مسجد سيدى سويدان ، او مسجد سيدى إسماعيل الإمبابى ، يدرس الفقه والاصول ، يفسر المتن ، يشرح الأحاديث والآيات البينات ، يقص التواريخ ، ها هم يوغلون فى سنى العمر الأخيرة ، يعرف الإنسان عند مروره بها انه لن يعيش اكثر مما عاش ، اكبر شيوخ الطوائف سنا ومقاما ، الحدادون ، القصابون ، المرخمون ، البناءون ، الشعراء ، مشايخ حارات ، اعيان واولاد ناس ، يجىء سعيد بطبق كبير ملىء بالبلح المجفف المغسول ، يسنده امامهم ، يميل الشيخ رضوان كبير الفحامين واكثر الموجودين تقدما فى العمر .

« لن يقنعه .. لن يقنعه إلا انت .. »

تبقى الكلمات معلقة فى فراغ البيت ، ينسل هدوء عذب رقراق كسرب عصافير يطير على علو شاهق ، فى اللحظات نفسها تختنق طرقات الحارة بزحام كبير ، تموت الأصوات كلها خارج جدران البيت ، تنفذ رائحة لا تنتمى إلى جنس نبات او عطر معروف ، ائتلاف الريحان بماء الورد المحفوف بروح السوسن ، يتمهل كل منهم فى تفكيره ، يغمق الهواء ، يميل إلى لون الرماد ، يملأ الصدور خشوعا ورهبة ، تتدحرج حبات المسبحة ، اصطدامها يسمع بوضوح ، إيقاع تفكير الشيخ ابو السعود ، يقلب ما يسمعه ، ما يراه فوق الوجوه .

« لم نسمع برجل مثله .. ونحن مانرضى إلا به .. »

إبتسامة خفيفة ، ذرات نور تنفذ من ثقوب مشربية ضيقة العيون ، خاطفة كبرق بين غمام .

« اعرفتموه ؟؟ » :

يقول الشيخ القصبى شيخ حارة زويلة ..

« رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا .. »

سعيد لا يقول لفظا ، ليدع الضيوف يتحدثون ، اول الليل فى مجيئه المعتاد إلى الشيخ ، تحدث إليه بألفاظ اكثر عددا مما قاله جميع هؤلاء ، آخر النهار لا يزوره إلا سعيد بعد انتهاء دروس الأزهر ، يجىء المريدون فى الصباح ، يقراون القرآن والأحاديث ، بعضهم ينظف اركان البيت ، يقدم إلى الشيخ غذاءه من اللبن الرائب والخبز الساخن الطرى ، اقصى امالهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا ،

سعيد لا يتحرج أمام مولاه من إبداء ضيق أو غضب ، ما يخشى التصريح أو التلميح به بين الجموع في الأسواق أو أروقة الأزهر ، يقوله هنا ، حتى لو رأى فيه جرأة ، ينظر إليه مولانا ، عيناه تنفذان بسرعة عبر أسوار روحه ، لايمكن لسعيد أو أي إنسان من الحاضرين تحديد عمر الشيخ ، في التجاعيد آثار عشرات السنين ، ربما تجاوز المائة ، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخيل ، يكره الانطواء ، يعرف سعيد اى وجد يبهجه إذ يسمع صوت الرعد ، يقول ، هذا حس الدنيا ، صوت الكون ، لا يفهمه ويفسره إلا العليم الرحيم ، لم يره إنسان لحظات إصغائه إلى صوت الرعد ، فرحته بنزول النقطة ، أول دمعة تنزل من السماء كل شتاء ، سعيد كل سنة يسمع الرعد في الرواق ، في المقهى ، في الطريق ، في لحظات تساؤله الغامض عما تفعله سماح في لحظة بعينها ؟ يتوقف ، يعلم تماما أن الشيخ يصغى ، يقف في منتصف الفناء تماما ، تبرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن ، تمرح روحه في كون آخر ، يناجي الأولياء ، يذكر بالأسى ماجرى من أحوال في كربلاء ، يترحم على آل البيت الذين لا يتسرب إليهم البلى والفناء ، أول همسات المطر يتلقاها عاري الرأس بلا عمامة ، ممدود الكفين ، الآن .. توغل برودة ، ينفذ الليل إلى السماء واثقا أسود الجبين ، يميل الشيخ البهجوري كبير المرخمين .

« لم يحدث يامولانا أن رجلا متعمما أو غير متعمم أيا كان مقامه أو رتبته ، عرض عليه منصب ورفض ، الناس كلهم ، المجاورون وأصحاب الطوائف ، منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا الزيني بركات .. الزيني بركات » .

« ومن نشر الخبر يا ولدى ؟ » .

الشتاء ساهي الوجه ، بارد النظرات ، عفي البرودة ، حقيقة ، لا إجابة جاهزة عند اى واحد من الحاضرين ، لا يدرى سعيد كيف تسرب الخبر من البيسارية في القلعة ، ربما خدم القلعة . ربما بعض المماليك ، كل واحد من المتحلقين حول الشيخ سمع الخبر بصيغة تختلف ، العامة في الحسينية يؤكدون ، لم يخفض الزيني رأسا ، لم يحن هامة أمام السلطان ، لم يرتجف أو يهب ، قال أمام الأمراء أجمعين ، لا أقبل الحسبة لأنني لا أريد رؤية الظلم واسكت عنه ، اما الناس في الجودرية وحارة الروم الجوانية والباطنية فنفوا طلوعه إلى القلعة نفيا تاما ، قالوا انه أرسل إلى السلطان مكتوبا يعتذر فيه بأدب وحسم عن ولاية الحسبة ، لأن الزمن دب فيه الفساد وكثر ظلم العباد ، وصار الخير والعدل في ابعد واد ، هذا يخالف طبيعته ، ينافي شخصيته ، المسئولية كبيرة ولن يساعده مخلوق ، بل سيطلب منه السلطان فرض مكوس جديدة على المسلمين . الزيني بركات بن موسى لن يقبل هذا ابدا ، وقيل في بولاق ، والحمامات العامة ، خاصة حمامات النساء ، انه وقف امام السلطان كزينة الرجال ، واشجع ما يكون عليه الفرسان ، دفعه في صدره دفعا هينا حازما ، وهذا لم يقع من

قبل ، ولم يفعله أى إنسان ، قال ستامرنى بظلم الرعية وانا لن انفذ هذا لأنى اخاف نسبة الظلم إلى ، كيف اقابل خالقى يوم الحساب ؟؟ .

— « الحق يامولانا ، لا ندرى كيف تسرب الخبر لكن مثل هذه الأمور لا يطول احتجابها » . عينا الشيخ نبعا صفاء ، من يصلح إذن للمنصب غيره ؟ من ينشر العدل بين الناس إلا رجل مثله ؟ يخشى الله ليس تصنعا أو زيفا ، إنما يجهر بهذا امام السلطان نفسه ، وعلى مراى ومسمع من أعتى الأمراء واشدهم باسا ، واقواهم شوكة ، قال البعض انهم راوه يدخل قصر الأمير قانى باى ولم يطلع حتى الآن ، السلطان نفسه لم يصل إلى حل قاطع ، سعيد يرى الآن الجامع الأزهر ، عمرو ابن العدوى يتنقل بين الطلبة والمجاورين ، يخرج إلى المقاهى القريبة ، دكاكين الحلوى والمشبك ، يتسمع راى الناس ، ما يدور بينهم ، آه لو اقترب سعيد من هذا الزينى ، لم يره قط فى حياته ، كلما ظن خلو الزمن من الجراة ، تنفى الأيام انعدام المروءة ، دائما يصغى الشيخ أبو السعود إليه ، رواياته لما يجرى فى المدينة من فظائع ، ما من رجل شنق وراح على نفسه ظلما إلا وسعيد يحفظ إسمه ، يخوزق فلاح لسرقته ثمرة خيار ، توسط امراة لعنت مملوكا فاسقا اختطف إبنتها البكر ، فى اليوم نفسه يجىء سعيد إلى مولاه ، يذكر الضحية ، يتساءل ملوما مقهورا ، كيف يجرى هذا ؟ كيف يمضى الإنسان بارخص الأثمان لا دية له ، لا قوم يطلبون اثره ، تترقرق الشفتان الرقيقتان بطيف إبتسامة كعبير النعناع ، احيانا يهمس ، الطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير .. حدقتا عينيه انطبع فيهما المهول من الأمور ، الطواف عبر بلاد الله ، وصوله اطراف الدنيا ، عبوره صحارى لا حرث فيها ولا نسل ، اعتلاؤه جبالا تضرب قممها فى شاهق السماء ، نزوله إلى قرى فقيرة فى ربوع الشام ، صحراء الحجاز ، نجد ، حضر موت ، وديان اليمن ، سعيد لم ير فى حياته الجليد ، احيانا يتساقط البرد من سماء القاهرة ، لا يحدث هذا إلا نادرا ، يطرقع كالحجارة لكنه غير الجليد ، فى الساحات البيضاء الشاسعة التى تشع دخانا يتجمد فى الفراغ ، يمتد صمت يرعش الخوف فى قرارة النفوس ، الفراغ والزمن بلا بداية ، بلا نهاية ، يقول مولانا ، عندما يبدو العالم بلا آخر ، بلا آفاق ، لا نهائى ، غير محسوس ، لا يفنى ، عندما راى بحارا يعلو موجها كالجبال ، حيث اليابسة حلم مازال بعيدا ووهما ضنينا ، هنا تتجمع قوى غريبة فى اعماقه ، يطلق صيحة فى وجه اللانهائى ، اللامحدود ، زعقة تبلغ جبال قاف ، تحدث الزلزلة ، تجمد المحيط ..

« حى .. الله حى .. موجود » .

اصحابه كثيرون ، يطلقون الصيحة نفسها فى اماكن عدة ، يلقاهم مرة واحدة فى كل عام إذ يصل إلى البيت الحرام ، يتبادلون الوجد ، يتناقلون ما راوه ، ما قاموا به من أجل نشر راية الإسلام ، التذكير بأهل البيت ، بطراوة دم الحسين الذى لم تجففه

ازمنة وعصور ، فى الكعبة يرثون من لم يجىء ، من ذهب إلى ابد لا يدركه حى ، بعد الحج ، إنتهاء الطواف واللقاء ، يولى كل منهم مقصده ناحية جهة من جهات الأرض ، لا يتمدد الجسد ليلتين متعاقبتين فوق مكان واحد ، « الله موجود » ممدودة تعبر الزمن ، تلين اليابسة ، منذ أعوام جاء الشيخ ابو السعود ، رجع إلى بلدته التى لامس راسه ارضها ، إلى مصر ، من وقتها لا يروح ، لا يجىء ، يعيش فى كوم الجارح ، يفد إليه الدراويش الطوافون ، ارباب الطرق ، فى اى ساعة من ليل او نهار ، لا يرجع طارق او قاصد إلا بعد رؤيته الشيخ والإفضاء إليه بمن جاء من اجله ، اوقات الصلاة حائل وحيد يمنع الحديث إليه ، احيانا يقطع تاملاته ، عبوره ازمانا سحيقة البعد ، يصغى إلى صاحب حاجة ، يشير عليه إما تلميحا وإما تصريحا ، مرة اخرى يود سعيد لو يشارك المشايخ احاديثهم ، لو جاءه الليلة عمرو ابن العدوى ، يساله عن رايه ، يحاول التحرش بفكره ، هنا يزعق سعيد ، لن يرهب عينا ، لن يخشى اذنا تتسمع ، او تقريرا يرفع عنه ، لن يخشى زكريا بن راضى نفسه الذى يكفى اسمه وصيته لبث الرعب فى اوصال البلاد كلها ..

يقول الشيخ القصبى :

« والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزينى فلا خير فينا .. »

يقول شيخ الفحامين :

« انا والله لم اسمع به فى حياتى .. لا اعرفه يا اخوان ولم اره .. »

يميل مولانا إلى الامام ، يكف الشيخ القصبى ..

وكيف اختاره السلطان وهو لا ينتمى إلى اصحاب الوظائف الكبيرة .. مجهول للناس ؟؟

يلقى الشيخ سؤالا يثير به اسئلة .

« ما ادرانا يا مولانا .. ربما غفل عمن يعرفهم من اشرار وفجرة .. وهداه الله إلى الزينى بركات .. »

« لن يقنعه بولاية الحسبة إلا انت .. انت يا مولانا والبركة فيك .. »

يميل الشيخ ابو السعود هامسا ..

« اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا .. »

★ ★ ★

الأربعـــاء .. عــاشر شـــوال :

عندما سمعت بذهاب الزينى بركات إلى الجامع الأزهر ، ليخطب فى الخلق ، قلت والله لا تفوتنى رؤية وجهه ابدا ، ظننت اننى الوحيد ، وعندما ذهبت لم اجد لقدمى مكانا وكانه يوم الحشر .. قلت لنفسى .. من اين جاء هؤلاء ؟؟

يميل الصفدى بائع العطور فى الحمزاوى ، احسن من يستقطر الزيت من السوسن ، يلخص ويركز روح السوسن ، يبسط يده فوق صدره .

انا شفته ..

إليه ينظرون ..

« يا سلام على التقوى .. يا سلام على الصلاح .. كل ما قاله لا يصدر إلا عن رجل ابن رجل ، مثله لم يخلق ليتحنى امام جبروت او سلطان .. »

محمود اللبان يسأل :

« اهو اسمر قصير .. سمعتهم يقولون انه اسمر اللون ، كبير اللحية ؟؟ »

« ابدا وجهه كاى وجه منا .. »

يضحك المعلم مرشدى :

« فال الله ولا فالك .. اقصد انه يشبه خلقتك انت .. خلقتك العكرة .. »

يعـود جادا :

« رايته يركب بغلة المحتسب فى الطريق فلم احكم .. اهو قصير ام طويل ؟ لم اره فوق منبر الأزهر .. »

هنا يقول عمرو بن العدوى ، وحبات مسبحته تتدافع بسرعة ..

« قلت إن الروح لا تكرهه يا معلم .. »

« اى والله ياشيخ عمرو .. »

جاء صبى المعلم الصفدى يحمل صينية مثقلة باكواب الخروب ، يمسك عمرو كوز الفخار باصابعه ، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة الهواء ، من عادات الصفدى شرب التمر هندى ، والخروب والليمون فى قرارة ايام الشتاء ، يقول : هذا يفتح دروب القلب ، يشرح الصدر ، شفتا عمرو تتمتمان بادعية قبيل شربه ، تظل نظراته فوق الوجوه لحظات ، تتراجع بسرعة منطوية تحت جفنيه المسدلين ، لا يتكلم كثيرا إنما يصغى ، مع امثالهم لا يخشى هفوة تشى به ، كل آرائهم تجىء على السنتهم بدون حرج ، لا يضطر إلى إلقاء جملة تهدو عارضة ، مستترة ، الغرض منها توجيه الحديث فى طريق بعينه ، برودة الخروب تنفذ إلى اطراف جسمه ، مر النهار صعبا ، ليلة

امس لم ينم الخلق ، الدكاكين لم تغلق لحظة ، اصحابها يجلسون أمامها ، الأمراء اغلقوا بيوتهم ، دقوا الطبلخاناة وقتا أطول من المعتاد بعد العشاء حتى ارتجت المدينة ، بينما تجيء الأخبار وتروح كموج البحر الكبير يلمس صخر اليابسة ثم يرتد عنه ، « الزيني نزل من القلعة » ، « الزيني يطلع الآن إلى قاعة الدهيشة بالقلعة » ، « ابدا .. الزيني لم يغادر بيت الأمير قلني باى » ، في الفجر طارت الأخبار ، أرسل الشيخ ابو السعود في طلب الزيني بركات ، مجاور ازهرى من مجاورى الأزهر الشبان سعى إليه ، صحبه إلى كوم الجارح ، حيث اختلى الزيني بركات بالشيخ ابو السعود ، عمرو لم يهدأ ، لن تفوته شاردة او واردة ، لا تمر عليه نظرة ذات معنى إلا يدركها ، ضحكة غريبة الإيقاع لابد أن يرصدها ، اى نكتة يقولها واحد من الخبثاء ، هؤلاء الذين لا هم لهم ولا شاغل في مثل هذه الأحوال إلا القعاد على أرضية الأسبلة ، وأمام دكاكين المشبك ، والسنبوسك ، يضحكون ، يسخرون ، عمرو يعلم انه ليس بمفرده ، هناك من يرقب الخلق معه ، يرقبه هو ايضا ، يرفع عنه التقارير إلى مقدم بصاصى القاهرة ، عندما اخبره المقدم نفسه بهذا تقلب على جمر ، تساءل كثيرا .. من هم ؟؟ حاول الاستدلال على واحد منهم ، ظن الظنون لم يستطع فاثر صرف الفكرة ، لكنها تغيب ، تحوم دوما ، لو رفع احدهم حادثة وقعت على مرأى من عمرو ، ولم يبلغ عنها ، هنا يتعرض للمساءلة ، يتهم بالغفلة ، مجاملته البعض على حساب الآخر ، ليس امينا فيما ينقله ، ما يسمعه ، يزعق مقدم البصاصين ، يستدعيه ، يقابله بنفسه « انتم لا تعرفون ما الاقيه بسبب غفلتكم ، السلطان ينزعج إنزعاجا شديدا ، لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة مرت على واحد من رجاله ، الستم عيونه ، الستم آذانه ؟؟ إذا عميت عين طرشت أذن ، كيف يعرف احوال الخلق إذن ؟؟ كيف يعدل في الرعية ، حادثة صغيرة تمر عليك تبدو لعيني المهمل غير ذات اهمية ، لكنك لا تدرى ، لا تعلم ما يتسبب من ورائها ؟ في زمن سالف الذكر ، السلطان الأشرف قايتباى تآمر عليه بعض الكبار ، هل تدرى كيف تآمروا كانما يخافون عيون السلطان ، كبير البصاصين وقتئذ بلغ حدا من الدقة والقدرة على استبصار الأمور ما جعله يكشف كل مخامرة او مؤامرة على السلطان ، كيف استمر السلطان قايتباى ، كيف عاش زمنا طويلا فوق عرشه ، ثلاثون سنة كاملة ، بمهارة بصاصيه ، يقظتهم ، همتهم ، لجأ الأمراء إلى حيلة جديدة ، يخرج الواحد منهم إلى خارج القاهرة ، كأنه يتمشى ، يستنشق الهواء عند بركة الرطلي ، في بولاق ، بين اشجار الأزبكية ، في نفس الوقت ، وقت متفق عليه من قبل ، يبدأ الأمير المشى من اتجاه الطريق المقابل ، يلمح الواحد منهما صاحبه ، يزعق عليه ، يصيحان كانهما لم يريا بعضهما البعض منذ زمن طويل ، ويتبادلان حديثا موجزا مختصرا سريعا جدا يتفقان فيه على عظائم الأمور ، ثم يفترقان ، من يخامره الظن ، من يشك هنا ؟؟ من تراود عقله ادنى فكرة او شك ؟؟

ولكن الأمر لم يمر عند الشهاب جعفر بن عبد الجواد أذكى من تولى منصب كبير البصاصين فى تاريخ الملوك والسلاطين ، لا يفوقه إلا الشهاب زكريا بن راضى ، أدرك المرحوم جعفر بواسطة عجوز تبلغ الثمانين .. هكذا ظاهرها ، لكنها فى الحقيقة امرأة لم تتجاوز الأربعين ، جعفر أول من استحدث ضم العجائز إلى البصاصين وتعليمهن الشحاذة ثم جلوسهن فى الطرقات العامة ، بجوار الأسبلة ، بجوار المقابر ، أمام البيوت يطلبن حسنة أو صدقة ، لكنهن يرصدن الشاردة والواردة ، المهم .. أدركت هذه البصاصة ما يتم كل يومين أمامها ، طريقة اللقاء بين الأميرين ، كل منهما يلقى الآخر فيصيح عليه : « لم أرك منذ زمن .. » قيل وعلم هذا عند ربى كاشف الغيوب ، إن المرأة البصاصة كانت عمياء ، أدركت الأمور كلها عن طريق أذنيها ، من هذه الواقعة الصغيرة كشف المتآمرون ، كبسهم الشهاب جعفر فى الليلة السابقة على شروعهم فى الركوب على الأشرف قايتباى ، رحمه الله ، اقرأوا التواريخ يا ناس ، أنتم عيون العدل ، أنتم العدل نفسه ، كيف تهملون ، كيف تدعون أمرا يفوتكم .. كيف ؟؟ »

قام المعلم الصفدى ..

« نحمدك يا رب .. جرت الأمور كما نشتهى .. »

يبحث الشيخ القصبى عن عصاه ..

الليلة فى الحمام إن شاء الله .. نغطس فى الماء الساخن ، نتطهر حتى نلقى المحتسب الجديد أطهارا أبرارا .. عند مروره علينا ..

محمود اللبان :

« أنت تبغى استرداد عافيتك .. وطرد الرطوبة »

تترقرق الضحكات ، تهتز اللحى ، يميل الليل بسواده ، يحوى النهار المولى ، يودعون بعضهم بعضا ..

« ربما جئت .. عندى شوق إلى المغطس .. »

« المغطس .. والمكبساتى يا شيخ عمرو .. »

يضحك عمرو ضحكا سريعا ، ترتعش أصابع يديه مرة واحدة ، أصغى إلى مقدم بصاصى القاهرة ، تحدث إليه معنفا عندما فاته نقل حوار دار بين ثلاثة من مهاجرى الشوام ، من لحظتها أدرك أنه تحت رقيب عنيد ، أحد هؤلاء المعلم الصفدى ، اللبان ، ربما الشيخ القصبى نفسه ، ما عليه ، لن يشغل عقله بهم ، لماذا يتساءل أيهم يراقبه ؟؟ سيدعوه المقدم ، يسأله ، لماذا فكر فى الوقت الفلانى بمن يراقبه ؟؟ لن يشغل نفسه بهذا ، يا سلام ، تتغير الأحوال دائما ، وتتغير معاملة المقدم ، عندما أرسلوا إليه أول مرة ، مشى بعدها فى الطرقات والارتياح يغزوه ، أطرى المقدم صلاحه ، كم من أزهريين فسدوا ، أخبره أنه يعرف حاله كله ، يعرف أنه لا يعيش

إلا على جراية الأزهر ، لا يصله درهم من بلدته ، بل هو فى أشد الحاجة إلى دراهم يرسلها إلى أمه العجوز ، يومها أخبره المقدم باسم أمه وهو أمر ينساه عمرو أحيانا ولم يذكره مخلوق ، ليس هذا فقط ، بل أخبره المقدم عن عمرها ، هى نفسها لا تدرى فى أى عام جاءت إلى الدنيا ، ارتج على عمرو ، أصغى ، كيف يضربها زوجها الذى اقترنت به بعد وفاة والد عمرو ؟؟ تعيش الآن فى تكعيبة بوص ، لو جرفتها مياه النيل أو الأمطار لماتت غرقا ، ربما تموت عريا وبردا ، عمرو تغيب عنه أخبار أمه بالشهور ، قال المقدم انه سيوافيه بأحوالها كل أسبوع مرة ، ليطمئن ، يمكن موافاته بأدق أخبارها يوميا ، لكنه لا يرغب أن يشغل باله ، أخبره المقدم بعدد المرات التى قرأ فيها القرآن ، كل صباح ، فى عز البرد ، يذهب إلى بيت كبير من التجار ، يتلو الآيات البينات ، يرسل إليه الرجل طبقا به قطعة جبن حالوم وفول مدمس ملء قبضة اليد ، وكوز من لبن الماعز ، ونصف درهم .

« تلاوة القرآن يا عمرو فى بيوت الأعيان لا تليق بمجاور أزهرى ، إنها صناعة الفقهاء العمى ، أنا شخصيا لا أرضاها لك ، لا أرتاح إلى هذا ، يقلقنى جدا .. صدقنى يا عمرو يضايقنى وأنت طالب أزهرى ، ربما أصبحت فى يوم ما ، وهذا يصح بإذن الواحد الأحد الفرد الصمد .. ربما صرت قاضيا كبيرا ، تفصل فى أمور هؤلاء الذين يرسلون لك لبن الماعز والفول المدمس لتفطر ، لتسد جوعك ، بإذن الله سوف نساعدك نحن فى أن تصبح قاضيا .. رئيس ديوان .. شخصا له هيبة ومكانة ، إنما دعنا فى حالك الآن .. هل ترتاح إلى هذا .. لا .. لا أظنك ترضى .. لا .. لالا يا عمرو اعتبرنى أنا شقيقا لك . لا تخف عنى أمرا .. حتى مشاكلك الخاصة ، الخاصة جدا .. بح لى بها وأنا .. أنا وحدى أساعدك فى حلها .. ثق بى .. ثق بى أرجوك ..

بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القديم فى الأزهر ، يقول الأزهريون إن ثمة طلسما مدفونا تحته يمنع العصافير والثعابين والعفاريت من الجامع ، قعد أوقاتا طويلة ، يناجى أمه العجوز ، أمه تقلع جذور الفجل والبطاطا من غيطان بنها ، والبلاد المجاورة ، توقد الأفران ، تنقل الحطب ، تحزم البوص ، تحش النجيل ، لم تعرف راحة ، لم تغمض عينيها ليلة على هناء شحيح ، من مدة عرف بسفر شيخ زاوية العميان إلى بنها ، جهز زوادته وبغلته وعزم أمره ، عمرو وقتها لا يملك درهما ، الشيخ سيمضى إلى البلدة التى تعيش فيها أمه ، سيعرف الناس ، وتعلم أمه بمجىء رجل من مصر ، من الأزهر بالذات ، إبنها لم يرسل معه حتى حفنة سكر أو قماشا أسود تلف فيه جسمها عاما كاملا ، ربما تظنه ميتا ، دهسته خيل المماليك ، راح فى وباء ، ليلة بطولها لم ينم عمرو ، يضيق به الحال ، حجر هائل كجبل المقطم يزحف إليه وئيدا . دار على أصحابه فى الرواق ، يجلس إلى الواحد منهم ، يخوض فى أحاديث قريبة وبعيدة ، يضحك مع الضاحكين ، إذ يهم بالسؤال ، ينعقد لسانه ، يرتج

صوته ، تخونه الحروف والألفاظ ، يقول هذا لا يصح ، سأمضى إلى آخر ، يعبر صحن المسجد ، لن يدور لن يلف ، لكنه يجلس فينعقد العرق فوق جبهته ، يختلط عليه الأمر ، تخونه الألفاظ ، تشنق المعانى على لسانه ، يدهمه الخجل ، هذا الوقت ، يذكره الآن بمرارة وحزن كعفار يهب من الجبل يعكر يوما صافيا ، لم يعرف وقتئذ واحدا من المعلمين أو أصحاب المتاجر أو رواد الحمامات الذين يجلس إليهم الآن ، يتسمع ما يقولون وينقله ، وقتها كان خجولا ، حييا ، لم يجرؤ على اقتراض دراهم يرسل بها حاجة أمه ، حمل جرايته من الخبز الجاف ، فى النهار ، يقف المجاورون أمام الأزهر يبيعون جراياتهم ، أو يستبدلون بها الغموس ، خرج إلى الطرقات بعيدا عن الجامع ، بادله أحد المارة رغيفين بقطعة جبن قديمة ، فى المغربلين والصنادقية ، والعطارين ، والفحامين ، وأهالى الجودرية وسوق الشرابشيين والمارة فى شارع الصليبة ، والمتسكعين عند باب الوزير ، كلهم هزوا رءوسهم ، قالوا « على الله » ، وكلما اقترب الليل يزحف سواده إلى القلب ، يرى جبل الحجر أكثر قربا منه ، تعثر الهواء فى صدره وكبا ، فوق حجر قديم قرب جامع الحاكم عقد ساقيه ، رفع يده ، إنساب صوته عاليا بالآيات البينات ، نزل البرد ونفذ إلى حشاه ، يرى عينى أمه فتوشك عظامه أن تضىء بما يشتعل فيهما من هم ، اقترب النهار ، سمع صريرا ، أبواب الحارات تفتح ، طلعت الشمس وفى يديه أحد عشر درهما ، ألقاها إليه مارة مجهولون ، لم يروا وجهه ، لم يعرفهم هو ، اشترى سكرا ، وحلاوة معقودة ، وفى زاوية العميان شق فؤاده نصل ثقيل ..

« الشيخ سافر فى الفجر يا عمرو .. »

هاهو مقدم البصاصين فى القاهرة :

« عمرو .. لا أقبل هذا لك .. لا أرضاه لك .. »

فى البدء بدا رقيقا ، آه : يهز عمرو رأسه ، لكل أول آخر ، خجله من مخالفة الخلق ، أين هو ؟؟ ابتعاده عن الناس ، أين ذوى ؟؟ ما يخشاه الآن ، غضب المقدم ، بعد الهفوة الأولى عفا عنه ، الثانية من يدرى ماذا يجرى ؟؟ ينفصل الرأس عن الجسم ، ما أسهل الأمر ، ربما قتلوه بقية عمره حيا ، يصير فضيحة متحركة ، تشير إليه الأصابع ، يطرده المشايخ ، الحمد لله فحتى الآن لم توجه إليه نظرة ، لم يقل له أحد كلمة ذات معنى ، هاهو ذا النهار يولى ، لحظات نزول الليل يحلو الكلام ، تكثر الفضفضة ، أمام دكاكين باعة الحلوى ، الترزية ، فى زاوية سيدى الحلوجى جماعة من قصر الشوق يسهرون بعد صلاة العشاء ، يفسرون الآيات ، الأحلام التى طالعتهم فى المنام ، لا ينفذ غريب إليهم ، لكن مجىء عمرو المتكرر إلى الزاوية ، أداؤه الصلاة ، تأدبه عند إصغائه إليهم ، طول صمته ، هزة رأسه لا تنقطع بالموافقة على ما يقولونه من آراء ، يطالعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاستفادة من رجال خبروا

الحياة ، المو ا بالعلوم ، الأيام قربته منهم ، لو تغيب ليلة يسالون عنه ، المقدم يثنى عليه دائما ، يشيد به لنجاحه في النفاذ إلى هؤلاء ، حديثهم خافت على غير عادتهم ، توشك اذناه على سماع جديد ، يخرج عن مالوف ما يرفعه ، ربما يبلغ السلطان ، يقترب عمرو من المقدم اكثر ، يبدى رضاءه ، يثنى عليه ، منذ فترة لم يره عمرو ، يضن عليه بلقائه ، تقاريره يتسلمها نائبه الحبشى ، يتساءل عمرو ، هل غضب عليه ، هل يدبر له امرا ؟؟ ها هو ذا المعلم حليم الدين يمط شفتيه :

« والله يا مشايخ فرحة الناس لا تاخذني .. »

يتمتم عمرو :

« اى والله .. اى والله .. »

« الأيام علمتنى الحذر ، لم نر منه ما يسر او يضر ، فلم هذه البهجة كلها ، ثم .. »

تنظر إليه العيون ..

« ما اتاه اليوم لا يعجبنى ... »

بسرعة تخرج كلمات عمرو :

« لماذا ياشيخ حليم الدين ؟؟ »

آه : لماذا التسرع ؟؟ هل بدا في سؤاله ما يريب ، احدهم على وشك أن يسال نفس السؤال ، المفروض الا يوجهه هو ، مازالت عنده خفة ، لو الجمع كبير لسجلت عليه زلة من احد الذين يعرفونه ولا يعرفهم هو ، لكن ، من ادراه ؟؟ ربما تتصنت الجدران ، ربما يرقبه احد ، يقرا ما تنطقه شفتاه بدون الحاجة إلى سماع حسه ، يعلم بوجود هؤلاء البصاصين : الم يقل مقدم البصاصين : « لدينا طرق لا تخطر على بال إنسىّ او جنىّ نعرف بها الحقيقة ، حتى لو همس بها المرء وراء جبل قاف » . آه : لابد من التزام الحذر ، بهدوء ليرقب رد الفعل بينهم ..

★ ★ ★

أول الليل : الأربعاء عاشر شـوال :

أخيرا ها هو ذا مبروك ، يحمل لفافة أوراق ، طال ترقب زكريا لوصولها ، فى الصباح سلمه مبروك تقريرا عاجلا ، أعده مقدم بصاصى القاهرة ، يحوى حركة الزينى بركات ، كيف انتقل من بيته أول الفجر بصحبة طالب أزهرى إلى كوم الجارح ، قضى مع الشيخ أبو السعود زمنا خرج بعده من البيت ، ومع أول مجىء الشمس إلى الحوارى والدروب ، طاف مناد جديد لم يسمعه الناس من قبل ، قيل إنه أحد خدم الزينى ، نقل إلى أهل المدينة ما عزم عليه الزينى بركات ، من ذهاب إلى الأزهر الشريف ، عنده كلام سيعلنه على الخلق ، مناد جديد لا علم لزكريا به ، صحيح من حق المحتسب إطلاق مناد خاص من عنده ، ينقل إلى الناس رغباته وأحكامه ، هذا ما تنص عليه الأصول ، لكن الواقع يكذب هذا ، يلغيه ، جرت العادة منذ عصر الشهاب جعفر كبير بصاصى الأشرف قايتباى أن يتبع جميع المنادين لكبير البصاصين ، ترسل إليه نصوص النداءات ، طريقة نشر الحادثة أو الخبر قد ينتج عنها أمور جسام ، بل ان كبير البصاصين ينبه بضرورة تحمس المنادين عند نقل خبر بعينه أو تصنع الحزن والفتور لحظات نشره ، كلها عوامل تؤثر فى الخلق ، هناك مناطق وخطط فى المدينة يجب ألا يطوف بها المنادون ، كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا ؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله ؟؟ ثم إن الزينى بركات لم يحتسب بعد ، كيف يعطى لنفسه الحق فى مخاطبة الناس بلا رقيب ، بلا وسيط ؟؟ هكذا يبدأ أيامه بإخلال الأمور ، يعبث بالنظام ، فى بداية النهار كان زكريا مرهقا ، الليلة السابقة قضاها بعيدا عن حريمه ، عن وسيلة الجارية الصغيرة ، لم يمض عليها أكثر من أربعة أيام فى بيته ، حاول النفاذ عبر الأيام ، أى أحداث مقبلة ؟؟ هذا الزينى لا يثير اطمئنانا ، منذ سماعه باسمه ، ولا يجىء من ناحيته إلا عجائب الأمور ، قبيل الفجر أرسل إلى مقدم بصاصى القاهرة يأمره بإعداد ثلاثة مطالب مفصلة ، جمع أقصى ما يمكن من معلومات وبيانات عن الزينى بركات وإرسالها إليه أولا بأول ، ثانيا ، استنفار كافة بصاصى القاهرة ، لتلتفت عيونهم إلى كل صغيرة وكبيرة خلال تجمع الناس ، إصغاؤهم إلى ما يقوله الزينى ، المطلب الثالث ، أن يرتفع عدد التقارير التى ترسل إليه فى مقره إلى أربعة وعشرين تقريرا ، بواقع تقرير كل ساعة ، على غير المعتاد ، وهو إرسال تقرير فى أوقات الصلاة الخمس ، ثم تقرير مفصل بعد العشاء يتضمن أحوال القرى والبلاد ، إن ما طرد بقايا النوم من عينى زكريا ، ما جعله يأكل بسرعة ، لا يفكر فى وسيلة الشامية إبنة الستة عشر ربيعا ، ما جعله يهمل تهذيب لحيته ، لا يشرب الحليب الطازج المحلى بالسكر ،

تساؤله الملح ، ما الذى ينويه الزينى بركات ؟؟ ما الذى سيقوله للعامة ، باى لسان يتحدث ؟؟ هل هناك سابقة لما سيفعله ؟؟ ابدا ، زكريا يعرف الاحداث والتواريخ القريبة ، والبعيدة لم يتحدث محتسب فى جمع من الناس قط ، بل لم يسبقه اى امير ، كبيرا او صغيرا فى هذه الفعلة ، تحدث العظيم إلى العامة مباشرة يفقده هيبته ، يضيع مهابة الحكم والحكام ، يتطاول العامة على الكبار ، إذا كان ناظر الحسبة يتكلم إليهم ، فلماذا لا يفعل مثله الامراء ؟؟ الم ينبهه احد إلى هذا ؟؟ اول النهار دخل زكريا إلى قاعة الثياب البديلة ، غرفة طويلة ، ضيقة ، تحوى كل ما يخطر على بال من ثياب ، عمائم سلطانية ، واخرى لا يرتديها إلا مقدم الالوف ، سلاريات ، معاطف فرو ، سراويل شامية ، جلاليب بدوية ، فرجيات لمشايخ الأزهر ، قفاطين ، جلاليب رخيصة لبائعى حلوى ، وجزارين ، وتجار فاكهة ، زكريا يعرف مقصده هنا ، انتقى جبة بيضاء متسخة ، عمامة خضراء صغيرة ملفوفة بشال احمر ، امسك عصا من سعف النخيل ، خرج من الباب الخلفى للبيت درويشا من اتباع سيدى مرزوق ، تلميذ سيدى احمد البدوى ، مشى متمهلا ، يتوقف بين الحين والحين ، يطلق صيحة قوية ، .. الله حى .. الله حى مدد .. مشى على مهل يتبعه جبران الأخرس ، احد رجاله الأشداء ، دائما يسافر معه ، يحميه من غوائل الطريق ، ما تخبئه النفوس من حقد ، ربما تجسد فى خنجر ينسل محاولا إيجاد الطريق إلى قلبه ، برغم همه وحيرته ، ابتهج كعادته إذ يلقى نفسه بين الناس ، لا يعرفه احد ، حتى لو التقى به اقرب المقربين ، مقدم البصاصين نفسه ، لن يتبينه ، اى واحد من هؤلاء فى متناول يده ، اليس هو عيون السلطان واذانه ؟؟ الاف الرجال والنساء والأطفال يتبعونه ، لا يعرف بعضهم البعض ، ينقلون الهمسات والحركات من البيوت والربوع ، من كل شبر فى المدينة ، إذا شذ شهيق إنسان عن البقية عرفه ، نمى إليه بواسطتهم ، لكنه عندما دخل الأزهر ارتاع فعلا ، لم يحدث ان راى مثل هذه الجموع ، إنتابه غم ، كيف يسكت السلطان ، ايدرون العاقبة من تجمع كل هؤلاء ؟؟ ما يجرى خطأ فظيع . لابد من تنبيه الكبار والسلطان نفسه ، السكوت على الأمر ربما ادى إلى استفحاله ، انتشاره ، هذا ما لا يسمح به ابدا ، هذه سابقة تنذر بعواقب لا يعرفها الجهلاء ، هاهو ذا زكريا الآن يفرد اللفافة التى اتاه بها مبروك .. تقارير مقدم بصاصى القاهرة ، جمع فيها واوجز واوضح خلاصة ما تلقاه من عيون وارصاد طوال اليوم ..

« فوق منبر الأزهر القديم وقف ، المسجد يفيض بالخلق من كل لون وصنف زعقوا فارتجت الاعمدة ، وكادت المآذن تميل ، بدا وكان كل قوة ستعجز عن إسكاتهم ، لكن الزينى رفع يده اليمنى ، مفرودة الأصابع (يده عادية ، اصابعه خمس) ، وكان قوة سحرية تسيل منه ، طاف الصمت مغلقا افواه الناس ، قيل فيما بعد انه اوتى مقدرة على جعل الخلق يصمتون ، ولو اراد ان يذرفوا الدموع لفعل ، سرى صوته بين

الناس هادئا ، قال ما معناه :

« اولا » انه لم يكن يقبل الحسبة قط ، لولا اطلاعه الأمراء على ما ترتضيه روحه لراحة العباد ، ولولا الشيخ العارف بالأصول والفروع ، الزاهد الناسك ولى الله ابو السعود ، لما قبل أبدا ..

(هنا علا زعيق الناس ، رددوا « ما نريد إلا انت » ، « ما ينفع إلا انت » ، إلى غير هذا من النداءات التى تؤدى المعنى نفسه ، وإن اختلفت الجمل والألفاظ ، عادت يده تهتز بتؤدة فاستكان العامة واصغوا) .

« ثانيا » انه لا يخشى إلا الله ، كيف يلقى ربه إذا ظلم مخلوق من قبل احد نوابه وهو لا يدرى ؟ هذا مالا يطيقه ولا يمكنه سماعه ابدا ، من هنا ، لو وقع ظلم على إنسان ، فقير او غنى ، ناء أو دان ، فعليه بالتوجه إلى نائبه إن لم يقتص من ظالمه بعد شرح قضيته وظهور العدل فيها .

« ثالثا » : لن يمكث فى القاهرة ، إنما سيلف الوجهين ، فقد اضيفت إليه اليوم فقط نظارة حسبة الجيزة ، سيدور ظاهرا احيانا ومتخفيا حينا آخر ، يطلع على أحوال الناس ، اما بيته فى القاهرة ، فمفتوح أطراف الليل وآناء النهار لكل ذى حاجة ، لا حاجب بينه وبين الناس ، صغيرهم أو كبيرهم ، على اختلاف مراتبهم ، لو ظلم احد من البشر فليقتص منه على مرأى من الجميع ..

« رابعا ، وهذا خطير » :

« فى كل حارة ، ودرب وقرية ، وبلدة وإقطاع ، ستكون له عيون يرصدون ويتعسسون المظالم اينما تقع ، يبلغونه بها » .

(بعد خروجه من الأزهر ، شق طريقه راكبا بغلة عالية بسرج متواضع ، وكنبوش عادى (أثار هذا رضاء الناس عنه ، قالوا ، انظروا ، كيف العدل والحكام ؟) ، استمر موكبه حتى وصل سوق الشرابشيين ، قابلته المغنيات بالرقص ودق الشبابة والدفوف ، وانطلقت له الزغاريد من الطيقان ، بين يديه مشى ثلاثة من نوابه الجدد الذين لم يطلع على وجوههم إنسان (جار البحث عن أصولهم) ، احدهم يحمل سيفا ، وآخر يحمل ميزانا ، وصنجا ، والثالث يلوح بمصحف كبير يلثمه بين الحين والحين ، خلف الموكب مشى عبد العظيم الصيرفى ، أما الزينى فراح يهز راسه هزا خفيفا وعلى وجهه خشوع وتقوى ..

لفتـــة أولى :

اجمع رجالنا على وجود طالب ازهرى ، بقى طوال الركب على مقربة من الزينى بركات ، بدا متحمسا ، بالكشف عنه ، اتضح انه هو الذى صحبه من بيته إلى زاوية

الشيخ أبو السعود فى كوم الجارح ، واسمه « سعيد الجهينى » .

لفتـة ثانية :

عند اقتراب الموكب من جامع الحاكم ، قبيل عبوره باب الفتوح حيث يمكن لعينى العابر رؤية أسوار سجن المقشرة ، ومدخله العلوى ، ظهرت امرأة سمينة ، متقدمة فى العمر ، ترتدى السواد ، تتشح بطرحة قديمة ، شقت لنفسها طريقا حتى وقفت أمام بغلة الزينى ، زعقت زعقة عظيمة ، حتى حظيت بانتباه الخلق ، طلع عليها طلوع لا يهتف إلا بكلمة واحدة .. يالئيم يابن اللئيمة . وعندما تنبه العامة هجموا عليها ، ذابت كفص الملح ، وجار الكشف عنها ، وتحرى حقيقتها ، من هى وما أصلها ؟ .

لفتـة ثالثـة :

اطلقنا احد البصاصين المهرة فى أثر الزينى لرسم صورة دقيقة وافية لملامحه ، سننقلها إليكم فور إتمامها لاطلاعكم عليها ، وإجراء اللازم من فحوص .

الآن يطل زكريا من طاقة المشربية ، الشتاء يتدثر بليل أسود بارد ، نور يلمع فى الناحية المقابلة ، تسهر وسيلة ، تخشى مجيئه فجأة ، الليلة لن يحتوى نهديها ، لم ير مثلهما طوال عمره ، صلابة وليونة ، رقة وقسوة ، خوف ونشوة ، إقبال وانفلات ، اقتراب وابتعاد ، كرتا عجين املس طوع راحتى يديه ، يهوى نهودا لم تمسها يد بشر ، هكذا يشترط على عارف شيخ دكة الرقيق ، عارف أحد عيونه واخلصها ، عندما جاءته وسيلة فرح بها فرحا عظيما ، استوثق أولا أنها قدمت فعلا من بلاد الروم ، ربما دسها عليه أمير ابتغاء غرض خفى ، قضى ليلته الأولى معها مبحرا فى محيطات لم يطأها إنس ولا جان ، يرقب الألم الأول اللذيذ ، رعشة تترقرق فى عينين واسعتين ، فكر فى تجنب العمل أياما ليرقبها ، يرتشف رحيق العمر الأول ، جاء هذا الزينى فجأة ، اقصاه عن الآهة . وحلاوة الرعشة ، هاهو ذا يواجه سابقة لم يطلع على مثيلها ، عليه بالحذر ، والثبات ، سيذكر فيما بعد أنه تصرف بعقل ، بحزم ، ما يقوم به الآن سيراه الخلفاء فيستنيرون ويهتدون ، منذ قليل أرسل فى طلب شهاب الحلبى ، سيحضر القلم والحبر الذى يجف بعد مدة بعينها ، مدة تكفى لوصول الرسالة إلى مقصدها ، وقراءتها ، ثم يجف المداد ، يتلاشى ، تعود الورقة بيضاء بعد يومين تضيع الورقة نفسها ، تطير كبخار صباح أضاعته شمس قوية ، حدث فى زمن السلطان فرج بن برقوق ، أن أطاحت رسالة برأس كبير البصاصين ، الآن لا يمكن لمناد أن يواجه زكريا بكلمة واحدة مدونة ، تناقش فى هذا الأمر طويلا مع كبير بصاصى دولة الشاه إسماعيل الصوفى ، قال الرجل وهو من عتاة

البصاصين ، يحسن بالبصاص الذهاب بنفسه إلى الأمراء ونقل الموضوع شفاهة ، خالفه زكريا ، الحديث لا يروح من الذهن ، ربما شهد عليك جمع من الناس فاطاحوا بك ، لكن ما الراى لو وجد نوع من المداد يختفي ويتلاشى بعد بلوغ المراد من الرسالة ، لم يقل لكبير بصاصي الشاه انه حصل فعلا على هذا المداد ، هذه وسيلة ينفرد بها ولا يفرط فيها بسهولة ، كبير بصاصي الشاه انكر وجود مثل هذه الطرق ، الزمن الذى يجيء بمثل هذا المداد مازال نائيا ، لكن الليلة ستصل رسائل منه ، إلى الأمير قنبك ، وقانى باى ، وقوصون ، وطومنباى ، وكافة كبار الدولة ، سيشير إلى ما أتاه الزينى من امور منكرة تخالف أصول الحسبة ، تتعدى على وظائفه هو خاصة بعد إشارة الزينى إلى/ إطلاق عيونه واتباعه ، هل سيستحدث نظاما اخر للبصاصين ، الدم يتدفق مغتاظا فى اوردة زكريا وشرايينه ، ربما يعلم اللئيم ما يتبعه أحد المهراجات فى الهند لا يكتفى بنظام واحد للبصاصين بل لديه ثلاثة نواب . يتبع كلا منهم فرقة خاصة من البصاصين . وهكذا يضمن استقرار الوضع . الا ينفرد بصاص واحد بالأمور ، وهذا الترتيب يعجب زكريا فيه دهاء من المهراجا ، فكر فى السفر إلى الهند ليطلع عليه ، او يرسل احد نوابه المقربين لنقل تفاصيله ، لكن مجرد سفر نائبه سيثير الشكوك ، ربما ترامى إلى السلطان خبر الترتيب المتبع ، ينقله إلى السلطنة ، هنا يضيع زكريا ، لا ينفرد بالراى ، بالمشورة ، لكن كيف يحصل الزينى على هذه المعلومات ؟؟ زكريا يملؤه غيظ ، حتى الآن لم تصله معلومات كافية عن الزينى ، ربما يلاقى مقدم البصاصين صعوبة فى جمع ما يلزم ، ربما يغفل الغبى عن اهمية الطلب ، لابد من معرفة عادات الزينى ، ساعات نومه ، نسائه ، إلى اى البلاد سافر ، كم لغة يجيد ، عاداته فى الفراش ، لابد من استقصاء امر المراة البدينة والقبض عليها مهما كلف الأمر ، وايضا الشاب الأزهرى ، يبدو انه مقرب إلى ابى السعود ، هذا يلزم له شان آخر ، سيوليه عناية ، الآن ، يقف فى منتصف الغرفة تماما ، يمسك وعاء مملوءا بالحليب الساخن المحلى بالسكر ، يحب شربه كثيرا ، بعد صحوه ، أول الليل ، يقول ، أواجه نهارى بالحليب الدسم وليكن ما يكون ثم اختمه به ، إنه ليس شرها كالآخرين ، الأمير قنبك يجرع على الريق سطلا مترعا بخلاصة مخاصى الديوك ، تنبىء التقارير ان باستطاعته ان يضاجع نساءه الأربع فى ليلة واحدة ، يشبع كلا منهن ويرويها ، ولا يمل ولا يكل ، مع تجاوزه الأربعين ، من يدرى ، ربما يفضل الكوب الصباحى الآن . تبرق فى ذهنه خاطرة ، سيخاطب الزينى بركات رأسا ، صحيح ، المفروض ان يبدا المحتسب الصلة معه ، باعتبار ان كبير البصاصين نائبه ، لكن زكريا سيبادر بجس النبض ، الليونة مطلوبة الآن ، على ورق عادى ، بمداد عادى ، سيامر شهاب الحلبى بكتابة رسالة إليه الليلة ، فى نفس الوقت تمضى الخطابات الاخرى إلى الامراء .

« اللهم اجعل هذا البلد آمنا »

إلى الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة

نبدا بان نشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة نقيمها فى كل حكم ، وتحاور سيوفنا جاحديها فتنهض بالحجة عليهم وهم بُكْمٌ ، ونشهد ان محمدا عبده ورسوله اشرف من ائتمر بالعدل والاحسان ، واعدل أمر امته بالوزن بالقسط ، صلى الله عليه وسلم وعلى اله وصحبه الذين احتسبوا فى سبيل الله جل عنائهم ، وسلم تسليما كثيرا .. وبعد ..

اعلم اننا بدانا إليك بالمراسلة ، واردنا إطلاعك على ما تحويه المكاتبة ، ابتغاء من العباد ، فى سائر النواحى والبلاد ، لانكم لن تطلعوا على خافى الامور ، إلا بما نطلقه بين المسلمين من عيون ، ولن تصغوا الى ما يدور من تافه الهمسات ذات الغرض الخطير ، بين الأمير والحقير ، إلا باستنادكم الى جهتنا ، والاستعانة بنا ، فهذا ما سار عليه نظام السلطنة منذ ان وعينا وادركنا ، وجرت العادة الا يتولى هذه الامور التى تدرأ الصغائر والكبائر من الشرور ، إلا نيابتنا التى يخدمها الاف الخلائق ممن لا حصر لهم ولا عد ، وهم فى خدمة السلطان ورجاله لا ينامون ، وحفاظا على راحة الرعية يسعون ، يكدون ويشقون ، من هنا راينا الاشارة عليكم ، وإعلامكم بما يجب ان يتم من جانبكم ، وهو ضرورة إرسال مطلب مفصل إلينا ، كل ليلة ، نطلع منه على ما تم من مخالفات ضبطتموها ، حتى نعرف من ارتكبوها ، فندرجهم فى زمرة الأشقياء ، ونحمى الاتقياء والاولياء ، كما نرجو الاستعانة بمن يتبعوننا من منادين ، لمراجعتنا ما يقولون ، ما يوجهونه الى العامة وينقلون ، فهذا الأمر الذى يبدو لكم تافها حقيرا تترتب عليه عواقب منها الضار والخطير ، يمكننا شرحها لكم عند اول لقاء بيننا لاننا نهدف الى مافيه سلامنا ، وللعلم ، فهذا ما درجت عليه النظم والرسوم ، منذ وقت غير معلوم ، وما نقوم به من زمن ، وما سنؤديه إذا امتدت بنا فسحة الأجل ، وليست هذه نظما من اختراعنا إنما اصول درج عليها اجدادنا .

ولكم سلامنا

عاشر شوال ٩١٢ هجرية

كبير بصاصى السلطنة

الشهاب الأعظم

زكريا بن راضى

بعض مما وجهه كبير البصاصين
« الشهاب الأعظم »
زكريا بن راضى الى السلطان والأمراء

« ... وإذا أوضحت هذه المخالفات ، ساعدد .   . غير أننى على سبيل الاختصار أوجز فاقول :

أولا : لأول مرة ، وليس لها سابقة ابدا ، يحدث أن كبيرا يجمع عامة مصر كلهم ، أسافلهم وأعاليهم ، يخطب فيهم ، مهيجا جوارحهم ، ولا يعلم إلا الله اى جمرة نار كان ممكنا ان تنطلق فى البلد ، فتقيد ولا تنطفىء ، لولا إستنفار رجالى ، ومحافظتهم على الأمن والأرواح ..

ثانيا : إطلاقه منادين لا يعرفهم أحد ، لم أراجع النداءات ، لم ارتبها ولم اطلقها الوجهة المقصودة ، ولست بحاجة الى سرد دلالات هذا الأمر الخطير ..

ثالثا : إذعانه ، تلويحه بقرب قيامه بانشاء فرقة خاصة من البصاصين تتبعه ، يشرف عليها بنفسه ، وتاكد لى هذا بعد اطلاعى على مكاتبات نوابى التى لا تخطىء ، والتى ترصد حياة الزينى منذ نشاته حتى الآن ، كل ما يدور عنه ، وقصدى من هذا سلامة الأحوال ، ولا يسعنى إلا التنبيه بما يصبح عليه الحال لو أن كل موظف ، كبيرا كان أو صغيرا ، أنشا له فرقة من البصاصين ، يوجهها كيفما شاء بلا رقيب أو سلطان ، وانا لن أسمح ابدا بهذا ، وسأحول دونه .. فانا ورجالى فقط عينا السلطان وأذناه .

رابعا : تفيد التقارير ان العامة بدات عيونهم تتفتح على الأمراء ، كل منهم يقول لماذا لا ينزلون أو يخطبون فينا ، ام هم اقل شانا من الرجل الطيب الزينى بركات ؟ ؟

وبعد ، فلا أطلب منكم إلا تبصر الأمور ، وإلا سارت بعكس ما نهدف وما نبتغى ، واضطرب النظام وضاع الأمن ، وراح السلام .

وأشهد الله ربى ، كاشف الغيوب ، على صحة ما أقول .

« عاشر شوال ٩١٢ هجرية »

« كبير بصاصى السلطنة »

الشـــهاب

زكريا بن راضى



●رسم : اميديو بريزوسى

لكن ماذا ستأتي به الأيام ؟ بل ماذا يخبىء اليوم نفسه ؟

السرادق الثاني

شروق نجم الزيني بركات ، وثبات أمره ، وطلوع سعده ، واتساع حظه

نــــداء

يا أهالى مصر
أمر مولانا السلطان
بتسليم المجرم ابن المجرم
على بن أبى الجود
إلى ناظر الحسبة الشريفة
الزينى بركات بن موسى
ليتولى أمره
ويأخذ حقوق الناس منه
ويذيقه ما أذاق لعباد الله الفقراء
المساكين الأولياء
يا أهــالى مصــر
يا أهــالى مصــر
كل من وقعت عليه مظلمة
كل من سلبت منه حاجة
كل من راح ماله بالباطل
بسبب على بن أبى الجود
عليه التوجه إلى باب
الزينى بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة ، والوجه القبلى
ليرد عليه حقه وماله
يا أهــالى مصــر ..
يا أهــالى مصــر ..

سـعيد الجهيني :

طال به حب هذا البيت وأهله ، حجارته ، أخشاب مشربياته ، نقوش جدرانه ، الضوء في فراغه ، قاعة تلاوة القرآن في رمضان ، عالية السقف ، قرب منتصف الجدران نوافذ ضيقة ، يطل من ورائها الحريم ، يستمعن إلى الآيات البينات ، أمنات عيون الغرباء ، من إحدى النوافذ تطل ، ترقبه ، تتامله ، عيناه تحتويان قطع الرخام الصغيرة الملونة ترصع أرضية النافورة التي تتوسط حديقة البيت الصغيرة ، الحشايا الوثيرة التي تحول بين صلابة الجدران ورقة بدنها ، سماح تطأ الممرات بقدميها عندما يخلو البيت من الزوار ، راحة خفيفة في صدر سعيد ، لا يعد هنا من الغرباء ، لحظات إصغائه إلى الشيخ ريحان ، يراها بعيني قلبه ، تروح وتجيء في إحدى الغرف ، تنظر من نافذة ، تضطجع إلى حشية ، وسادة ، منذ سبعة شهور ، ثالث أيام عيد الفطر جاءت ، مال رأسه ، مثقل بحيرة ، بخجل ، باضطراب ، احتوى راحة يدها الصغيرة الدقيقة ، رعشات الأمل في قلوب المنتظرين ليلة السابع والعشرين من رمضان ، همسات نهار وليد ، آه من ذوبان الوجد ، لا يراها جسدا ونهدين ، ونحرا وجيدا وعنقا ، هي إلى الروح أقرب ، طيف خيال ، وشوشة لا تمس ، سوسنة لا تقطف ، عينا ملاح فيهما حيرة ، في الطريق يرى الحريم ، متشحات ، سافرات بلا براقع يجردهن في عقله من ثيابهن ، قطعة قطعة ، تستند أمامه بظهرها إلى حشية ليست مكسوة بحرير ، كلما جرد الواحدة منهن ، عاد يكسوها ، برفق ، بأناة ، بأصابع ترعشها نار الرغبة يسحبها ، يبدو لحم الذراعين ، تكور النهدين ، ثم انبساط لحم البطن ، يتوه عندئذ بنظراته في الفراغ ، يروح بخياله إلى بيت « أنس » ، يقصده أصحابه المجاورون الذين يجري المال ميسورا بين أصابعهم ، يقال انه يحوى قاعة فسيحة تمتلىء على آخرها بحبشيات وروميات ، قيل انه توجد هنديات ، في العام الماضي جاءه مال بعد نسخه كتابا في المنطق لأحد مشايخ الصعيد ، ألح أصحابه في الذهاب إلى بيت « أنس » ، عصر أصابعه ، هز رأسه مرات ، رفض ، لا يدري ما الذي دفعه إلى الرفض ؟؟ يعرفه الطلبة المجاورون ، أهالي الربوع والحارات في الباطنية طيبا ، رقيقا ، متدينا ، يسرع إلى نجدة من تضيق به الأحوال ، يسعى لتخليص امرأة من يدي مملوك يبغي اختطافها ، يزعق مناديا الطلبة ، الأزهريين ، مهيجا الرجال ، يلتفون حول المملوك ، يقول عامة الناس ، لو أوتي سعيد قوة قرقماس المصارع لما جرؤ مملوك على اختطاف قشرة حبة فول من سلة تحملها طفلة ، لكن الله خلقه ضئيل الحجم ، كثير الأمراض ، إذ يرقد فوق حشيته القديمة بالرواق ، يتوافد إليه الناس على اختلاف أصنافهم يسألون عنه ، ماذا

لو عرفوا ارتياده بيت « أنس » ، دفعه دراهم ليمتلك امراة بعض الوقت ..
« لا يتعارض هذا مع ذاك يا سعيد .. »

ينفى الخاطر والفكرة ، تحوم سماح من بعيد فى عقله ، سره الدفين الذى اقام عليه ارصادا دونها ارصاد ، لا يمكنه رؤيتها بعينى عقله عارية ، او تقف فى حمام ، كل ما ترتديه قبقاب خشبى عال يمنع عن باطن قدميها الماء القذر ، سماح خلاصة نساء الأرض اجمعين ، منها تفرعن ، عنها اخذن ، إليها يعدن ، فى المستقبل البعيد لا يراها إلا معه ، ينظران معا من طاقة مشربية ، يمشيان فى حديقة ، يسافران بلدا ، منذ ايام يشتد البرد ، فى البرد يرى سماح موطنا ينبع دفئا وسلاما .

قال الشيخ ريحان :

« هيا بنا إلى الغرفة العلوية .. »

طلع سلم البيت الداخلى ، كان لأنفاسها اثرا تعلق فى الهواء ، تجسد إلى أبد ، خاف أن يسمع الشيخ ريحان دقات قلبه ، يرى ارتجاج امره واضطراب لونه ، يتربع الشيخ فوق وسادة خضراء كبيرة ، ينفث الدخان هادئا ، تقرقر النرجيلة ، قام نصف قومه ، مال عليه سعيد ..

« شتاء العام لم نر منه بردا بعد .. »

« ليس باردا كالسنين الماضية .. لكنه فى الرواق لا يطاق .. »

تتوهج الحجرات ، يسقط شىء ما فى البيت ، ربما وعاء ، علبة تمسكها ، الليل هنا ناعم فيه هدوء البيت ، وأمن عائلى ..

كاد مماليك طشتمر يطفشون فى الناس اليوم .. لولا خروجنا من الأزهر والوقوف بينهم وبين الناس ..

« ياه .. لم اسمع بهذا فانا لم اخرج طوال النهار .. تقول مماليك من ؟؟ » طشتمر ..

« غريب .. كان هادئا ومماليكه لا باس بهم .. ما الذى غيره ؟؟ »

« ابدا .. كان الأمير خاير بك حط فى حقه كلاما عند السلطان .. واشيع أن السلطان ينوى اعتقاله .. »

« .. يا سلام .. طول عمره طشتمر متهور .. متهور .. لا يسمع الكلام ابدا .. »

هنا يصمت سعيد ، يبدو الأمر مسليا ، لكنه يبرره ، يبحث فيه عن فضيلة ما لانه صادر عن والد سماح ، دائما لا يجىء اسم امير ، موظف عظيم إلا يسارع قائلا ومؤكدا بوجود رابطة قوية بينهما ، احيانا يؤكد سعيد ما يقوله الرجل بسؤال او استفسار ، كان يقول منذ متى تعرف طشتمر يا عمى ؟؟ هنا يتراجع الشيخ ريحان إلى الوراء ، يزعق مناديا الخادم ليحضر جمرات للنرجيلة ، يا سلام .. طشتمر ربيته انا على يدى .. كان يجىء هنا عندى وقت أن كان مملوكا ضعيفا ، عرفته قبل زواجه بخوند زينب امراته الأولى » ، سعيد لا يعرف أحقا تدعى امراة طشتمر خوند زينب ،

أو لا ؟؟ إنما يقول : « اظن طشتمر والأمير ملكتمر الساقى من .. » لا يدعه الشيخ يتمم كلامه ، يسارع قائلا ، « ملكتمر .. ملكتمر هو الذى إنصفنى على موسى بن اسحق عند اختلافى معه فى بعض امور بيت المال .. استدعانى ملكتمر فى منتصف الليل تماما ، اى واالله منتصف الليل ، طلعت إليه فى القلعة نفسها ، انا ذهبت إلى القلعة مرات ومرات هذا لم يتفق لاحد غيرى ، المهم انه قبل يدى ، أى واالله ملكتمر قبل يدى فانا اكبر منه سنا قال .. إنه يعرفنى صالحا تقيا ، لهذا سيلغى أمر موسى بن اسحق تماما ، واذكر انه ربت بيده على كتفى .. فامسكت ذراعه .. بالضبط يا سعيد يا ولدى امسكت بذراعه .. »

« وعندما جاء الزينى بركات بنفسه تفرق مماليك طشتمر .. بل قبض على أربعة منهم وارسلهم إلى المقشرة » .

« الزينى .. بركات .. آه .. كان المفروض أن ازوره منذ يومين .. »

« الزينى بركات ارسل إليك يا عمى ؟؟ »

ياه ، تسرع سعيد بالسؤال ، فى كل مرة يسكت ، لماذا الآن لماذا الآن بالذات ؟؟

« الزينى صاحبى .. كان المفروض ان ازوره لولا صحتى التى لا تساعدنى .

« قواك االله .. »

« اى زينى يا ولدى .. امثاله كانوا لا يدخلون على إلا بصعوبة ، يسعون فى ركابى .. الا قل لى .. هل الناس راضية عنه ؟؟ »

« جدا .. »

« اعرفه .. فهو عادل واهم ما فيه انه عاقل .. عاقل جدا ، ما آخر اخباره ؟؟ »

« لم نعد نرى المنادين التابعين لزكريا .. »

« زكريا بن راضى .. لا حول ولا قوة إلا باالله .. اخفض حسك يا ولدى .. ربما سمعنا .. »

الآن ، تنسال مرارة فى حلق سعيد ، أى طالب مجاور لا يجرؤ على لعنه ، سعيد يلعنه فى سره ، يعرف امتداد ظله بين الأروقة والحجرات ، إلى محراب المسجد ، تحت حصير الجوامع ، غرف النوم فى البيوت ، يقول عنه الشيخ ابو السعود ، هذا من علامات الساعة ، لابد من بقائه فوق الدنيا ممثلا لإبليس حتى يتعذب الخلق اضعافا مضاعفة ، وقتها تضايق سعيد من كلام الشيخ ابو السعود ، ربما يقول هذا لعجزه عن الإمساك بزكريا بن راضى ، باستطاعة الشيخ أن يفعل ، لا يحاجه إنسان ، لكن أين زكريا ليمسكه ، لم يره احد ، يقال إنه يقيم فى اكثر من مكان ، لا يدرى أحد عمره الحقيقى ، يعرف الناس مقره الأصلى ، بعيدا تحت جبل المقطم حيث يتهامس البعض بسماعهم صرخات بشر يجلدون ، تحرق أطرافهم ، يخوزقون ، لكن هل يقيم زكريا هناك فعلا ، يقول انه ينام كل ليلة فى مكان مغاير ، إن وجهه لم يره إنسان ،

حتى الشيخ أبو السعود ، مرة ضاق سعيد بنفسه حتى بعد اختفاء ثلاثة مجاورين نوبيين ، دائما يعيشون معا ، يقرأون في مصحف واحد ، يأكلون في قصعة واحدة ، ينامون ملتصقين ببعضهم حتى تراهم فتظنهم شخصا بعينه ، هكذا تعودوا ، بين الحين والآخر ، يختفي مجاور أو طالب ، أحد العامة من السوق ، لا يدري أحد عنه شيئا ، يترك ذهابه خوفا وعكارة في النفوس ، من يدري ، ربما جاء الدور على هذا أو ذاك غدا ، عند اقتراب الأثر الذي أحدثه الاختفاء من الزوال ، يضيع إنسان من جديد ، ترتجف القلوب ، سعيد لم يطق نفسه عند ذهاب النوبيين ، تمنى لو زعق محرضا الأرض والنجوم والقمر والكواكب ، يوقظ الأحاسيس في الجماد ، يومها قطع الطريق جريا إلى كوم الجارح ، أصغى إليه الشيخ قال « أحقا سبوا زكريا .. هكذا سمعت » ، سعيد لا يدري ، دائما يتحدثون لغتهم الغريبة ، لغة لا يفهمها أحد ، كيف وصل الأمر إلى زكريا إذن ، كيف ؟ يقول العامة ، لدى الشيخ أبو السعود خاتم عليه رسم سيدنا سليمان ، يمكنه فك طلاسم الجان وتسخيرهم لأغراض الإنسان ، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضي إلى جبال واق الواق ، لا يرجع أبدا ، لو شرع في العودة فسيقطع المسافة في ألف ألف سنة ، سعيد لم يقل هذا للشيخ ، يعرف غضبه وهياجه إذ تنسب إليه الخوارق ، في المساء خجل من روحه ، كل أمر يطلب تحقيقه من الشيخ ، تلا سعيد « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

« ابق لتأكل معنا » .

يحن إلى مذاق طعام بيتي ، مرق تشرب منه سماح في الليلة نفسها ، ملعقة ربما لامست شفتيها ، لكن كربا يؤرقه ، لا يطيق بقاءه في مكان واحد ، الشيخ ريحان لم يلح ، دس سعيد قدميه في نعليه ، يعبر الممرات الصغيرة في الحديقة بمفرده ، يهم برفع عينيه ، لو أنها تنظر الآن ، لو يراها مقدار ساعة ، يقضي والله عمره متنقلا فوق مآذن الدنيا ، زاعقا باسمها في وجه السماء ، معلنا ما يتقلب في صدره ، يعبر البلاد كما اجتازها مولاه ، زاده عيناها ، آه لو تصغي إليه ، آه لو يركبان في زورق عبر النيل ، أياديهما في التيار ، تنثر رذاذا أبيض ، يراها في مدينة لم تعرف الطواعين لا يموت الإنسان فجأة في عرض الطريق ، لا يتوجع امرؤ لمخطف إبنته ، لا يساق الفقراء إلى الجب ، إلى المقشرة ، لا تقضى أعمار في سجن العرقانة ، لا تنزع يد من جسم لأنها سرقت خياره ، سماح تطل على طريق لم يجس فيه أحد ، يحتضنها بذراعه يضحكان ، تمضغ لبانا جاءها من العجم ، في عزلته الليلية ، بعد نوم صحبه في الرواق ، تجيئه سماح ، همسة دفء يجود بها برد ضنين ، رعشة ريح باردة في قيظ صيف عفي يخنق الأنفاس ، لا يذكر لون شعرها ، لكنها أمل النجاة من دهر بأكمله ، هاهي ذي الحواري تثقل عليه ، جمال مثقلة بالدريس ، إلى أين ؟ أي مكان يحتويه ؟ يمكن الذهاب إلى الحمزاوي ، العطارين ، يخجل من المجاملة

والتحيات ، يعرفونه ، الآن لا يطيق البقاء فى الرواق حتى الصباح ، فراغ خانق لو بقى وتناول العشاء ، لكنه اكل مرتين فى اسبوع واحد ، يجب الا يثقل عليه ، ربما أصبح موضوع حديث بينها وبين امها ، مجرد تخيله ما يقال يرجفه خجلا ، هل يذهب إلى دكان « حمزة » يشرب الحلبة المطحونة المخلوطة بالسمسم والحليب ، يبادل الخلق أحاديثهم ، يستقصى حديث الهموم ، دكان « حمزة » يمتلىء بعد العشاء ، بمدخنى الحشيش ، ربما قال الناس ، انظروا تلميذ ابى السعود ينسطل ليعرف كيف يصلى الفجر ، إلى اين إذن ، يجب استقراره فى مكان ، لو تكرر مروره فى نقطة معينة بالطريق يرصده البصاصون ، يصل اسمه إلى زكريا ، يوقن من وصول اسمه يوما ما ، يريد تأجيل هذا الوقت إلى حدث يستحق طلوع اسمه هناك ، من يدرى ؟ ربما مثلت الصفحات عنه أمام زكريا ؟ هل يغفل رجاله عن سعيد ، عموما زكريا لا يملأ كل شيء كالعادة ، هذا ما يحسه سعيد ، لم يخبره أحد ، لم يطلعه كبير على سره ، إنما هو واقع اقرب إلى الوعى والإدراك ، لأول مرة يطوف منادون فى طرقات القاهرة لا يتبعون زكريا ، قلة فقط يعلمون بتبعية كافة المنادين لنقيب البصاصين ، بل إن الشعراء فى المقاهى وأرباب المغانى والطرب ، أصحاب فنون الرقص ، الحواة ، وعاظ المساجد ، يخضعون بشكل أو باخر إلى نقابة البصاصين ، من هنا يعى سعيد حقيقة مرور منادين يرتدون سروالا ازرق وقميصا اخضر حوافه محلاة بالقصب ، زى جديد يعلن تبعيتهم لناظر الحسبة نفسه ، لم يكتف الزينى بهذا ، إنما رتب مرورهم ، اول النهار ، بعد الغداء ، قبيل المغرب ، قبيل العشاء ، ينطلقون بلا حرس ، كل ما بايديهم عصا قصيرة ، يقرعون بها طبلة صغيرة ، ينقلون إلى الناس ما استجده الزينى من أمور ، يحرضون الناس على كشف كل غشاش لئيم ، عندما استمع سعيد إلى هذا النداء بالذات تردد فى قبوله وانتابه شك ، لو تاجر كبير ، قريب لوزير أو أمير ، قريب الزينى نفسه ؟؟ هل يجرى عليه ما جرى للآخرين ، لم يحدث هذا ولو حدث لبدا أمرا عجيبا ، بعد النداء بأيام ثلاثة ، سمع سعيد ضجة ، تجمع الناس حول مناد يرتدى الثياب الجديدة ، ما الأمر ؟؟ ترزى من ناحية المغربلين ، ليس خياطا صغير الشأن ، يفصل الفرجيات والقفاطين للأمراء ، لأرباب الدولة ، تجاوز الأربعين لكن الله ابتلاه بداء مكين ، واثناء مشيه فى سوق الخيامية ، أعجبه غلام صغير ، قال للغلام ما اسمك يا شاطر ؟

قال اسمى كمال ، قال تعال آخذك إلى ابيك فى الجامع لأنه ينتظرك هناك وساشترى لك سنبوسك ، غير ان اللعين ساقه إلى خرابة قديمة وراء الجامع الأزرق ، مال عليه ، لم يحتمله الغلام فانفزر من ثلاث جهات . وذهب إلى أبيه يصيح غارقا فى دمه ، طلع الرجل إلى الزينى باكيا ، أمر الزينى بإحضار الترزى ، سأل الغلام ، أهذا هو الرجل ؟ فأومأ الطفل باكيا ، زعق الرجل ، الولد كذاب ، فضربه الزينى على وجهه ، قال : الأطفال لا يكذبون . أمر بشهره

على حمار في القاهرة كلها ، وسجنه بالعرقانه ، حتى يكون من امره ما يكون ، طلع إلى الزيني بعض المشايخ قالوا ، ما جرى يحدث كل يوم ، ملوا في كلامهم . لم يصرحوا ، إنما لمحوا ، الرجل يعرف بعض الأمراء ممن يترددون عليه ، وهؤلاء ربما .. يعني .. ربما ، قيل إن الزيني قام واقفا ، نتر فيهم ، امر بإخراجهم ، قال لن تحدث فاحشة في زماني ابدا ، انا ما اخشى إلا هو ، اشار بإصبعه إلى السماء ، قيل بين العامة ، انه ضربهم على اكتافهم بمقرعة مقبضها عاجي ، مزخرف ، بذهب ، زعق كيف تلقون ربكم يوم القيامة ؟ سعيد خشى على الزيني ، خاصة ان على بن ابى الجود الذى تسلمه منذ عشرين يوما ، لم يعلن المنادى خبرا عن اكتشافه المال المخبا ، ما يهم السلطان المال ، ربما وجد زكريا الفرصة ليوغر صدر السلطان ، عندئذ يقيل الزيني من الحسبة ، الوقيعة الدائرة الآن بين طشتمر وخاير بك ربما غطت بعض الوقت ، لكن .. ما هذا ؟ ايقلق سعيد من اجل الزيني ؟ ايتمنى سعيد وقوع العذاب بعلي بن ابى الجود ليفشي سر المخبا من ثرواته ، ايرجو العذاب لإنسان ما ؟ حتى على بن ابى الجود ، طبعا ، وكم إنسانا عانى ما عانى منه ؟ كم ؟ ثم الن يوقع به الله عذابا اشد وانكى يوم القيامة ، لا ينكر سعيد قرب الزيني من روحه ، عندما اقترب لإبلاغه طلب الشيخ ابو السعود ، كان الوقت ليلا ، خرج إليه الزيني ملثما . عمامته صغيرة . ثيابه عادية شان فقراء المتصوفة . مشيا صامتين . ينظر إليه سعيد من طرف خفي . رائحة ثيابه تدفع إليه ذكرى بعيدة لخاله في قرية نزة ، الصوف الممتزج بعرق الرجولة ، رغبة راودته . لو يراه بعض اصحابه يمشى مع رجل يذكره كل لسان في القاهرة اليوم كله . في اى الملامح يكمن الإباء ؟ القدرة على رفض منصب كبير ؟ كل من صدر مرسوم بتوليه وظيفة من وظائف على بن ابى الجود انتابته فرحة . بقوا في بيوتهم يتلقون المهنئين ، اما بركات بن موسى المرشح لأخطر وظيفة . رفض . يندر الرفض في زمن بخيل بكل ما يحلم به المرء ، بعد سكوت قال سعيد « امرني الا ارجع إلا معك » . لفتة منه وهزة راس . خجل سعيد . ربما يفكر في امور خطيرة . فجاة قال « مولانا لا يمكنني ان اعصى له آمرا » ، وتتابعت اسئلة الزيني . اخبره سعيد بامره كيف جاء من البلدة . كيف التقى بمولاه ، تردده عليه ، رفقته له ، اخذه العلم عنه ، بقاؤه عنده طوال وقته ، الآن يذكر اسئلة الزيني ، ثم صمته المفاجىء لا يدري سعيد ما يجرى بينهما . امره الشيخ بالعودة إلى الأزهر . من يومها لم يقترب سعيد من الزيني . فيما عدا موكب عودته من الأزهر . لكنه مشى منفردا بين الخلق . لا يدرى الزيني بوجوده ، لا يصغي إليه . اخر المنادين طاف منذ ساعتين ، لا يدرى مقاله للناس . في الاسبوعين الاولين يتجمع الناس بقصد الفرجة والاستماع إلى ما يقولون . بمرور الأيام خف زحامهم ، اما الأطفال فلا يفارقونهم . الآن . يقف سعيد فجاة يبدو انه اقترب من حارة قصر الشوق . رجل يمضى

مسرعا . أليس هو ؟ لماذا توقف . تجمد . أى حيرة انتابته . لا يذكر طول القامة . يذكره ممتلئا ونحيلا . معتدلا وذا حدبة . لا تثبت صورته فى الذهن . إنما هذا الماشى هناك . هو هو بعينه . اجتاز حارة بيت المال . يمضى طريق إلى حارة بيت القاضى . آخر إلى مسجد الشهيد الحسين . اختفى . لكن أين الحرس . كيف يأمن على روحه ؟ وإذا كان هو الزينى بنفسه . هل رآه .. هل عرفه ؟

★ ★ ★

نـــداء

يا اهـالى مصـر
نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر
اليـــوم ..
خرج السلطان إلى الريدانية
بدا لعب الكرة ، وكله عافية
امده الله بالصحة والقوة
يا اهـالى مصـر
مازالت الوحشة والقطيعة مستمرة
بين الامير طشتمر والأمير خاير بك
وكل منهم مترصد للآخر .. فانتبهوا ..
يا اهـالى مصـر ..
العطار صابر بن الحمزاوى غش فى الميزان
وباع الحلبة مخلوطة بالتراب الناعم
غش المغات ، ودس السقنقور الهندى
وعنده منه الكثير ، حتى يغلو ثمنه
لأنه الوحيد تاجر السقنقور
راى الزينى بركات بن موسى ..
ناظر حسبة القاهرة ، والوجه القبلى
منفذ تعاليم الشريعة ، وحافظ حقوق الناس
وخادم السلطان
بتغريمه مائة دينار
والحوطة على مخزونه من السقنقور
وتوزيعه على سائر العطارين
لينتفع به المخاليق ، وتسعيره بثلاثة دراهم للواحد
والله منتقم من كل غشاش لئيم
إتعظـوا
يا اهـالى مصـر
يا اهـالى مصـر

★ ★ ★

زكـريا بن راضى :
صباح الثلاثاء سابع ذى القعدة ٩١٢ هـ

يخلو إلى نفسه تماما إذ يتأمل طفلا ، يداعبه ، رقة العمر الأول ، ريش العصافير وسخونة جلدها الرهيف ، لو يبقى الإنسان طفلا إلى الأبد ، يحرك اليدين كما يشاء ، يضحك في كل اتجاه ، يحبو ، يعبث ، يبكى فتهرع نفس حانية تجفف الدمعات ، الأوهام والمخاوف لا تتخذ من قلبه الصغير خانا أبديا ، يرى الدنيا بعينى الدهشة والتساؤل ، محال هجرة زكريا عبر الزمان قاصدا بداية سنينه . أحيانا يوقن أنه لن يمر بمثله أبدا . لا يذكر يدا ملست عليه . أصعب الظروف لم تمنعه من رؤية ابنه الأول والأخير حتى الآن . يس . يجيئه ملفوفا فى قماط قطيفة سوداء مطرز بذهب ، يحمله ، أمه زينب ترقبهما ، تحكى أخبار يس . كم مرة أرضعته . ابتسامته الهادئة عندما راح فى نومه . إذ يستيقظ كان عينيه تبحثان عن الغالى أبيه . تعثره فى الحروف . تطيل الحديث . يس هو ما يقربها إلى الرجل . تتباهى وتعلو على بقية حريمه وجواريه . لم ينجب منهن . أما هى فولدت له يس . تتجاهل أحمد الذى جاء منذ أربع سنوات . ذهب بعد شهور . أمه الحبشية لا تزال تقيم فى البيت . مجهولة لا يعرفها أحد ، لسعة حزن حارقة تغشى قلب زكريا بين الحين والحين ، لم تطفئها السنون . تخفف حدتها . أشد الظروف فظاعة لم تعطله عن لحظات يمضى فيها إلى يس ربما يوقظه آخر الليل برغم تحذيرات أمه . يلاعبه . يناغشه . من شهور أمسكوا فى خان الخليلى تاجرا روميا قيل انه يكاتب ابن عثمان بأخبار الدولة أمسكه رجال زكريا . راقب عقابه بنفسه . تعصير أكعابه . حرق جلد ظهره بنار هادئة . ومبروك قائم على تعذيبه بهمة عاليه ، بإخلاص وتفان . نزل الصمت كالجثة على بقية المحابيس فى حفرهم . وهم يصغون إلى صرخات الرجل التى لا تنفذ إلى الفراغ الخارجى أبدا . يعرف زكريا أى رعب يتملكهم . ما يقع فى أرواحهم من رعب والآلام عند سماعهم أوجاع إنسان آخر يجهلون منه الإسم حتى ، أكثر مما انتزعت أسنان الواحد منهم بكماشة محماة ، خاصة حديثى العهد منهم بالحبس ، من يدرى ، ربما جرى عليهم ما يجرى على المنكوب الرومى ، طال صمته ، لم ير زكريا إلا تقلص وجهه ، جحوظ عينيه وتضخم أنفه ، تدلى فكه . لكنه لم يفه حرفا ، ما أغاظ زكريا ، ما كاده ، تأكده من وجود شركاء للرجل ، بعد مرور نهار بأكمله ، أمسك زكريا بسيخ رفيع طويل كالإبرة محمى ببطء ، على مهل راح يدفعه فى بطن الرومى ، حول سترته ، زكريا يختنق بدخان اللحم المحترق ، خرج ، نفذ الهواء من أنفه كما يتجرع الماء ، عبر الفناء إلى جناح حريمه ، طلع السلم المؤدى إلى غرفة

زينب ، سأل : هل نام ؟ أومأت .. نعم ، قال : أريد رؤيته ، بالتأكيد غمرتها خيبة أمل ، تأمل قضاء الليل معه ، بقاءه عندها حتى الصباح ، لن يكتمل تظاهرها على بقية الحريم إلا بنجاحها فى استبقائه الليلة كلها ، طلب رؤية يس مرة أخرى ، قالت .. نائم منذ فترة يا سيدى ، قال بصوت أجوف أرعشها خوفا أنا لم أقل صحيه .. مشيت أمامه ، بين الحشايا رق وجه الطفل مُستديرا مغمض العينين ، قمر بين غمام ، بشرة تفاحة ملساء ، قماش حريرى يشف عن ملامحه ، قرب الشمعدان منه ، تمايل الضوء ، بقى مقدارا من الزمان ، يرحل وجه الرومى مبتعدا ، قالت المرأة : هل أخلع القفطان يا سيدى ؟ اعتدل فجأة ، لم ينظرُ إليها إنما مضى إلى الباب ، تقارير اليوم لم يراجعها ، ثمة ما يجب رفعه إلى السلطان بخصوص الرومى ، أسرعت خلفه ، خيبة أمل لا تخجل من التوارى فى صوتها .

الآن ، ينزل زكريا السلم الطويل إلى حوش البيت ، ينفذ الريحان إلى صدره ، وشيش سعف النخل ، أشجار غريبة أرسلها إليه كبار البصاصين فى الهند ، فى اليمن ، فى الحبشة ، فى ركن الحديقة الأيمن ، زهور صفراء قليلة ، لا ينسى إحداها ، همسة تجسدت زهرة ، رقيقة صفراء ، حوافها بنفسجية ، قلبها أحمر قان ، به ثلاث ذرات من لون أخضر قاتم ، رآها تتفتح أمامه ، شهد إطلالها على العالم أمام عينيه ، يذكر المنظر متعجبا ، فى الحديقة أقفاص صغيرة تضم عصافير غريبة الخلقة ، صباح بعضها غريب ، الآن لا همس لها ، فى الشتاء يرى عصافير طليقة ، أخبره علماء الطير أنها تجيء من بعيد ، من بلاد ليلها ستة شهور ونهارها ستة شهور ، تذهب مع الشتاء يجيء الصيف قاحلا منها ، زكريا يؤرخ اليوم الذى يرى فيه أول العصافير فى حديقته ، يتساءل ، أهذه العصفورة بعينها هى التى جاءت فى العام المنقضى ، كم تعيش إذا لم تغتلها يد صياد ؟ تموت موتا طبيعيا ، أمثل هذه المخلوقات يموت ؟ فكر فى إطلاق المنادين ليأمروا الناس بالكف عن صيد العصافير لكنه تراجع ، ربما ظن بعض الأمراء الظنون ، ربما قوبل أمره باستخفاف ، هل خلت دنيا زكريا من المشاغل تماما حتى يأمر بالكف عن صيد الطيور ، فى الأيام الأخيرة يكثر من تأمل عصافيره حبيسة الأقفاص ، مداعبة يس ، لكن ضيقا وقلقا يزحم صدره ، يضيق عليه ، لولا الطيور ويس ، الخروج بين الحين والحين متخفيا ، سفره إلى إقطاعه فى سرياقوس ربما طق له عرق من الغضب ، لكن صبرا ، مثل هذه الظروف تتطلب ليونة وبأسا ، لم يصله رد الزينى ، حتى شك فى وصول الخطاب ، لكنه استوثق من وصوله بين يدى الزينى نفسه ، تعب جدا حتى تأكد من وصول الرسالة ، ما من بصاص واحد يتبعه يعمل فى بيت الزينى ، ومقدم بصاصى القاهرة لم يهتم بدفع بصاص إلى بيت الزينى من قبل ، فلم يكن به شأن يذكر ولا حس يسمع ، وعد بإدخال عين إلى البيت ، حتى خدم الزينى لم يعرف واحدا منهم ، كأنه أحضرهم من

بلد غير البلد ، بينما واصل المقدم إطلاق عيونه في إثر هذه المرأة التي طلعت أمام موكب الزيني ، زعقت في وجهه .. يا لئيم .. إذن هي تعرفه ، ربما أدى الإيقاع بها إلى كشف المستور من سيرة الزيني ، قال المقدم في أول تقاريره ، هي امرأة بلا أهل ، سكان بين السيارج وشارع أمير الجيوش وباب الشعرية ، يعرفونها ، يرونها أحيانا منذ صغرهم ، لا يعرف بيت لها ، قيل انها تنام في أحواش الموتى خارج باب النصر ، واسمها أم سهير ، وقال آخرون بل اسمها « مسكة » وليس لها بنت اسمها سهير ، وحدث أن شتمت الزيني في شارع الصليبة مرتين ، وفي شارع المعز ولكنها لم تظهر كأن الأرض انشقت ، ابتلعتها ، وقيل في تقرير بصاص موثوق به مكين ، أن رجلا عجوزا يجلس بجوار سبيل بشتاك دائما ، معصوب العينين ، حدث فقال : هذه المرأة تذهب إلى الزيني بركات بن موسى ، تعانقه ، يتبادلان البكاء ، تحتضن رأسه بين يديها ، تناجيه بأرق الألفاظ ، ثم تخبره بالأمور المقبلة القادمة وكل ما يحدث له وما يدبر ضده ، قال العجوز انها تخاوى عددا من الجان يخدمونها ، ويأتونها بصادق النبوءات ، أما من هي ، فلا يعرف العجوز ، متى تخلو إلى الزيني ، لا يعلم ، لماذا زعقت في وجهه أمام الخلق ، فهذا ما لن يطلع عليه مخلوق ، وألمح العجوز إلى احتمال قيام صلات خفية بين الزيني وعالم الجن ، الزيني تجاهل الخطاب ، كأنه لم يقرأه ، لم يطلع عليه ، شهاب الحلبي سأل منذ أيام ، هل وصل رد من الزيني ، زعق زكريا في وجهه ، ثار ، منذ متى تسأل عن رد خطاب كلفتك بكتابته ؟ أهذا ما علمته لكم ؟ أتعرفون ما عاقبة الثرثرة الكاذبة ؟ عاقبة الفضول ، الكلمة التي تخطها يجب أن تنساها ، إرتعب شهاب الحلبي ، أشد ما يخشاه غضب زكريا ، الأدهى من ذلك ، لو ظن شيئا من وراء السؤال ، ربما ارتاب ، هنا لا يدرى شهاب الحلبي ما قد يفعل به ، عمله الطويل لا يغفر له أى زلة مقصودة أو غير مقصودة ، دائما يردد زكريا على مسمعه قصة نائب كبير البصاصين العثماني الذي وصل إلى أعلى مراتب دولة البصاصة في دولة ابن عثمان ثم اكتشف أمره بعد العديد من السنين ، لم يكن إلا بصاصا وثيق الصلة بدولة الشاه إسماعيل الصوفي ، ألد أعداء الخنكار ، شهاب الحلبي حريص دائما على حركاته وسكناته ، ليس هو فقط إنما أى إنسان يعمل في ديوان البصاصين ، زكريا تعجب لحدة غضبه ، لكن تأخر الزيني يضايقه ، سؤال شهاب الحلبي نغزه ، كل يوم يقول ، ربما أجاب الليلة ، غدا ، لكن الزيني تمادى في غيه ، الأمير الجمدار هزّ رأسه ، قال ، السلطان يوافق الزيني على كل كبيرة وصغيرة ، الزيني يطلع إلى السلطان كل ليلة ، يخلو به مقدار ساعة ، لا يطلع إنسان على ما يدور بينهما ، زكريا يواجه ظروفا لم يعرفها أحد أسلافه ، ربما يرد إسمه في هذه الخلوات ، ربما تدبر له الملاعيب ، علاوه انزعاج ليلة وصول تقرير يؤكد استمرار الزيني في إقامة فرقة بصاصين خاصة به ، الأمير منكلي بغا -

وهو قريب الصلة من زكريا ـ ألمح في لقائه مع الزيني إلى أن الأصول تقضي بوجود فرقة بصاصين واحدة في السلطنة كلها ، وأن يتبع زكريا بن راضي المحتسب كما هو متبع . لكن الزيني هز رأسه ، قال لا أطمئن إلا لرجالي ، أن توجد فرقة بصاصين أخرى ، فهذا ما يقلق زكريا ، ربما تسرب أحد إلى بيته ، إلى ديوان السر ، أصدر أوامر مشددة إلى مقدم بصاصي القاهرة ، إلى مقدم بصاصي الوجه القبلي ، الوجه البحري ، مقدم البصاصين ببلاد النوبة ، أن يرصدوا ما يقيمه الزيني ، أن يتعقبوا أفراد الفرقة الجديدة ، من هم ، أين ، كيف يعملون ؟ لا تزال التقارير بخصوص هذا الموضوع باهتة ، عموما لابد من العمل في تأن ، لكن بلا توان ، لابد من حسم أمر الزيني وإلا أصبح تاريخ البصاصين كله مهددا ، استدعى كبير الشعراء والمغنين في مصر ، إبراهيم بن السكر والليمون ، إبراهيم من أخلص مستصنعيه ، يشرف على الشعراء في المقاهي ، وأصحاب الربابة ، المنشدين في الموالد والأذكار ، كافة ما يقولونه من المواليا والدوبيت والأراجوزات والسير ، كل ما ينشد لابد أن يقره إبراهيم بن السكر والليمون ، يحذف منه ما قد يراه مخلا بأصول الديانة والأخلاق ، ما فيه من تعريض بوجيه كبير أو أمير من أمراء الدولة ، إبراهيم يجيء إلى زكريا يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، يحكي له أخبار المغنين والمنشدين ، أحوالهم وما يدور بينهم ، وما ينتويه كل منهم . ما يشرع فيه من أمور تخصه هو أو تتعلق بالمغنى والطرب . يسخر زكريا في سره . لا يخطر هذا ببال الزيني . يستمع الناس إلى الشعراء في المقاهي . يرون سيف بن ذي يزن ينبش الأرض بحثا عن كتاب النيل . ترتعش القلوب حبا لذات الهمة . يتابعون أخبار البرامكة مع بني العباس . أبو زيد ودياب والزناتي خليفة . سليمان وكيف تحكم في الجان . استشهاد الحبيب النجيب في كربلاء . لا يدري إنسان أن ثمة خيطا يربط كل أرباب المغاني والمنشدين والقصاصين في مصر بعضهم إلى بعض . خلا زكريا إلى إبراهيم بن سكر والليمون . طلب منه إعداد حكاية تروى على الربابة . عن رجل لا أصل له ولا فصل نزل عليه الجاه فجأة . فادعى أنه سينشر العدل بين الناس وطلب أن ينشدها الليلة أربعة منشدين في دكان « لانضي » ، « دكان البهجوري » بالحسينية . ودكان « يونس » بالفسطاط ، ودكان « أبو الغيط » في بولاق . الدكان الأول والثاني من أكبر دكاكين الحلبة والجنزبيل والنراجيل في مصر وروادهما من ميسوري الحال . ويبدأ شرب الكيف فيها بعد العشاء . أما الثالث والرابع فشأنهما ضئيل وروادهما من أسافل القوم ، جلهم من الفعلة . بعد يومين تنتشر الحكاية في عشرة دكاكين . في أحياء مختلفة من القاهرة . نعم بعد أسبوع لتصبح حديث الناس ويمكن الاستعانة بالبصاصين المندسين بين البشر لشرح وتفسير ما تتضمنه الحكاية لو تاه مغزاها

عن البلهاء ، غادر إبراهيم بن سكر والليمون بيت زكريا ، قام ، نزل إلى الحديقة ، إنه الآن اكثر نشاطا ، يفكر بسرعة ، تتدافع إلى ذهنه الخواطر ، يذكر عشرات الأسماء ، المواضيع ، يضرب راحته بقبضة يده ، يميل ليشرب جرعة من ماء الورد المخفف ، يفاجأ بخواطر لم يحلم بورودها قط ، ينسى روحه تماما ، تولد مشاريع لا يمضي وقت طويل حتى تتحقق ، إنه لا يغفل التفاصيل ، أدنى مايخص المشروع ، كافة ظروفه وأحواله ، بعد انصراف إبراهيم بلحظات ، في غمرة نشاطه طلع إلى غرفة امرأته زينب ، احتضن يس ، رفعه ، حمله فوق كتفه ، حبا أمامه على أربع ، قلد أصوات الشاه والحمار ، كاد يرمي روحه في الفراغ مرحا ونشوة عندما علت ضحكات يس ، ضحكات صغيرة كأنها قرقرة نرجيلة نشوى ، دخلتها نعناع ، وريحان وبلسان ، فجأة أسنده إلى يدي أمه ، نزل مسرعا ، فارق ولده ، لم تندهش زينب ، تعودت منه كل غريب ، أرسل في طلب المعلم عوض المعروف بين العامة « بابن كيفه » لإدمانه الحشيش وطول لسانه وحبه الشديد للنكاح ، جاء ، وقف صامتا ، ينتظر ما يقوله زكريا ، فهو من مستصنعيه ، زكريا سروره زائد عن الحد ، هل يدرك الزيني أن رجالا كهؤلاء رهن إشارتي ، يتبعونني ؟ ربما بدوا في نظره تافهين لا شأن لهم ، لكن ما أعظم خدمتهم ، جاء المعلم « ابن كيفه » ضخما عريضا ، صوته كالنعير ، مع هذا بدا مرتجفا ، عندما رآه زكريا هجم عليه ، احتضنه مقبلا ، حار الرجل ، أيرد القبلة أم يقف ساكتا في حضرة كبير بصاصي السلطنة ، تردد لحظات أدرك بعدها أنه لو رد التحية الآن لبدت باردة ، أخذه زكريا ، مشيا إلى مقعد رخامي تحت نخلة عالية كسي أسفل جذوعها بألواح رقيقة من نحاس أصفر براق ، سأل زكريا عن أولاد المعلم ، وحال حريمه ، هل تصالح على امرأته الثانية التي أغضبها منذ أربعة أيام وهجرته إلى بيت أمها أم مازالت الفرقة بينهما ، قال بسرعة ، انه سمع بعزم المعلم على طلاقها ، هدا صوته ، تراجع برأسه ، الا يوجد عندك حل غير الطلاق يا معلم ؟ انت تعرف ، أبغض الحلال عند الله الطلاق ، لكنك لو أصررت فلا يمكنني الإشارة عليك بأمر آخر . لم يخف المعلم دهشته وخوفه أيضا . زكريا يعلم كل كبيرة وصغيرة . غرق في خجل عندما مال عليه زكريا ضاحكا . بيني وبينك الحق عليك أنت . يا معلم انت لا تعطيها حقها كما يجب . زوجتك الصغيرة الأخيرة أخذت وقتك كله .. لا يا معلم . لابد من العدل . العدل مطلوب هنا .. آخر مرة ذهبت إليها متى .. آه .. متى ؟ أخبرك انا ، منذ شهرين وأسبوع ، أنت رجل تفهم الدنيا وتزنها على طرف أصبعك ، وتلقى العيب عليها ! تعاظم خجل الرجل . انقلب نعيره همسا وحشرجة . تبدو منهما كلمتان . معك حق ، معك حق ، فجأة قال زكريا : مهمة صغيرة جدا اتمنى إتمامها . غمز بعينه ، فرد أصابعه ، يثنيها واحدا وراء الآخر كلما ذكر أمرا أو مطلبا ، يضيق المعلم عينيه ، يصغي ، تروح التفاتة منه هنا أو هناك ، صوت زكريا هادىء ، كأنه يطرق أي باب للحديث ، قد تهيج روحه بالف

سبب وسبب ، لكنه إذ يبدأ الحديث تصبح لهجته منبسطة كلفظة « صباح الخير » ، حتى لو تناول أخطر الأحداث واكثرها تعقيدا ، ما يريده الآن مجموعة أقوال وشائعات وأحاديث معينة ، تنتقل بين الناس بخفة ويسر ، أصغى المعلم ، قال « بسيطة لك على الا اجعل حديثا على لسان الخلق إلا ما تريد » ، تضيق عينا زكريا « لو خرج ما جرى بينهما إلى مخلوق .. » يسرع المعلم جريئا في مقاطعته .. « اشتمني ولا تقل هذا .. » بسط زكريا يده « أعرف .. اعرف ، المهم الا تظهر القصد في حكايتك ورواياتك » ، ضرب المعلم صدره براحته ، « ابن كيفه يعرف شغله .. » ضحك زكريا « تعجبني يازينة الرجال » قال بعد لحظة « ولا تنس مراجعة نفسك في الموضوع » تساءل المعلم ، اى موضوع ؟ ثم تدارك امره عندما راى الابتسامة الجانبية على شفتي زكريا ، « اى والله ساعمل عقلي يا شهاب .. اعرف ان ابغض الحلال عند الله الطلاق » .. يهز زكريا راسه ، يقطب جبينه .. يضيق عينيه وكان الأمر مفروغ منه « اذهب إليها بقطعة من القماش » بشيء من الحلوى . النساء عقولهن كالأطفال » يؤمن المعلم على كلام زكريا . يتراجع . ينحني محييا . يتبعه مبروك إلى خارج الحديقة . صوته العالي يجيء ملقيا بالسلام . كلما صادف بابا او شرخا في جدار او نبتة زرع يلقي عليه السلام ، الآن يتضح مذاق الشتاء في النهار ،يكسب حصى الطرقات بريقا هينا لينا خفيفا . النبات الغريب . الطيور حبيسة الأقفاص لا تكف عن أحاديثها الغامضة . في الليل تخرس . اما الآن في النهار فتبوح . يدخل إلى غرفته في الطابق الاول . أعدها للمقابلات . رطوبة خفية تسرى في الحشايا الوثيرة المحشوة بريش ناعم . يحلو له ان يخلو إلى رووحه هنا . تلتصق النباتات الخضراء الخصبة بالمشربية من الخارج ، حركة النبات كل ما يسمع هنا ، السقف عال منقوش بالفضة والذهب ، ونقوش أبدعها « الخسرواني الفارسي » بجواره طبق نحاس ، يقرعه بيد قصيرة من الجلد . مرة واحدة . يجيئه « مبروك » لو همس سيده باسمه يجيء فورا كانه يقف الوقت كله منتظرا لحظات اضطجاعه إلى الوسادة عندما تدور الأسئلة بعقله . كم عدد التقارير التى تكتب الآن لتدفع إليه ملخصة في ورقة واحدة ؟ ربما يموت إنسان في هذه اللحظة بعينها . هذه اللحظة بالذات . آه انقضت . حلت لحظة غيرها . مات ، كم إنسان يذكر إسمه الآن ، اى افكار في ذهن الزيني الآن ، الآن تلد امراة طفلا . ماذا سيصبح بعد ثلاثين عاما باى أرض يموت ؟ ربما يطلق ربان مركب صرخة فزع تنبيء بالمصير المحتوم في قرارة البحر الشرقي الكبير ، احيانا والليل مسدل . يحاول النفاذ بعيني عقله إلى أحشاء الظلام . كم رجلا يعلو امراة في المدينة الآن ؟ أعداد لا أول لها ولا آخر . لحظات كهذه يدرك فيها أنه مهما نفذت بصيرته فسوف تظل أمور ممتنعة عليه . لو يجيء زمان . يعرف بصاصوه كم من الرجال يضاجعون حريمهم ، اى اطفال سيسكنون أرحام امهاتهم .

اى طفل منهم سيولد ويكبر ، يثير فتنا وقلاقل . لو عرف هذا لمنع الرجال من اتيانهم المراة التي ستحمل الطفل . هكذا يجتز الشر من جذوره . قبل ان تنبت له جذور . لو اوتي فرعون مصر بصاصا عظيما نفذ إلى حقيقة الطفل الذى القته امه فى النهر . لما عرفت الدنيا نبي الله موسى . ولنجا فرعون وجنوده من الغرق . يثق زكريا من مجيء زمان يعرف بصاصوه ما يدور في بر الشام وهم جلوس فوق المقطم . إذا قارن اساليبه الحالية . هل تشبه ما استعان به بصاص الدولة الأيوبية . بصاص الأشرف قايتباى منذ ثلاثين عاما فقط ؟ الدنيا تتغير ؟ لا يبقى امر على حاله . زمان بمجرد إمساكهم مذنبا يوسعونه ضربا . ربما زهقت روحه . الآن .. لا يحدث هذا .. موت المذنب اخر مطلب ، تتبدل عليه الآلام وهو واع حي . لو غشي عليه فهناك من الأساليب ما تجعله يفيق . كانه صحا من نوم عميق اكثر نشاطا . امور كهذه يجهلها الزيني . وإلا اين نتيجة تعذيبه لسلفه علي بن ابي الجود ؟ تسلمه منادوه منذ شهر . لم يعلن منادوه استخراج درهم واحد منه او تقريره باى ذنب . قيل بين الناس ان الزيني يجهل طرق تعذيب المحابيس ، تهامس بعض الأمراء عن حقيقة ما اشيع حول علي بن ابي الجود ، قال الامير يلبغا الجاشنكير ، إذا ما شنع العامة والسوقة على كبير في الدولة فهل نصدق ما يقال ؟ لا يصح هذا أبدا . تجاهله الزيني . لم يرد على رسالته . فيلذق عاقبة مكروه . تجاهل آلاف البصاصين وهم اطراف جسمه . يسمع بهم ويرى . ينشط الفكر بزكريا إذ يذكر ان كل إنسان يمشي حاملا ملكين ، ملكا يرصد الحسنات فوق الكتف اليمنى ، والآخر يدون السيئات فوق اليسرى ، لا يكفى هذا ، إنما ينتظر ناكر ونكير في القبر ، يسالان ، يستقصيان ويستفسران ، ينتزعان الحقيقة بضرب الميت بهراوات ملائكية لا يعرف ابشع من قسوتها ، كم عدد الناس في الدنيا ؟ لكل إنسان ملكان ، هل يوجد اتباع لناكر ونكير ، لو دفن رجلان في وقت واحد ، فكيف يستجوبانهما ؟ كيف يسالان في وقت واحد ، ناكر ونكير لا يمكن تواجدهما في كل قبر ، الموجود في الدنيا كلها هو الله سبحانه وتعالى ، يطيل زكريا التامل ، نظام عظيم وترتيب أروع ، هكذا تمسك الدنيا كلها فلا تفلت حسنة ولا سيئة ، يوما ما سيخلو إلى نفسه ويضع مطلبا مفصلا بما يرجوه للبصاصين ، ما يتمنى مجيئه من اساليب ، وسائل سحرية تكشف ما يفكر فيه الإنسان ، اخرى تعيد زمنا انقضى برمته لمواجهة إنسان ينكر ذنبا اقترفه ، الآن يقوم زكريا ، يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، يقيس طولها بخطواته ، اربع عشرة خطوة يمشيها متمهلا مطرقا تهاجمه الخواطر فجاة ، يد خشنة تقبض قلبه ، هاهو ذا الزيني يبدا العداء ، حتى الآن لم يخط زكريا خطوة واحدة لهدم الزيني وإيذائه ، الآن مضت فترة ظن فيها استسلام زكريا ، هنا يبدا العمل ، ولو تمادى السلطان في مساندة الزيني ؟ هنا تضيق عينا زكريا ، تسرع خطواته ، يصبح طول الحجرة عشر خطوات ، من الذى

ساند الملك المؤيد شيخ الحموى عندما جاء إلى دست الملك من ؟ الزينى لا يعرف ، السلطان لا يدرى ، من الذى دفع به إلى كرسى السلطنة بعد سجنه زمنا طويلا فى خزانة شمائل ، فى السجن اقسم لو انه خرج ليهدمن الخزانة البشعة ويقيم مكانها مسجدا تتحدث به الأجيال ، وفعلا خرج ، هدم خزانة شمائل ، أقام مسجدا تفخر به القاهرة الآن ، لكن هل يعلم المصلون فيه والفقهاء من الذى ساند الملك المؤيد ؟ من السبب فى بناء المسجد ؟ كتب التاريخ لا تذكر هذا ، إنما الأمر محفوظ فى ديوان البصاصين ، كبير البصاصين هو السبب ، كرسى السلطنة ليس بعيدا عن يدى زكريا ، من هنا يزحزحه ، لو طال العمر بشعبان حتى يقربما بينه وبين الغورى ، لكن الضرورة أوجبت قتله ، كان قمرا ، لكن لابد للأقمار أن تغرب وتمضى ، اليوم سيرسل زكريا فى إحضار المشرف على أبراج الحمام الزاجل ، نظام دقيق استحدثه يتفاخر به على البصاصين فى أنحاء الدول والإمارات ، كل حمامة تعرف أى الطرق تسلك ، لا تطير فوق بيت فيه إنسان ، فوق قافلة فى الصحراء ، إنما تعبر الخراب إلى أهدافها ولو طال بها الزمن ، اليوم ستطير الأسراب ، ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات ومشايخ البلاد ، حتى العامة من الناس الذين خدعوا فى الزينى ، أى خطأ أتاه السلطان عندما وَلَّىَ على أمة الإسلام فى مصر رجل لا يعرف له أصل ولا فصل ، لم يره أحد يصلى جماعة فى يوم جمعة ، يظهر العدل ، ولا يعرف أحد ما فى عقله ، أبطأ فى استخراج أموال على بن أبى الجود ، ومن يدرى ؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد فى أذية الخلق ، ستطير الأسراب إلى بيت الأمير طغلق شادى العمائر ، وبشتاك المعروف بين الناس بفول مقشر ، فتنة واحدة بين طشتمر وخاير بك لا تكفى ، سيعلم طغلق أن بشتاك فول مقشر يحط من شأن المسجد الجديد الذى بناه للسلطان فى سوق الشرابشيين ، فى نفس الوقت يعرف بشتاك أن طغلق يضحك عليه ، يقلده ويلمح إلى بشتاك فى التشبه بالأمراء المقربين جدا من السلطان ، يقول عنه ، هذا رجل محدث نعمة ، الآن يبتسم زكريا . خطواته تسرع . سينتفخ فم طغلق يرمى زبدا أبيض . يسلط كل منهما مماليكه على الآخر . تضطرب أحوال الناس ، ترفع البضاعة من الأسواق . يكثر النهب . يقوم عدد من اشداء البصاصين بخطف عدة أبكار وغلمان ، الآن يتوقف زكريا عن الرواح والمجىء . يمضى النهار وادعا يكاد يسمع سريانه فى الفراغ . ما أحب الشتاء إليه . امسك المطرقة الجلدية . خبط الطبق النحاس . مرة واحدة لها رنين .

★ ★ ★

مساء الثلاثاء سابع ذى القعدة

نـــــداء

يا أهـالى مصـر
نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر
نعبد ونسجد ونحمد
من اذل كل لئيم متجبر
يا اهـالى مصر
البشرى لكم
يأمر مولانا السلطان
بعد اطلاعه على أوفى بيان
رفعه الزينى بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلى
وشرح فيه حقيقة الأحوال
وما يمس العباد من الرعية الفقيرة
تلغى الضريبة على الملح
وتطلق يد التعامل فيه
من بعد أن كان حكرا على القلة القليلة
يا اهـالى مصر
يأمر مولانا السلطان
بعد أن أطلعه الزينى بركات على حقيقة الحال
برفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنبر
وسائر أنواع الخضار
وان يبيعه الفلاحون فى الأسواق بلا وسيط
حتى تنحط الأثمان
ومن يضبط حارسا أو مملوكا
من القراصنة أو الجلبان
يتقاضى ضريبة على حمولة خيار او خضار
عند اى باب من ابواب القاهرة
يشنق بلا معاودة ..

★ ★ ★

من نداء طاف به المشاعلية مساء نفس الثلاثاء ، سابع ذى القعدة

يأمر مولانا السلطان
بعد أن أطلعه الزينى بركات بن موسى
متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى
على الأحوال
ألا يمشى مملوك ملثما بعد المغرب فى الطرقات
وألا يدخل مملوك بسلاحه الحارات
بعد العشاء

★ ★ ★

من نداء غير عادى شهره رجال الزينى مساء الثلاثاء ، سابع ذى القعدة ، بين الناس الذين نزلوا الطرقات يسمعون بفرحة ما ينشر وما يقال :

بعد الاطلاع على رأى الشريعة
واستشارة أهالى الرأى والمشورة
والبحث فيما مضى وانقضى
يأمر الزينى بركات بن موسى
متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى
بإبطال عادة نعى الموتى بدق الطارات
ومن ضُبطت تدق طارا على ميت
تشهر بغير معاودة .

★ ★ ★

نداء أعقب السابق مباشرة :

خصص الزينى بركات بن موسى
متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى
بابا من أبوابه
لتلقى المظالم ..
كل من وقع عليه ظلم
من أى كبير أو صغير ..
فليتوجه إلى الزينى بركات
لإسترداد ما ضاع من حقه

(عنوان رسالة ، وصلت إلى دار زكريا بن راضي ، مع رسول خاص من رجال الزيني) :

« والتين والزيتون . وطور سينين وهذا البلد الأمين » .
إلى كبير بصاصي مصر . ونائب الحسبة الشريفة .
الشهاب زكريا بن راضي له السلام ..

★ ★ ★

نداء في ليلة الثلاثاء ، نفس الوقت الذى وصلت فيه الرسالة إلى زكريا :

من الآن فصاعدا
ستعلق فوانيس كبيرة تضيء بالشحم
هندسها وسواها
الأمير طغلق شادى العمائر
بعد استماعه إلى رأى الزيني بركات
متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي
على كل باب حارة
تحت كل منزل وقصر
أمام كافة الوكالات
ستعلق الفوانيس الجديدة
وسيقوم رجال الزيني بإضاءتها كل ليلة
وبمعرفتهم
حتى تنام القاهرة آمنة
وحذار أن ينزع مصباح من مكانه
وإلا جوزى وعوقب أصحاب المكان
يا أهـالى مصـر
لن يكلفكم الأمر درهما
فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة
يا أهـالى مصر
يا أهـالى مصـر

★ ★ ★

يأمر مولانا السلطان باستمرار زكريا بن راضي نائبا للمحتسب كما كان في كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقب « الشهاب » :

يا أهـالي مصـر
يا أهـالي مصر
اهتموا . اعتنوا بالفوانيس الجديدة
ومن يضبط مخالفا لأوامر ناظر الحسبة
شنق بغير معاودة ..

★ ★ ★

من عمرو بن عـدوى

إلى مقدم بصاصى القاهرة
تقرير في وصف ما دار وما جرى
بين العامة والناس . ليلة الثلاثاء
سابع ذى القعدة ..

أجمع العجائز . وكتبة الدواوين . والقضاة ، والمطلعون على حقيقة ما جرى خلال الأزمان الغابرة أن ما شهدته القاهرة ليلة الثلاثاء سابع ذى القعدة لم يحدث من قبل قط . لم يعرف مثيله فى بلد آخر . سمعت هذا باذنى من مجاورى الأزهر . وعجائز زاوية الحلوجى وتجار الغورية والباطنية . والحلاقين الجالسين أمام باب المزينين . وزاوية العميان . بجامع الأزهر . إذ لم يحدث طواف المنادين من قبل . كل نصف ساعة . يتقدمهم طبل ، وفى كل مرة ينقلون أمرا أو خبرا جديدا إلى الناس . ولكثرة ما قالوه من نداءات لم يكرر نداء واحد قط مع أن العادة جرت من قبل أن يردد النداء السلطانى أسبوعا كاملا خمس مرات يوميا إلا فى حالة وقوع حدث مهول ، رأيت الزحام عظيما ، خرجت الباطنية برجالها ونسائها أجمعين ، النساء يطلقن زغاريد وأيد تلوح وحناجر تزعق ، وتفاوت كلام الناس ، وحتى لا اطيل وأكرر ، أجمل ما سمعت كما يلي :

أولا : كثر الدعاء بعد النداءين الأول والرابع ، للزينى بركات ، وكثر الكلام الطيب من سائر الأفواه ، خاصة النساء ، اللواتى رحن يهتفن ويهرجن . ويصحن « أدام الله أيام الزينى » ، وأجمعن على معرفة الزينى بما يقرص أبدان الناس وارواحهم من مواجعهم لأنه ليس متعاليا ولا متغربا . إنما يعرف أحوال الخلق ويقشعر جسمه

لذكر المظالم . يانف تعذيب الإنسان ، ويركع الصلوات في أوقاتها . قال الرجل (وهو بائع هريسة متجول ، اسمه شمس الرمضاني ، ويسكن اول ربع في حارة الروم الجوانية عمره فوق الأربعين ، لحيته بيضاء ، أعرف مكانه) انه يرى الزيني ينزل متخفيا في النهار والليل يتسمع أحوال الناس ، يجس ما يؤلمهم ، وإن الله أرسله في هذا الزمان نصيرا للفقراء ، وقال انه يعرف خادما في بيت الزيني بركات يقول ان سيده يبكي طويلا قبل نومه لعلمه تماما أن الليل يرخي سدوله على حزانى مظلومين ، الزيني يتعذب كثيرا بسبب هذا ، يطلب من الله السماح في الدنيا والآخرة لأنه لا يمكنه إزالة كل ما يقع من مظالم ، واشيع بعد النداء الرابع طلوع الزيني بركات إلى السلطان وخلوه به فترة طويلة ، قال فيها للسلطان ، انت مسئول عن هذه الرعية أمام الله تعالى يوم القيامة وسوف تحاسب انت وأحاسب أنا على كل ذنب ارتكب علمناه أو جهلناه ، اين نروح يومها من جبروته ، أصغى السلطان طويلا إليه ، كان حديث الزيني مشفوعا بايات قرانية وأحاديث نبوية ، ونصوص من متن لا يجيدها إلا افقه العلماء (قال التجار انه يحفظ القرآن كله وله شرح مخطوط لم يطلع عليه احد) ، تحدث الزيني عن الأمير شاربك ، واحتكاره للملح في بر مصر كله ، وانه الوحيد الذى يتجر فيه ، إذا ضبط إنسانا غلبان يبيع بنصف درهم ملحا يعاقبه بقطع ذراعه اليمنى ، واليسرى إذا كانت اليمنى قطعت من قبل أو ساقه اليمنى إذا سبق قطع الذراعين ، واليسرى إذا سبقتها اليمنى ، او يحضر ابن المخالف أو اخاه أو أمه او اباه إذا وجد بلا اطراف ، احتكار شاربك للملح جعله يزيد في سعره كما يشاء ، أحيانا يعتدل مزاجه فينزل بالثمن إلى الحضيض ، إذا شط مزاجه وغضب شهر المناداة برفع السعر ، هذا لا يضر إلا بالرعية نفسها ، قال الزيني : الناس لا يجهرون عندئذ إلا بالدعاء على السلطان نفسه وأظهار النقمة عليه والغيظ منه ، قال الزيني الأمر ادهى وأفدح خطرا بالنسبة للخيار ، لأن الأمير طغلق حرج على أحد المتاجرة فيه أو بيعه أو شرائه إلا عن طريق نوابه ، واكد التجار أن الزيني أجرى الدمع من عيني السلطان حتى أطلق السلطان يده فيما يشاء ، بشرط الا تنخفض مالية البلاد درهما واحدا ، السلطنة احوج ما تكون للفلوس هذه الايام بعد انقطاع عديد من الموارد ، أبدى الزيني مقدرة على تحقيق هذا . بعد نشره النداءات تعالت الشتائم ضد الأمير طغلق ولو طالته الايدي لقطعته حتتا ، كما جهر البعض بهذا ، لعن العامة أجداد الأمير شاربك وكثر الدعاء عليه ، وحدث أن رمى بعض الفقراء نقوطا للمنادين إظهارا لفرحتهم وبهجتهم ..

ثانيا : سمعت بأذني ثلاثة رجال يتحدثون في قهوة (لانضي) ، أحدهم أعرفه واسمه فتوح الاسكندراني من سكان باب الشعرية ، عنده معصرة زيوت ، وله من

العمر خمسة وخمسون عاما ، يقولون كلاما له طعم آخر ، إذ أبدى فتوح الاسكندرانى شكا وريبة فى نداءات الزينى ، قال فتوح ، الأمر لن يستمر على ماهو عليه ، السلطان لن يسمح باستمرار الأمور هكذا ، إلا .. إلا إذا احتوى الأمر غرضا يتفق مع مصالحه ، وبذل جهدا فى إقناع الحضور ، أكثر من إشارة يديه ، بادرت إلى نكشه محاولا استخراج ما فى رأسه ولم يخرج حديثه مع صحبه عن هذا ، وفى مقهى آخر صاح رجل اسمه أبو غزالة فى مصبغة بحارة الميضة « حقا .. ومتى كان أحد الحكام يظهر العدل ؟ »

ثالثا : قرب سوق التربيعة حيث يكثر تردد النساء على محلات التجار الشوام هناك ، تساءل الرجل عن مغزى منع النساء من دق الطارات حزنا على الموتى ؟ أجمعت آراؤهم على حق الزينى بصفته محتسبا فى منع هذه البدعة ، لكن الأمر الأخطر من هذا ، الأكثر فداحة ، ما يخص الفوانيس ، قال عبد الحميد رئيس طائفة السقائين فى القاهرة (ومجلسه دائما عند هؤلاء التجار) ، قال هذه بدعة ما يصح نشرها فى أمة الإسلام ، وقال أحد المجاورين فى نفس الموضوع (اسمه جاد الله ، صعيدى يسكن رواق الصعايدة) يريد الزينى إدخال بدعة جديدة تنسب إليه ، قال آخر ربما أخذت البدعة البركة من الناس ، كثر الحديث عن تعليق المصابيح ، قال آخرون ، ربما منع هذا هجوم المنسر فى الليل ، وأجيب على هذا بسؤال ، هل يمنع الضوء هجوم المنسر ؟ يعنى إذا قصد المنسر أو المماليك الهجوم على حارة من الحوارى فهل يمنعهم هذا ؟ سيكسرون المصابيح وينفذون ما بأغراضهم ، قال اليهود مادمنا لن ندفع درهما لا بأس ، وقال بعض المشايخ ، لم يظهر من الزينى إلا الخير فلابد من احتواء الأمر الجديد على نفع ، وبعد انتهاء المنادين من الطواف خرج رجال الزينى طلعوا فوق سلالم خشبية يدقون المسامير الكبار فى الجدران ، يربطون إليها الفوانيس ، ثم يشعلونها وعند انبعاث الضوء منها يهلل الجميع ويزعقون « هيه » .. دامت الفوانيس ، « هيه عاشت الفوانيس » الفوانيس ، الفوانيس ولم تنم القاهرة فى هذه الليلة بسبب ذلك ..

رابعا : أثناء دخولى جامع الأزهر عند الفجر ، رأيت طالب العلم الأزهرى ، سعيد الجهينى (ذكرته مرات من قبل) يجلس بين جمع من الطلبة ، كان يكثر من هز قبضته ، على وجهه غيظ ، وعدم رضاء وكمد وحقد دفين ، وكلهم مصغون إليه ، ألقيت السلام ، وروعت إذ وجدته يشير إلى أمر لم يتردد على ألسنة الناس قط ، لم أسمعه من مخلوق ، سعيد الجهينى يعلق على ما جاء فى النداء الخاص بالفوانيس بإقرار الشهاب الأعظم زكريا بن راضى نائبا للمحتسب ، تركز كلامه فى الآتى :

١ ـ وقوع قهر على الزيني بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائبا للحسبة .

٢ ـ إنه عليم بالزيني بركات وتأكده عن عدم رضائه عن القرار .

٣ ـ كل ما أذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن أخطر ما في الأمر وهو إقرار الشهاب الأعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه .

٤ ـ قال بالحرف الواحد الجمل التالية :

« بدأت الأمور تضطرب »

« هذا فأل سيىء »

« اللهم نجنا واسترنا »

وحتى كتابتي هذا لا يكف عن التنقل بين المجاورين يجهر بنيته في الطلوع إلى شيخه أبي السعود ، شارحا له الحال ، طالبا تدخله في الأمر ، وهو مستمر في سب الشهاب الأعظم بأنتن الألفاظ ، وأقبحها .

خامسا : خطب بعض الوعاظ ، وحطوا في حق الفوانيس ، من فوق منابر المساجد ، وسخر الشعراء في المقاهي من الأمر الجديد ، وألفوا شعرا قالوا فيه :

« الحق يا متعوس ، وإلا علقوا لك فانوس » ..

نــــداء

الجمعة ، عاشر ذى الحجة ، ٩١٢ هـ

ياأهـالى مصـر
نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
اليوم ، قابل السلطان
قاصد ملك الحبشة
وقاصد ملك البنادقة
أنعم على كل منهما بخلعة
كاميلية محمل ، بفرو سمور
ياأهـالى مصـر
وقعت قطيعة مفاجئة
بين الأمير بشتاك فول مقشر
والأمير طغلق شادى العمائر
لأن البشتاك شنع على المئذنة
الجديدة فى جامع السلطان
قال ، بها بعض الميل

★ ★ ★

سعـيد الجهيني :

هذا زمان الحيرة وسيادة الشك وفناء اليقين ، تغيب التفاصيل ، تطغى رغبة ، أه لو هج في بيداء لا أول لها ولا آخر ، لا عرض لها ولا طول ، ينحل شعره ، يبلى جسمه ، ربما عرف ما غاب عنه ، ما هجره ، ما كساه السحاب ، ما تقنع بالضباب ، كيف يفنى عمره ، يذوب وجده في عشق لا أمل فيه ، زاده .. شعوره بوجودها في بيت لا يطرقه كل أسبوع إلا مرتين ، إنما يتمنى رؤيتها ، تطلع الشمس من الشرق ، تنزل الغرب ، كم تبعد السماء الأولى عن الثانية ، عن الثالثة ؟ هل تقاس المسافة بالطول أم الزمن ؟ كم تبعد النجوم عن الأرض ، وأى سلاسل ضخمة تربطها ، تمنعها من السقوط ، وهذه النجوم التى تهوى أهى أرواح شريرة مطرودة من الجنة ؟ تبدو لحظات في العتمة ، تضيع فلا تصل الأرض ولا تستقر في سماء ، حتى ذيول اللهب التى تسحبها تمحي كحلم ثقيل ، كيف لا تطغى البحار على اليابسة ؟ كيف يمتلىء النيل ويفيض ثم ينحسر من جديد ؟ عندما ولد الزينى بركات هل درى بما كتب في لوحه المحفوظ ؟ يوما سيصبح محتسبا ؟ سينتظره رجل إسمه زكريا ، كيف ، كيف ، كيف يقبل استمرار زكريا بن راضى نائبا له ، يحيط الحسبة بأعتى البصاصين ، أكثرهم مقدرة فى بث الرعب والخوف ، في حجارة المبانى ، في الطيقان ، الزوايا ، فوق وسائد النوم ، ومآذن المساجد ، في أرضية محراب الصلاة ، هل ضل عندما ذهب إلى بيت الزينى ليصحبه إلى كوم الجارح ، لكنه مازال يعلن ، من له مظلمة فليطلع عنده ، ويوميا يتردد على بابه كل صاحب شكوى ، الناس لا يقصدون إلا هو ، عطل أبواب الأمراء والقضاة ، حتى أشيع أن الزينى ينوى الجمع بين القضاء والحسبة ، ورد الزينى على هذا بركوبه بغلته وتوجه إلى جامع الأزهر لصلاة الجمعة ، خطب في الناس نافيا كل ما يتردد عنه ، قال إن الحسبة تقتضى منه وعيا ويقظة ، فهل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى ، هلل الناس له ، كبروا ، حاولوا تقبيل عباءته ، نتر فيهم الزينى وأبدى غضبا وغيظا ، لحظتها أطبق الهم على ضلوع سعيد ، رأى الشهاب الأعظم زكريا بن راضى ، أول نواب الزينى ، يمشى وراءه ، يتشح بعباءة زركش صفراء وعمامة عادية بلا علامات ، ياقوته حمراء فقط تتوسط رباط الشاش المحيط بها ، شكا إلى منصور صاحبه وزميله في الرواق همه ، قلق منصور ، الأروقة تشغى من جديد برجال زكريا ، بمستصنعيه ، لابد من التزام الحذر فى الكلام ، سعيد لا يجهلهم ، يسمع خطاهم الخفية وراءه ، انسلالهم من الهواء ، تنفذ إليه نظرات عمرو بن العدوى ، عمرو اشترى عباءة جديدة ومركوبا ، أشيع أنه يذهب إلى امرأة فى بيت « أنس » يشترى لها اللحم ، والخضار والسنبوسك ، سعيد يود لو يجالسه بقلب صاف ، ما الذى يدفعه إلى رفع كل آهة

وهمسة إلى زكريا ؟ لكن كيف يصل به الفكر إلى هذا ؟ صاحبه منصور لم يظهر ضيقا بزكريا ، قال : الزيني لا يتحكم في الأمور كلها ، هو جديد على المنصب ، ورجل مثل زكريا لا يستهان به ، ومستحيل تجاهله ومن يدري .. ربما هذه خبطة واعية من الزيني ، حتى لو عزل زكريا فهو خطر كامن كالحفرة المموهة ، يمسك بأسرار السلطنة والأمراء فهل يصطدم به الزيني أم يضمه ويحتويه .. لم يقل سعيد حرفا ، أي الأمور اصح ، رأى كل أمر في الدنيا يسلك طريقا لا حيدة عنه ، طريقا ملتويا ، عليه ضباب ، دخان كثيف ، منصور ينتحي ركنا في مقهى « لانضي » يمد يده ، يسوي الدخان فوق حجر الجوزة ، يغرق في لب الدخان ، خلاصة النجاة من الأحزان ، حبيبته النائية تدنو ، يفتح ذراعيه ، يحتويها ، تتقرب إليه ، تجثو عند قدميه ، يهاجر الى أرض واق الواق ، يغزو جزر النساء ، يرى الزيني رسولا منزلا ، وزكريا تابعه الأمين ، يحمي الأمن ، يقصي البلاء ، يدفع الفتنة ، منصور يقول قبل هجرته الى دنيا النسيان ، لا امر يعنيني فلماذا أشغل نفسي ، كتبت على سنين أعيشها في الدنيا ، والدنيا فانية ، فلأنهل من ينبوع اللذة ، أسلك طريق السلامة ، ولا أكون خفيف العقل ، فأتشنج لحظة ، وأتقلص لحظات ، يدعو سعيد الى رفقته فهو يشعر بالوحدة لحظة هجرته الى عالم الغيب الأزرق حيث الحور والولدان ، يضيق سعيد ، يمضي خارج دكان « لانضي » الطرقات تضيئها الفوانيس ، حتى الآن لم يحسم أمر الفوانيس ، فتنة توشك على الاندلاع بسبب الفوانيس ، أهو مع تعليق الفوانيس أم ضده ؟ لا يدري ، لم يطلع الى مولاه منذ أربعة أيام ، آه لو يرحل الى الصعيد ، يرمي عن كتفيه ما ناءتا به منذ سنوات مجيئه الى الأزهر ، آه لو يمضي الى جامع الحسين ، يشد عمره الى الباب الأخضر ، لايفارق الحبيب ، يتلو الأذكار ويناجي الشهيد ، آه لو يمضي الى سماح ، ينزع خمارها ، يضمها كنزا غاليا وطلسما وشعرا لم ينشد مثله وجنة ضائعة ، لكنها سراب ظامىء لايدري مايفعل ، سماح مسخت النساء كلهن فلم يعد إلا هي ، ما عداها أرض خراب ، الأمان في بعدها عنها ، تحرقه الرغبة ليالي ، يتقد فراشه في الرواق بنيران هادئة لا تخبو ، يحاول معرفة ما يجري في بيت « انس » دخول الرجال ، انتقاؤهم مايريدون ، لا يعرف الرجل اسم من ينام معها ، قال منصور : في أول مرة سألت البنت عن إسمها ، فضحكت مني ، قالت راوية وعرفت أنه ليس اسمها ، آه لو يذهب الى بيت أنس ، ألا يستطيع ؟ سماح لا تتجرد من ثيابها في مخيلته أبدا ، لا يجرؤ على رؤيتها مضطجعة في وضع مثير ، أحلم هي ؟ لا يذكر لون عينيها ، مذاق نظراتها ، ملامح وجهها التي تجعلها سماح ، وليست إنسانة أخرى ، من أعوام كان سعيد صفحة بيضاء لم يجر فوقها المداد ، لم يخدشها سن قلم ، تمتلىء الدنيا أمامه بالحروف ، الآن ، علامات التعجب والاستفهام ، ألف سؤال حائر بلا هداية ، الدنيا كلها سؤال لا أول له ولا آخر ، باق مخلد في مخطوط عتيق تهرأت أوراقه ، متآكل الحواف ، كشطت حروفه .

« قسم خاص »

به « نتف » مما قيل بشأن واقعة الفوانيس .

١ — جزء من خطبة الجمعة التي ألقيت من فوق منابر المساجد ، آخر ذى القعدة ٩٠٩ هـ ، وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبهم .

« ياأهل مصر ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لايستحي العالم إذا سئل عما لايعلم أن يقول لا أعلم » نقول هذا لمن أحلوا تعليق الفوانيس ، أمام البيوت والدكاكين يدعون العلم بالتواريخ والأحداث التي جرت وينقصهم القول بما سيجيء ، هنا ندخلهم في زمرة الكافرين ، قالوا سبق لعديد من الأمم أن علق حكامها الفوانيس في شوارعها ، فهل ذكروا لنا مثلا بعينه ؟ أهل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس ؟ وفي رحلتي الصيف والشتاء الى الشام واليمن هل أضيء طريقه بفوانيس صنعها بشر ، نقولها عالية ، نقولها بلا حرج نقولها ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدعون العلم بالحكم التاريخية ، والأحاديث النبوية ، والمتون الخفية ، والأصول المرعية ، وهم جهلاء يخفون جهلهم ، نقولها ولا نهاب لا نخاف ، لا نخشى ، ياأهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس من قبل ، لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عن عورات الخلق ، والفوانيس تكشف عوراتنا ، خلق الله ليلا ونهارا ، ليلا مظلما ، ونهارا مضيئا ، خلق الليل ستارا ولباسا ، فهل نزيح الستار ؟ هل نكشف الغطاء الذي أمدنا الله به ؟ هل نتطاول ونبدد سواد الليل من كل شبر في المدينة ؟ هذا كفر لا نقبله ، هذا خروج عن الحد لانرضاه ، ولولا اقتناع الكل منا بسلامة نية الزيني بركات لقلنا أنه يقصد ما يقصد ، لكنه منذ استلامه أمور الحسبة لم يبدر منه إلا ما هو خير ، ولن تحول الفوانيس ثقتنا عنه ، لن تشككنا فيه ، ياأهل مصر توجهوا الى بيت الزيني بركات بن موسى أفرادا وجماعات ، زرافات ووحدانا ، قوموا اليه ، الى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك السر ، وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء ، قوموا اليه ضارعين متشددين ، راجين حازمين ، لا يرجعنكم لين حديثه عما انتويتموه ، لا تغيبوا عن مقصدكم ، الفوانيس علامات آخر الزمان ، من علامات دنيا تخرج عما رسمه البارى عز وجل ، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى الى الزيني بهذا ، بحرقه ، برجمه ، هؤلاء الجهلاء دعاة العلم ، آه من يوم تسود فيه الفوانيس اللهم قنا شره ، اللهم ابعدنا عنه ، اللهم لا تمد أجلنا حتى نراه .

(وهنا تعالى بكاء الناس في الجوامع ، وزعق بعضهم ، اللهم اهدم الفوانيس ، اللهم اسحق الفوانيس) .

* * *

فتوى قاضى قضاة مصر :

« الفوانيس تذهب بالبركة من بين الناس »

* * *

أول محرم ٩١٣ هـ

قاضى الحنفية يقول رأيا مخالفا :

الفوانيس تطرد الشياطين ، وتنير المسالك فى الليل للغرباء ، وتمنع مماليك الأمراء والمنسر من الهجوم فى الليل على الخلق الأبرياء .

* * *

قاضى القضاة بالديار المصرية :

« خرج أحد كبار العلماء عن الحد ، خالف الأصول ، ونفى الفروع ، بانحيازه الى صف الفوانيس » .

* * *

« الأمراء الكبار يطلعون الى القعة »

« مولانا السلطان ، تسبب تعليق الفوانيس بجميع الحارات فى تشجيع حريم العامة على النزول بعد العشاء والتجول فى الطرقات ، والسهر أمام الربوع والأسواق وهذا مخالف للحشمة ، وخادش للحياء » .

« خاير بك »

* * *

« العيال الصغار لايرجعون الى بيوتهم الآن مبكرين .. إنما يبقون فى الشوارع ساعات ينشدون ويغنون ، وأحيانا يقلسون ويرجمون مماليكنا بالحجارة ، ويتبادلون قبيح الألفاظ » .

« قوصون »

* * *

« مثل هذا الأمر لا يبتدعه إلا إنسان يبغى نشر الفتنة .. والفجور »

« طغلق »

* * *

« إنارة المدينة ، وسهر الأهالى على ضوء الفوانيس أمر جارح للهيئة ، ومهين للسلطنة »

« قنبك »

الزينى يرسل رجاله أول الليل ، يطلعون فوق السلالم الخشبية لينيروا الفوانيس وينظفوها ، كما ما يقول ، لكنهم يامولانا ويا أمراء ، لا يقومون إلا بالتجسس على الخلق ، وعلينا ، يهتكون حياة الناس داخل بيوتهم »

« طشتمر »

* * *

« هذا حق .. هذا تمام .. »

« كافة الأمراء »

* * *

«قاضى القضاة عبد البر » :

« سجل قاضى الحنفية سابقة خطيرة لم تحدث من قبل ، خالف رأينا ، قال .. لا .. وهذا حدث مهول »

* * *

رواق الصعايدة :

ابدى بعض المجاورين إستحسانا لرأى قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، قالوا إن رجلا مثله لا يمكن ان يشغل روحه بالفوانيس إلا إذا عظمت اهمية الامر ليس كما يتهيأ للبعض ، قال سعيد ، تبالغون فى الأمر ، اشار الى الطرقات الكبيرة فى مدينة القاهرة ، وإضاءة دكاكينها طوال الليل ، هنا قال احد المجاورين : كلام غير صحيح ، الدكاكين تغلق بعد العشاء ولا ينتصف الليل إلا والكل فى بيته نيام ، علا صوت سعيد ، ايكره أحدكم إضاءة الحوارى والبيوت حتى يأمن الناس على أرواحهم ؟ مايريده الأمراء أن تبقى العتمة حتى يعبث مماليكهم كما يريدون ، علا صوت عمرو بن العدوى .. بالضبط مايقوله سعيد صحيح ، قال مجاور شامى « أنت ياسعيد تخالف دائما » قال مهتاجا ، لا أخالف إلا ما أراه خطأ ، تساءل مجاور نوبى ، وهل يخطىء قاضى القضاة ؟ مال منصور الى سعيد ، يخالفه الرأى ، ما الداعى لبدعة الفوانيس ؟ الا يوجد من أمور الناس ما هو اهم منها وأجدر بعناية الزينى واهتمامه ؟ ثم بصراحة ياسعيد هذه البدعة لاتزيد الأمور إلا فسادا ، أطرق سعيد ، من يدرى ، ربما تضمنت بدعة الفوانيس اغراضا تغيب عن عينيه هو ، تساءل المجاور الشامى ، الناس تقيم الدنيا وتقعدها ، لكن هل جرؤ كبير أو صغير على إزالة الفانوس المعلق أمام داره ، صاح مجاور من منفلوط ، يهابون الزينى ، قال عمرو « بالضبط » سخر منصور ، أيخشاه اتابك العساكر نفسه ؟ قرص سعيد طرف شفته العليا ، آه لو يقول لهم ، بدلا من إنهاك أرواحكم أرقبوا مايفعله زكريا ، كيف فرض نفسه على الزينى ، لكن .. أحقا فرض نفسه ، من يدرى ، ربما جاء المنصب برضاء الزينى ، قال عمرو بن العدوى ولكن الحكاية ليست حكاية فوانيس .. أبدا .. »

* * *

هتف الخلق فى الجوامع والطرقات ،

لعن الله الفوانيس

لعن الله الفوانيس

□ □ □

سـعيد الجهيني

من قبل ، سعى اليه ، بعد الفجر صحبه الى الشيخ أبي السعود ، هاهو ذا البيت ، البوابة مفتوحة ، لم يزد الزيني في بنائه ، من حقه كناظر للحسبة الانتقال الى بيت أكبر ، لكنه يبقى هنا ، أمام البيت يقف رجل نوبي يرتدى القميص الأخضر ذا الياقة والأكمام الصفراء ، أمر جديد ابتدعه الزيني بالنسبة لنوابه ورجاله في الطرقات التابعين له ، لباس واحد ، في الناحية الأخرى يقف خلق كثيرون ، يمتد الصف بهم حتى يخرج من الباب الآخر للبيت المطل على الطريق الخلفي ، تساءل النوبي : هل تبغي مقابلة الزيني بنفسه ؟أكد سعيد ، نعم ، غاب الرجل عنه ، أصوات أصحاب المظالم خافتة برغم عددهم الكبير ، إذ يلتقي بالزيني يفتح له قلبه ، سيقول له أعانك المولى على احتمال ما تتعرض له ، عندما مشى بجواره في هذه الليلة البعيدة ، لم يقل الزيني كلاما كثيرا ، لم يخض في تفاصيل ، لو رآه الآن ينقطع الحديث بينهما ، سعيد يقول له ما مهد الشك الى قلبه ، الزيني يذكر كافة ما يضايقه ، ما يتطلبه منصب الحسبة ، ما يجنيه من كلام الناس . عاد الرجل النوبي ، نزل الزيني من البيت أول النهار ، ربما رجع بعد العصر ، وكأن سعيد توقف فجأة بعد جرى ، تساءل ألا تعرف أين ؟ قال النوبي ، للزيني جولاته التي لايعرفها انسان ، ليطمئن على الناس ، لكنني أعرف مهمة واحدة من مهامه اليوم .. كما تعرف هناك وقيعة بين مماليك طشتمر وخاير بك ، ناحية حارة الجوانية ، انتهزوا فرصة الخناق ونهبوا عدة دكاكين في الخط .. والزيني قصد الحارة لاحصاء المال المنهوب وما لحق الناس من أضرار ، ورفع الأمر الى السلطان ، وتساءل سعيد .. متى جرى هذا ؟ قال النوبي معجبا ، طوال الليل ، كيف حدث ما حدث وسعيد لم يصله خبر ، ربما لبقائه في الدرس حتى الظهيرة ، لكن ألم يصبح الصلح وشيكا بين طشتمر وخاير بك ؟ هز النوبي رأسه ، أبدا ، بعد أن اتفقا على ضرورة التخلص من الفوانيس كبقية الأمراء ، قال خاير بك[٩] ، لا أتفق مع طشتمر أبدا ، وعندما بلغ طشتمر هذا .. صاح .. أيحقرني والله لأقلبنها فوق رأسه . فجأة علت ضجة ، فلاحون وجوههم معفرة ، عيونهم تطير هنا وهناك لا تستقر على حال ، رأى سعيد أطفالا صغارا في قريته البعيدة ، رءوسهم ضخمة ، رقابهم نحيلة كالعيدان ، يمضغون تراب الطريق ، عيونهم أوطان للذباب ، وجد نفسه يحمد الله لأنه لم يخلق فلاحا يشقى في الغيط ، في رفع الماء من الترعة الى القنوات ، تفرض عليه الأتاوات ، يجلده الكشاف ، يسعى الى المدينة ليجهر بالشكوى ، لايرجع الى عياله أبدا ، لم يقطع مايفكر فيه إنما تمادى حتى تساءل ، كيف حالي لو خلقت فلاحا ؟ سأله البواب النوبي بعد لحظات صمت ؟

« لكن ما الذى تقصده من مقابلة الزينى ؟ » أكد ان نائب الزينى الموجود حاليا يمكنه الاصغاء الى ما يقوله ، قال سعيد « الزينى يعرفنى لابد من مقابلته هو » ، سعيد لايشي بأحد لكن أمامه أدلة وقرائن تثبت أن برهان الدين بن سيد الناس ، تاجر الفول صاحب عدة مراكب في النيل ، ومكامير في منية ابن خصيب ، برهان منذ مدة يشترى الفول من الفلاحين ويخزنه عنده ، انشأ من الصوامع ما يفوق الحصر والعد فى ساحل اثر النبي بمصر القديمة ، يبرطل على عدد من كبار الأمراء ليفوز في نهاية الأمر باقرار شرعي من السلطان يقضي باحتكاره الفول ، هذا يعيد بلية قديمة يعمل الزينى على إنهائها وهي احتكار فرد بعينه أو مجموعة ناس لصنف معين من الخضار أو البقول أو البضائع ، فما بالك والأمر يهم الخلق أجمعين ، ماذا لو طلعت فى دماغ برهان الدين بن سيد الناس ؟ يمنع الفول عن الأسواق حتى يعز وجوده ، والحق إنها حادثة لم يسمع لها مثيل ، لم يحاول تاجر من قبل احتكار بيع الفول في مصر ، لن يسكت الزينى ، تساءل سعيد : ايقلقه الأمر فعلا ؟ أم ينبغى التأكد من عدل الزينى ؟ الحق انه لايدرى الآن ، يعبر طريق أمير الجيوش ، المطارق تنهال فوق النحاس الأحمر ، تشكله حللا وأباريق ، مكارى ربط حماره الى وتد بالطريق قعد بجواره يمضغ رأس فجلة وخبزا ، ها هو ذا دكان حمزه بن العيد الصغير يرتاح الى الجلوس فيه لايعرفه مخلوق هنا ، يخلو الى روحه تماما ، حتى منصور صاحبه يبتعد « أهلا .. أهلا .. يانهار الفل » ترحيب دافىء من حمزة ، يرده برفع يده ، بسط راحته فوق صدره ، طلب جوزة ، في الأنفاس الأولى يشعر بدوار خفيف لطيف مع خلو الكرسى من الحشيشة ، يرتاح اليه ، ما احوجه الى تأمل ما راح وما استجد ، استعادة ماسيقوله للزينى بركات لو التقى به في المساء ، أما رؤيته سماح بعينى عقله ، فلها مذاق اخر ، إذ يجلس هنا ..

* * *

مرسوم سلطانى

« يقصى الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاض لمذهب الحنفية » .

* * *

« من قاضى قضاة مصر إلى السلطان »

« حميت الحق ، وأعليت كلمة الاسلام ، اقصيت المارقين ، ابقاك الله حاميا للديار .. »

* * *

مرسوم سلطانى

« تبطل عادة الفوانيس .. ويزال ما علق منها ، وكأنها لم تكن »

* * *

من أمراء الديار المصرية وأكابرها

« ما قمتم به حق ، ما اثبتموه عدل ، لعن الله الفوانيس »

□ □ □

سـعيد الجهينى

« إحك عن دنياك .. »

يحار من أين يبدأ ؟ ؟

« مات الشيخ البلقينى عالم الحديث فى الأزهر .. مات عن ثلاثة وتسعين عاما .

لا يبدى الشيخ جزعا ، إنما يهتز رأسه هزا خفيفا لينا ..

« يرحمه ويرحمنا أجمعين .. »

« زكريا والزينى على اتفاق .. »

« أعرف هذا .. »

يبدى سعيد دهشته ..

« الزينى جاءنى أمس .. بعد سماعى الخبر ، فكرت أن أرسل اليه لأعرف حقيقة الأمر ، لكنه دخل على وشرح الأمر ..

عوده مولاه الا يطيل السؤال أو الاستفسار ، إنما يصغى الى مايقال ، يستنتج ويحاول الفهم ..

« مولانا .. كل شىء يحيرنى .. »

ابتسامة تقطر صفاء

« كل شىء ؟ ؟ »

« مولانا أنا صحبت الزينى إلى داره ، مشيت أمامه فى موكبه كأى ركبدار ، بشرت به ، تحمست له ، أنا الآن أشك فيه ، أتضرر منه ، من شهر قلت فلأمض إليه أنقل ما سمعته ، ما استوثقت منه ، عن رجل يقال له برهان الدين بن سيد الناس ..

برهان الدين ؟؟

« نعم يا مولانا .. برهان هذا شرع فى احتكار الفول ، عرفت أساليبه ، مكاميره ، عرفت أن سعر الفول سيشط فى الأسواق ، عندما جلست إلى الزينى ، بعد مرات عدة ترددت فيها عليه بدون جدوى ، شكا إلى ما يثار حول الفوانيس ، قال إن الأمراء

غرروا بالناس ، ضحكوا عليهم حتى أثاروهم ضد الفوانيس مما جعل السلطان يلغيها ، تحدث طويلا عن موضوع الفوانيس ، قال إنه كان يرجو الكثير من وراء الفوانيس ، أبدى نيته في رفع الكثير من المظالم ، تحدث عن ضيقه بمنصب الحسبة ، ما يجره عليه ، تصور يا مولانا ، شكا من قلة المال بين يديه ، لأنه قبل الحسبة كان يسافر إلى بعض البلاد يتاجر في أصناف بعينها ، يشرف على أرض قليلة عنده في دمياط لكنه أهمل الأرض والرزق ، ومرتبه من الديوان خمسون دينارا لا يكفي المظاهر التي يستلزمها منصب الحسبة ، حتى لو أبطل هذه المظاهر فلابد من ارتدائه أزياء معينة كلما طلع إلى السلطان وهذا يكلفه كثيرا ، لم يخف عني شيئا ، أدق أموره حكاها لي ، والله يا مولانا وجدت نفسي قريبا جدا منه حتى كدت أصرح له بما يزعجني ، لماذا قبل استمرار زكريا بن راضي نائبا له ؟ تمنيت لو أقول له ما يفعله زكريا بالناس ، لم تتغير عوائدهم ، يملأون الأزهر ، فهل يقبل ؟ كدت والله يا مولانا ، لكنني لم أفه حرفا أبدا أبدا ، قلت له ما جئت من أجله فعلا .. هز رأسه وقال .. سأكلف نائبي بمراقبته ورصد حركاته ، وعندما يثبت صحة ما يفعله يلقى جزاءه ، تصور يا مولانا ، من سيقيم العدل ، من سيمنع برهان الدين بن سيد الناس .. زكريا ابن راضي ، لكنني قلت في دماغي ربما يحاول الزيني استخدام زكريا لما فيه خير للناس ، رحت أرقب برهان الدين ، لكنه استمر على حاله ، طلعت إلى الزيني مرة ثانية ، قال مثل هذه الأمور تستغرق وقتا ، وذكر حادثة الخياط الذي عاقبه لاعتدائه على غلام صغير برغم شفاعة أكبر الأمراء له عند السلطان ، لا أدري يا مولانا ما الذي يقصده الزيني ؟ حتى الآن لم يهز أصبعا في وجهه برهان الدين ، هل أندم على سيري أمامه يوما ، من ناحية أخرى توجعني المظالم ، لماذا يجلد الفلاحون وينكر عالم كبير من الأزهر أمه التي جاءت من الأرياف تزوره .. لماذا .. لأنها فلاحة ! كيف أصدق يا مولانا أن الناس خلقوا متساوين ؟ كيف ، وما حدث ويحدث وما سيحدث ينكر هذا ويكذبه ، كيف ، أود لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد ، ليس في الديار المصرية وحدها ، إنما في الدنيا كلها ، لكن أعمارنا ستضيع وتمضي ولن نقدر على هذا .. تصور يا مولانا ، إنني أخاف ، أخاف عندما أرى عمرو بن العدوي ، أتساءل عما سيكتبه في أوراقه عني ، ما يجعلهم يلقون بي يوما في المقشرة ، في العرقانة ، أو الجب ، لكن ماذا يفعلون بي ، ربما قطعوا دراستي بالأزهر ، يمنعون راتبي ورزقي ، يسدون أبواب الوظائف في وجهي ، فليفعلوا .. ما قيمة هذا كله ، إذا رفعت الظلم عن إنسان ، ما قيمته ؟ لكنني أجد نفسي من جديد أخشى الحرمان والسجن والقيد والعذاب ، ارتجف لو سمعت باسم زكريا ، تصور يا مولانا .. أنا الذي يعذبني مرأى الذباب على عيون العيال في بلدنا ، أتمنى .. أحمد الله .. تصور يا مولانا .. أحمده ، لأنه لم يخلقني فلاحا أعاني قسوة العيش وظلم الكشاف ،

مولاى أعذرني لأنني وضعت أثقالي كلها عندك .. لكن ما حيلتي والزمان يلجمني ويكسر فكي ويخرس البوح في صدري ..

الليل يمضي صامتا ، في البداية ألوانه خادعة تزداد مع ضياع النهار قتامة وعمقا ، حتى يغرق الكون في سواد ، تضيع أصوات العباد ، تدور أصابع الشيخ حول بعضها البعض ، سعيد يخشى الليل ، لا يلقاه في الرواق أبدا ، يرى نهاية الضوء في الطرقات ، بعد إطراقة تدور عيناه في الفناء الصغير ، راسخ رسوخ جذع النخلة المروية بالسنين ، مرتفع من الأرض يتوسط الفناء لم يلحظه . الشيخ ساكت ، يشير سعيد إلى كومة التراب ، بروز الأرض .. « لم أره من قبل .. »

بأى سؤال يكسر الصمت .

« من حين إلى آخر أحتاج إلى خلوة .. من أجلها حفرت لنفسي هذا السرداب ، حفرته لجسدى أودعه فيه كلما حارت الروح وأعجزها الزمان ..

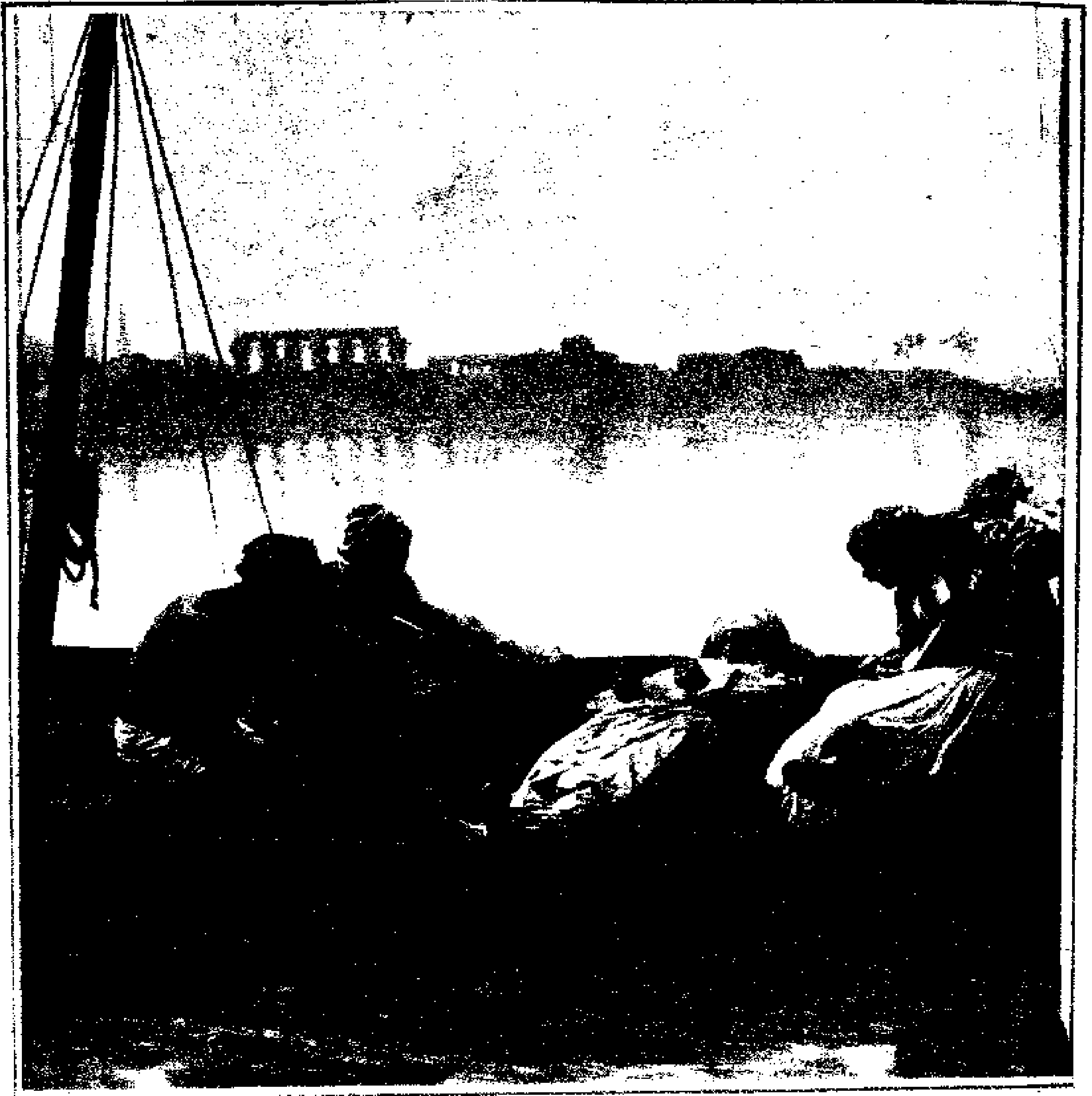
هذه الفتحة الضيقة تؤدى إلى سرداب الخلوة ، بمفرده انتزع لنفسه مكانا من الأرض . داخله يخف من أثقاله ، من أحماله ، تحلق الروح إلى واد يمكن فيه الوصول إلى الحقائق الأولوية ، يدق أبواب الكون ، يفصح عن خباياه ، فيبصر القلب ويرى ما يرى ..

★ ★ ★

نـــــداء

يا اهـالي مصـر ..
نامر بالمعروف وننهي عن المنكر
انكشف المستور
ظهر المقبور
بانت فضيحة علي بن أبي الجود
الليلة قبيل المغرب
سيقرأ الفقهاء في الجوامع
وثيقة تلقون فيها ما تشاءون
لتروا ، كيف امتص الظالم
دمـــاء المسلمين
فحق عليه عقاب مبين .

★ ★ ★



● رسم : جين ليون جيروم ـ متحف الفنون الجميلة ـ نانتس

نقف ضد تعذيب البدن ، فلا نرضى لإنسان مهما كان . أن يحرق عضو فى جسمه أو ينعل كالفرس .

السارق الثالث

وأوله ..

وقائع حبس على بن أبى الجود

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى كشف كل غطاء ، وبسط الارض ، ورفع السماء ، نتوجه إلى أمة الإسلام ، تكشف امرا طال به الترقب ، ليكون عبرة لمن اعتبر ، الحي ومن غبر ، تفاصيل هذا كما يلي .. منذ عام ، أمر مولانا السلطان بالترسيم على المدعو على بن أبى الجود ، وتسليمه إلى متولى الحسبة الشريفة وذلك لعقابه ، وكشف المخفي وراء أبوابه ، ومنذ البداية اضمرنا الصبر حتى النهاية ، لاننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان ، ان يحرق عضو فى جسمه ، او ينعل كالفرس ، وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلمنا على بن ابى الجود ، وكشف أمره ، كشفنا من أمواله ما يعجز عن تصديقه إنسان ، وكل هذا امتص من دماء المسلمين ، وإليكم ما وضعنا يدنا عليه .

بلغ دخله اليومي من املاكه وأطيانه وضماناته وحماياته تتمة الف دينار يوميا . واشتملت تركته على مائة وخمسين الف دينار ذهبا ووجد عنده ياقوت احمر ، زنة الفص رطل ونصف ، وستة صناديق فيها جواهر ، ومن الماس وعين الهر مائة قطعة ، وعلى ذهب مقدار قنطار ، وطاسات واباريق فضة نحو ستة قناطير ، ومائة قنطار بفرو سنجاب ، وأربعمائة قفطان بغير فرو ، وسروج ذهب . عشرون سرجا ، وجد لديه ايضا خمسون فرسا ومائة بغل ، ومائة جمل ، ومن الغنم والجوارى والمماليك شيء كثير ، ووجد عنده فى المرحاض شبه فسقية ، كشف عنها فإذا بها مملوءة ذهبا ، ووجد لديه من القمح والفول والشعير مائة الف اردب ، ووجد عنده سبعون مركبا سارحة فى النيل .

كان اللعين يخفى ثراءه ويبذل الكثير حتى لا يشعر به احد من الناس لكن صبرنا وطول دابنا اوصلنا إلى ما خباه واخفاه ، وسيتم طلوعنا بماله غدا محمولا فوق بغال ، حيث تضم هذه الأموال إلى خزانة مولانا السلطان ، فى وقت نحن فى اشد الحاجة إلى المال ، لتحرك اعدائنا علينا ، ومن شاء منكم الفرجة فلينتظر في تمام الساعة الرابعة عربى وقت الضحى ، ايضا سيعرض عليكم على بن ابى الجود وسترونه سليما معافى لم يلحقه اذى ولا تعذيب ..

تم الحوطة على ثلاثين جارية ، ومائة وعشرين عبدا ، وأربعين خصيا خصاهم اللعين بيده ..

يا أمة المسلمين

يا أهـالى مصـر

اتوجه إليكم برجاء ، أبلغونا حال وقوعكم على أى إنسان يكتنز المال من دم المسلمين ، لا نقبل أبدا أن يجوع الخلق ، وتستمتع قلة ، أبلغونا : مهما علا قدر مكتنز الذهب والفضة والبغال والعبيد والجوارى أخذنا لكم الحق منه ..

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم اجعل هـذا البـلد آمنا

وقائع تعذيب علي بن أبي الجود ، مرفوعة إلى الشهاب زكريا ابن راضي كبير بصاصي مصر ، ونائب الحسبة الشريفة ، من مقدم البصاصين في القاهرة .

★ ★ ★

بناء على ما أشرتم به ، ونوهتم إليه قامت فرقة من أشداء بصاصينا بتنقيب الأحوال وإظهار ما جرى لعلي بن أبي الجود ، وقد نفذنا عبر أسوار منيعة ، وعقبات كبيرة ، لنجتلي سر الأشياء ، وبعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين مع الزيني ، لكننا لم نعتمد عليه وحده ، فهو أول رجل ينضم إلينا من ناحية الزيني ، استوثقنا من مصادر أخرى ، تعرفون بعضها ، والآخر نحتفظ به حتى ننقله إليكم شفاهة ، أما بعد ..

ثبت عدم وجود سجن في بيت الزيني الكائن ببركة الرطلي فهذا البيت ضيق ولا يتسع لوجود سجن به ، وأي صراخ فيه يمكن سماعه من قريب ، لقد نقل « علي » إلى بيت قصي قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة . لا نعرف متى انتقل إلى ملكية الزيني ، من شيده وبناه وجار بحث هذا .. يقع تحته سجن يضم أربع عشرة زنزانة ، ليست زنازين بالمعنى الدارج ، الواحدة منها حجرة مستطيلة طولها ثلاث خطوات بقدمي رجل بالغ ، ارتفاعها أزيد من قامة رجل عادية بشبر ونصف ، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه ، يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدي إلى الخارج ترى منها السماء قطعة فضية ، لكن الفتحة لا تظهر أبدا من الخارج ، فوق الباب من الداخل مصباح يضيء بنفس طريقة الفوانيس ، هذا المصباح يواجه الإنسان أينما استدار أو حاول الهرب ، حتى لو نام تحت الباب مباشرة ، ولو أدار ظهره فحتما يجدها في مواجهته ، يئز الضوء ليلا ونهارا ، يحدث وشا خفيفا لا يدركه الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير في الأذنين بعد فترة ، ويبرز من الجدران لوح خشبي قصير يتناول فوقه المحبوس طعامه ..

السجان القائم على أمور المحابيس هنا ، شاب مليح الوجه ، رقيق العبارة ، جميل الصورة ، وهذا يخالف كل ما اتبع من قبل ، ابتسم في وجه « علي » خاطبه بأدب « إذا احتجت أمرا أطرق هذا الباب بقبضتك مرة واحدة » ، وعندما أقول من ؟ فلا تقل اسمك إنما قل « واحد » أنت منذ الآن واحد ، طوال حديثه لم تفارق شفتيه الابتسامة ، حديثه في ظاهره رجاء لكنه أمر في جوهره ، نظافة المكان لم تطمئن « علي » أدركه

رعب خفي ، ليس حادا ، إنما يماثل غرابة المكان ، هدوءه ، الباب يوحي باحتمال فتحه المفاجيء ، ربما انطبقت عليه الجدران ، تتغير الابتسامة ، عندما جاءه الطعام تعجب للغاية وضع أمامه أرزا مفلفلا ، طبق ملوخية ، قطعة لحم وبرتقالة ، وهذا لم يسبق حدوثه في تاريخ الحبوس ، لكن لابد من توضيح امر هنا ، على بن أبي الجود ، او غيره من المحابيس الذين ساقهم حظهم إلى هذا السجن ، لم يشعر بالشبع أبدا ، إنما يعيش جوعا خفيا ، الأكل في مظهره أكثر من كاف ، يحدث شبعا مباشرا ، لكنه لا يقضي على جوع خفي مستور يأكل نخاع الغطاء الدفين .

بقي علي بن ابي الجود ثلاثة وتسعين يوما لم ير خلالها إلا وجه عثمان ، إذا دق الباب في أي زمان ، يجيئه مبتسما كأنه لا ينام ولا يفارق المكان أبدا ، كانه يعرف متى ينوى دق الباب فينتظر ، وبمضي الزمن بدا على بن ابي الجود يخشى الابتسامة والعينين الهادئتين حتى صار يزوغ من صاحبهما ، وربما وجد نفسه محصورا بالبول ، يكاد يطق ، لكنه يأبى دق الباب .

إستعاد حياته لحظة بلحظة مرات ، اختلط عليه الليل والنهار ، بدا له الزمن جسما شائها بلا ملامح ، يعرف وجود آخرين بجواره ، دائما يسمع عثمان يسأل من ؟-ثم تسير خطواته حتى يتوقف عند باب قريب ، فشل تماما في الإصغاء إلى أصوات المحابيس الآخرين ، بدا يفكر كيف يفكر ؟؟ تمنى لو يحرقونه ، حتى العالم يروح من عقله ، ومثل المصباح يمزق لحمه ويجفف دمه ، وفي لحظة بلغ فيها درجة من الضيق العظيم دخل عليه الزيني بركات بنفسه ..

قال بصوت خال من افتعال المودة .

« انا الزيني بركات .. »

تطلع إليه علي بن أبي الجود متعجبا ، لم يره من قبل ، وما ننقله هنا ، قاله الزيني بالتقريب :

كما ترى يا علي ، لم نفعل بك مكروها ، لم نضايقك في بدنك ، أنا أعرف حيازتك لمال طائل ، انت داهية في طريقة إخفائه، اخبرني عنه وكما تعلم انا لن اضع منه درهما في جيبي ، كله سيذهب إلى خزانة السلطنة ، أما حريمك وعيالك فانا اضمن معيشتهما .

« أين الأمــوال ؟ »

هز علي بن أبي الجود رأسه ،

« اتنكـر ؟ »

أكد النفي ، قام الزيني واقفا ..

« اللهم إني بريء من ذنبك »

بعد زمن لم يعرف مقداره ، دخل عثمان ، عصب عينى على بن أبى الجود بقماشة مبللة ، لحظة طال انتظارها ، لا يدرى ما سيفعل به ، لكنه يفارق هذا المكان الغريب ، هذا يكفى ، نزل درجات ، عبر أبوابا ، تركه عثمان فى قاعة خلاء ، ارتعدت مفاصله . تهيب الجلوس ، خطا الوقت ثقيلا كالخيل إذ تحتضر ، ارتعشت أطرافه ، دب الخدر إلى ظهره ، جسمه كله يهتز ، فجأة هوت يد قوية صفعته فوق عنقه ، أطارت شررا ونجوما زرقاء فى فراغ عتيم أحاطه ، ثلاث صفعات صنعت حزاما ساخنا حول قفاه ، وهنا تبدأ الوقائع الفعلية لتعذيب جسد على بن أبى الجود .

اليــوم الأول :

وفيه دهنوا باطن قدميه بماء وملح ، أحضروا عنزة صغيرة سوداء فى رأسها بياض راحت تلعق الماء المالح على مهل ، التوت شفتاه ، ارتجفت ضلوعه ، صار يصرخ ، ثم ينقلب صراخه ضحكا حتى غشى عليه ، سكبوا على وجهه ماء باردا .

« أين أموال المسلمين » ؟

ولم يجب .

اليــوم الثانى :

من الثابت الذى لا يدع فسحة للشك أن الزينى بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التى يتم فيها « استخراج الحقيقة » وفى أول النهار أخذه الغيظ ، لثبات على ابن أبى الجود . دخل بنفسه ، راح يمد أصبع يده الوسطى بحركة ثابتة فى صدر على ابن أبى الجود ، فى نفس الوقت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه ، بدأ نزول الماء قطرة قطرة ، بفاصل زمنى معلوم ، لم يمض وقت طويل إلا انتفضت رقبته ، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاف إلى قسمين ، صرخ صرخة هائلة خارجة من الحشا ، هنا زعق فيه الزينى « أموال المسلمين ياعلى » .

ولم يجب ..

عصر اليــوم التالى :

أحضروا فلاحا من المحابيس المنسيين ، نزعوا عنه ثيابه تماما ، نظروا إلى على بن أبى الجود ، قال الزينى « أنظر سأفعل بك كما أفعل بالرجل » اظهروا حدوتين ساخنتين لونهما أحمر لشدة سخونتهما ، بدأ يدقهما فى كعب الفلاح المذعور ، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع على ، وكلما حاول إغلاق عينيه يصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه ..

اليـومان : الرابع والخامس :

نبح ثلاثة من الفلاحين المنسيين ، أسندت رقابهم إلى صدر علي بن أبي الجود والزيني يدخل ويخرج محموما مغتاظا يسأل « ألم يقر بعد ؟ » لا يجيب أحد ، يضرب الحجر بيديه ..

اليـوم السابع :

عندما أحضروا خليل ، أصغر أبناء علي بن أبي الجود بدا غائبا تائها ، لكن عندما صرخ خليل : اتسعت عينا أبيه ولم يسمع صيحات ولده ..

تعليـق :

هذا بعض ما وصلنا من وقائع تعذيب علي بن أبي الجود . لكن الثابت فعلا ـ وهذا محير ـ عدم إقراره بمكان المال ، إذن من أين عرف الزيني مقدار ومكان الأموال التي نشرها على الناس . العجيب أيضا أنه بعد مدة معينة ، وبعد تنوع أساليب العذاب الجديدة التي يسميها الزيني « كشف الحقيقة » أصبح علي بن أبي الجود معافى ، التغيير الوحيد أصاب عينيه ، أصبح لا ينظر إلا في خط مستقيم كالأعمى لكنه مبصر ، إذا ناداه أحد لا يجيب ، إنما ينحني ويدلدل لسانه كالكلب ولم نفسر بعد ما حلق به ،

(مقدم بصاصي القاهرة)

★ ★ ★

نـــداء

يا أهـالي مصـر
نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
أمر مولانا السلطان
بإعدام على بن ابى الجود
ضربا بالأكف
سيرقص طوال الطريق
كما ترقص النساء
أضـربوه
اضـربوه
كلما كف
فمن شاء الفرجة
والقصاص من عدو الله
عليه الخروج بعد صلاة العصر
يا أهـالي مصـر

★ ★ ★

رجب ٩١٤ هـ
مقتطف « ب »

ويتضمن بعض مشاهدات الرحالة البندقي ، فياسكونتي جانتي الذي كان يعبر القاهرة وقتئذ لأول مرة ، وكان قادما من بلاد الزنج والسودان ، قاصدا ركوب البحر ، عائداً إلى بلاده بعد تجوال طويل .

* * *

خرجت من الخان ، والحق اننى وجدت الزحام ثقيلا ، النساء يختلطن بالرجال ، الصبية الصغار يحاولون التسلل بين الأقدام للنظر ، وعلى جانبي الطريق وقف رجال أشداء مدرعون يرتدون ملابس زرقاء بياقات صفراء ، عرفت من علي مترجمي ان الموكب خرج فعلا من بيت الزيني بركات محتسب القاهرة وقف عند مدرسة ابن انزمن ، عرج على جزيرة النيل ، أتى إلى شبرا ، استمر حتى عبر قناطر أبي المنجا وطلع من قنطرة الحاجب ، دخل من باب الشعرية ، كنت أقف عند بين الصورين ، (سوق كبير) أمام دكان يبيع أصباغ الملابس ، انتشر قلق بين الناس تدافعت المناكب ، صرخ طفل ، أطلقت امرأة صوتا طويلا ، يسمونه هنا زغرودة ، بدأت تباشير الموكب ، عدة خيول مسرجة ، كلها بيضاء ، ثم مرت أربعة خيول يدق راكبوها طبلا ، يتوقفون ليعلن رجل قصير لم أسمع أقوى من صوته قط ، وأخبرني علي مترجمي أنه يطلب من الناس أن يضربوا على بن أبي الجود كلما كف عن الرقص ، حتى يسقط ميتا ، والموضع الذي سيسقط فيه سينال بقشيشا من الزيني ، والحق ، هذا اغرب طريق إلى الموت رايته او سمعت به ، أخبرني علي ايضا انه يزف إلى الناس بشرى حسنة ، أمر السلطان بتعيين الزيني بركات واليا للقاهرة إلى جانب منصبه ، وقبل الزيني المنصب حرصا على راحة الخلق ، ومن أراد الاعتراض على ولايته للقاهرة فعليه إبداء رأيه بعد صلاة الجمعة في أكبر مساجد العاصمة (الأزهر) ومنصب الوالي يشبه حاكم الإقليم عندنا ، اما الحسبة فلا مثيل لها في بلادنا إذ انه منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية ، ويتلخص في ضمان الخير ، وطرد الشر ، والحقيقة لم اصدق ما اخبرني به علي ، فيما يتعلق بحض الرعية على الذهاب إلى الأزهر لإبداء رأيهم ، هذا تقليد لم أره قط ، سابق لزماننا لم أسمع به ، على الرغم من سعة تجوالي ، سمعت اسم الزيني يتردد كثيرا يبدو انه شخص خارق للعادة ، وسأحرص تماما على لقائه ، عندما انتهى المنادي طرق أذني وقع طبل ، الجمع كأنه إنسان واحد ، تزايد الصياح ، تلويح الأيدي ، دفعت الناس

حتى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط القامة يقف في غير ثبات محلوق الحاجبين واللحية ، كحلت عيناه كالنساء ، تناثرت بقع حمراء على وجنتيه ، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل ، يهتز كلما مال الرجل وتثنى ، إنه يهز وسطه هزا عنيفا غير منسق ، يستمر الطبل ، يميل بمنتصف جسمه الأعلى إلى الوراء ، يرعش صدره إرعاشا قويا ، يعتدل فجأة يبرز مؤخرته إلى الوراء ، طوال هذا الوقت تمتد أيدى العامة ، تصفعه ، تضربه ، يدفع أحدهم عصا قصيرة بين اليتيه ، فوق جبينه يتساقط عرق غزير ، يتدلى لسانه ، يتفانى الناس في صفعه وضربه ، إذا سقط ميتا سينال من حوله الحلاوة ، عبثا يحاول رجال الزيني منع الأيدى التى تحمل عصيا ومراكيب من الوصول إليه ، ابتعدت العربة ذابت فى الزحام الكثيف ، ابتلعت لعابى ، وجه الرجل الشائه المذعور ، جسمه ، يسد الفراغ ، والحق أنني فزعت ..

★ ★ ★

نـــــداء

أمر مولانا السلطان
بتسليم الأمير كرتباى
والى القاهرة القديم
إلى ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القـــاهـرة
الزينى بركات بن موسى
لمعاقبته ، وإظهار ما نهبه اللعين
من امـوال المسلمين

★ ★ ★

زكريا بن راضى :

يظن زكريا بن راضى أن لقاءه بالزينى تم فى الليلة نفسها . ساعات الليل الأخيرة عادة لا يزعجه أحد إلا بدافع أمر جسيم . ليلتها أصغى إلى « وسيلة » تحدثه عن بلادها . ما يحب الإصغاء إليه ، عادات الناس هناك ، ألوان الطعام . يسألها كيف لم يفض تاجر الرقيق بكارتها منذ اختطافها ؟ عودتها الأسئلة الغريبة ألا تخجل ، قالت انه طمع فيها ، كل من رآها طمع فيها ، وحدث قرب حلب . هنا مد زكريا يده ، لمس شفتيها بأطراف أصابعه « حدثيني عن حلب » لم تدركها الحيرة اعتادت منه الإنتقال من موضوع إلى آخر . فجأة بدأت تسترجع المدينة . الطرق المؤدية إليها ، رجال البريد فى المبانى الصغيرة القائمة وحدها وسط الخلاء ، عيون فلاحات الشام المتطلعة إلى القافلة ، إسراعهن بإغلاق بيوتهن ، تذكر ترحيب الحراس بالقافلة ، مسرور التاجر يعرفهم كلهم ، يدفع لهم مجعولا معينا من الذهب ، لا يتعرضون له أبدا ، بل يتولون حراسته إلى الطريق ، زكريا يمسك كوبا مضلع الحواف ، لا يشرب الخمر أبدا ، لا يحب لوعيه أن يهجر العالم لحظة واحدة ، حدث منذ مائتى عام أن أضاعت الخمر واحدا من أعظم البصاصين الذين عرفتهم مصر ، فى زمن الظاهر بيبرس ، أدمن ابن الكازارونى الخمر ، صار يقول فى مجالسه الخاصة والعامة كل ما يعرفه عن أحوال الناس والدولة ، تسبب هذا فى فضيحته ثم قطع رقبته ، كان قد ابتدع نوعا جديدا من الخمور ، قيل ، مجرد رائحتها تجلب للإنسان سكرا عظيما ، نسبت فيما بعد إليه ، وعرفت بالخمر الكازرونية ، أمر السلطان الناصر بن قلاوون ـ فيما بعد ـ بإبطالها وإراقة ما تجمع منها فى الدنان ، زكريا يعشق عصير الفاكهة ، استحضر جهازا من بلاد تلمسان يعصر أقسى أنواعها ، يصفى البذور ، يرشف عصير العنب ، يمد يده إلى جيد وسيلة يمر عليه مرا هينا لطيفا تستمر فى حديثها ، ترتعش الحروف ، فجأة بينما تطلع يده وتنزل تقترب أصابعه من صوان أذنيها ، تخرج أنفاسه ساخنة فوق مؤخرة عنقها ، قشعريرة بدنها تنتقل إليه ، يتابع اختلاج ركنى فمها ، فجأة يحتوى أذنها الصغيرة فى فمه ، يرضع اللحم القاسى ، تشهق ، تتباعد أطراف جسدها ، تحيط ثدييها بيديها تغمض عينيها تروح إلى بعيد ، فجأة بضربة واحدة ، يمزق الثوب ، لا يفك أزراره ، إنما يمزقه ، يصغى إلى تقطع القماش ، تنكشف له بدايات العالم الطرى ، تبدأ حركة من عينيها تجسد صغر السن ، تفتح الزهرة ، صبية تطرق أول العمر تدهش إذ تقف عند حدود الدنيا ، أمثل هذه المتعة توجد فعلا ؟ فى اللحظة ، هذه اللحظة تماما ، جاءه شهاب الحلبى طرق درع النحاس المعلق فى الدرقاعة السفلى ، نزل إليه « أرسل الزينى بركات مبعوثا يطلب

من زكريا الحضور بسرعة لأمر جلل » أومأ زكريا برأسه ، طلع إلى خزانة ثيابه انتقى رداء شيخ أزهري ، منذ إقراره نائبا للحسبة لم يرسل إليه الزيني ، كل صلتهما تقرير يومي يرسله زكريا إلى الزيني ، طبعا تقرير يعد بشكل خاص ، مرات قليلة أرسل الزيني يسأل عن أمور ذكر أنها عامة ، جاوب عليها زكريا وهو يضمر تعجبه لتفاهة هذا المطلب ، مثلا أسماء الجوارى اللواتى اشتراهن الأمير بشتك في علم ٩٠٧ هـ ، مقدار الخمر الذى يشربه الأمير قوصون كل ليلة ، اسم والدة بائع مخلل بالحسينية ، أصناف الطعام التى يفضلها قاضى القضاة عبد البر ، أو عدد أمتار الثياب اللازمة لعمل عباءة زركش لخوند زينب زوجة طشتمر ، كم مملوكا له ست أصابع فى كلتا يديه وعددهم في الأبراج ، زكريا قابل هذا باستغراب ، تدارك رأيه بسرعة ، ليستبعد السخرية والاستهزاء ، مثل الزينى لا يطلبها إلا لأمور جسام ، عندما التقى به أول مرة فى بركة الرطلى ، أدرك ندرته ، كل منا خلق ليلقى الآخر ، نزل السلم بسرعة ، عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته ، ستحدث إليه بهدوء ، لا شيء يمثل مفاجأة بالنسبة لزكريا ، بل سيوحى إليه أنه خمن نية الزينى فى استدعائه ، طلع إلى الفناء الواسع ، لأوراق الشجر حفيف مسموع ، ما ألذ الرجوع إلى وسيلة ، لم يرتو منها تماما ، دار بعينيه بلحثا عن مبروك ، مبروك الوحيد الذى يميزه حتى لو اختفى فى زى الجان ، يبدو للغرباء أخرس لكنه يتحدث قليلا جدا ، أحيانا يعنف زكريا ويلومه لوما قاسيا ، زكريا يقبل هذا ويصغى إليه ، وينفذ ما يقوله مبروك ، سأل زكريا ، « أين رسول الزينى ؟ » تقدمه مبروك ، همس زكريا « إذا لم أرجع حتى ظهر اليوم التالى فقل لمقدم القاهرة أن يهتدى بما يقوله شهاب الدين كاتم السر .. مفهوم ؟ دخل زكريا إلى حجرة الجلوس بالديوان ، قام رجل بدوى ملثم ، أهلا بالشهاب الأعظم زكريا .. » نظر زكريا إلى الوجه الملثم ، الحزام العريض المرصع بفصوص معدنية بارزة ، زكريا يتفحص رداءه ، هذه الأمور الصغيرة ، تبدد دهشته عندما رأى الزينى بنفسه ، دخل الزينى مباشرة فى غرضه قال : بدون لف أو دوران ، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط .. أين أخفى على بن أبى الجود أمواله ؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمنى ، باختصار كعناوين البطائق « لا أعرف » زعق طائر غريب الحس فى السماء ، الليل يشيخ ، قام الزينى مرة واحدة ، على مهل اقترب من زكريا « أنت يازكريا تعرف تماما أين موجودات على بن أبى الجود ، أنت لا يخفى عنك شيء ، ولو خفى لما خاطرت بسمعتي وأقررتك نائبا للحسبة ، أنت تعرف ليس لأنك شغلت منصب نائب على بن أبى الجود إنما لأنك زكريا ، أتفهمنى ، لأنك زكريا بن راضى أعتى من تولى منصب كبير بصاصى مصر » لم يرد زكريا ، ليقل الزينى مايريد ، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه ، الضوء خافت غامض مرعوش ، يوشك على توهج

لكن بدا قوية تحبسه ، توشك على إلغائه ، قال الزيني بركات بن موسى ، أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان ، الآن بعد مضي زمن على مجيء الزيني آخر الليل لم تبرد حرارة ما قرره زكريا بعد انصراف الزيني ، ربما امتد الزمن سنين طويلة ، لكن ما قرره لابد أن يتم ، يتحقق يوما ، يراه مجسدا ، أى قوة استطاعت في أى زمن منع كبير البصاصين من تحقيق غرض أضمره ، لن يمنعه إنس ولا جان ، ولا ألف طلسم ، أبدا لن ينسى أيام العزلة التى فرضها على نفسه في اليوم التالى لزيارة الزيني ، أمر بألا تدخل إليه تقارير ، طلب من مبروك الا يريه ملامح أى إنسان ، الطعام مضغه بضيق عندما اضطر إلى تناوله ، عندما أنهى عزلته ، جاءه رجاله مهنئين ، لكنهم ارتدوا عنه خائبين ، قابلهم بوجوم وضيق ، سر في نفسه عندما أخبره شهاب الحلبي باستعداد كبير أطباء السلطان للمجيء إليه طوال أيام عزلته ، في الأسبوع الأول ، التالى لمجيء الزيني ، دخل مبروك قال « الزيني بركات جاء » في الفناء وقف ، يتحسس بعصاه جذع نخلة ضخمة مغطى برقائق نحاس ، قال « أفضل لو جلسنا في الشمس ، بيتى في بركة الرطلي لا تدخله الشمس » ، الزيني ينكت الأرض بعصاه الرفيعة ، زكريا يسند جبهته إلى يده اليمنى ، أرجو أن تسمعنى ، أن يتسع صدرك لى .. زكريا يهز رأسه ، جاء الزيني بثيابه العادية ، لا يرتدى الملابس البدوية ، أفكار كثيرة تدور في عقلى ، لكنها لن تتم إلا بعرضها عليك ، أرجوك أن تخطئني إذا بدا لك هذا ، أنت أكبر منى علما وتجربة بما سأقول ، التردد واضح في ألفاظه ، ارتياح خفى يتسرب إلى زكريا ، أردت أن أفضى إليك بما أوده وأرغبه لنظام البصاصين ، هل يمكن لإنسان أن يتخيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدون عيون قوية مخلصة ترى في كل مكان ما أراه أنا .. قال زكريا بسرعة ، عندك رجالك .. نفض رأسه بسرعة ، سرور في صوته ، ربما لاستجابة زكريا إلى الحديث ، أعرف أنك ستقول هذا ، لكنك يا زكريا تهول من أمر رجالى ، أليس من الأفضل للإنسان رؤية الدنيا بعينين بدلا من عين واحدة ، صحيح ، ستقول ومعك الحق كله ، لدينا آلاف العيون ، صحيح ، لا أعترض ، ولكن لو وجدت مجموعة أخرى لها نظام مخالف ، طريقة ثانية ، ألا يصبح هذا مفيدا ، أولا .. اعذرنى لأننا لا نلتقى بما فيه الكفاية مشاغلى كثيرة جدا يا زكريا ، تصور إنسانا يقر بالعدل بين الناس في مثل هذا الزمان ، أنت تعلم ما ينويه ابن عثمان ومهما طال الزمن فالحرب واقعة لا محالة ، مهما طال يا شهاب ، لقد أخبرت مولانا بهذا ، وأقولها لك صريحة ، بل إن ثقتى بك تدفعنى إلى التصريح بما هو أكثر من هذا ، المشرق لا يحتمل دولة بنى عثمان ودولة المماليك في مصر ، إما نحن وإما هم ، لا تندهش يا زكريا ، أو بمعنى آخر لا تتصنع الدهشة ، أنت أدرى منى بهذا ، من يعطس في

القسطنطينية تسمعه أنت هنا ، كل حركة هناك أنت تعرفها ، وبإذن الله سوف يتغلب عليهم ، ببركة البيت الذى يحميه مولانا ، فكما ترى ، الأحوال صعبة ، لابد من لقائنا كثيرا ، ننظم أمورنا معا ، ما ينقله رجالى سأقدمه لك ملخصا كل يوم ، عندك تجربة مهولة ، عندك أدق نظام في الدنيا لاستخدام الحمام الزاجل والبريد ، وأنا وأنت نشهر سيف العدالة ، أنا وأنت نقيم الميزان صحيحا لايميل ولا يخل ، ما أريده يا زكريا أن يصبح رجالنا أداة العدل بين الناس كل الناس لابد أن تعرف هذا » كف الزينى فجأة عن الكلام ، بقى زكريا ناظرا الى الأرض ، قال بعد لحظات « آه .. وبعد ؟؟ » ، وكأن الزينى لم يتوقف قط ، قال بسرعة « حتى لا أعطلك جئت اليك بأوراق فيها ما أتخيله ، أرجوك إبداء الرأى فيها » .. عند الباب شد على يد زكريا ، أدعوك الى الغداء عندى .. أى وقت تختار ؟ ، قال زكريا « لا أفارق البيت إلا نادرا .. » اتسعت ابتسامة الزينى ، « سوف أمد لك مائدة حافلة .. » قال زكريا إذن سأرسل لك ونلتقى قريبا ، عاد إلى الحديقة ليرجىء التفكير فيما قاله حتى الليل ، بعد قراءة هذه الأوراق ، لابد من النفاذ الى باطن كل حرف ، الأمر ليس هزلا ، ما قدره منذ هذه الليلة ، يزداد رسوخا فى عقله ، لكن الحقيقة ، الزينى رجل لم يعرف له مثيل ، أحيانا يفكر زكريا ، بضرورة مجيئه بعد هذا الزمان بسنوات ، لا يدرى مقدارها تماما ، ولكن أليق به العيش فى زمان بعيد ، يلقى فيه أدوات يحلم بوجودها ، لايدركها لعجزه ، وعجز زمانه عن تجسيدها ، هذا الزينى جاءه أيضا من العصر الغامض النائى الذى يود العيش فيه ، مثله لايستهان به ، مع مجىء الليل أدرك زكريا خاطر مزعج عند زيارة الزينى الخفية ، يعود الى ممارسة وظيفة لم يشرع فيها من قديم ، تقريبا منذ توليه منصب مقدم بصاصى القاهرة ، قبيل إرتقائه الى منصب كبير البصاصين ، الليلة يرتد الى زمن بعيد تعقب فيه الخلق بنفسه ، كان يتخفى فى ثياب أرباب المهن والطوائف ، وقتها استحدث طريقة جديدة فى اقتفاء الأثر ، تعقب الانسان بالسير أمامه ، وهذا لايقوم به إلا عتاة البصاصين ، زكريا ابتدأ العمل بصاصا من أصغر الدرجات لم يسبقه أحد فى هذا ، الليلة يرهف حواسه التى خدمته بصاصا صغيرا مبتدئا ، لكن أين ؟ هنا فى بيت ، كيف عرف الزينى أمر المملوك شعبان ؟ كعادته عندما يتفحص أمرا محيرا ، يمسك قلما ويرسم أشكالا وخطوطا ودوائر ، لا معنى لها فى ظاهرها ، لكنها تساعده ، تركز فكره ، من رافقه عند ذبح المساجين ودفن شعبان ؟

مبروك ..

لن ينفى عنك الشك ، لايعلو مخلوق عنده على الشك ، أبدا .. يوضع مبروك فى الدرجة الأولى حتى يثبت عكس مايظنه ، ثم ، من يفترض أنه تابعهما ، أو راقبهما خلال الدفن ؟ ، فى هذه الليلة خلا البيت تماما ، لكن ليحصر المترددين على البيت .

— شهاب الدين الحلبي .
— مقدم بصاصي القاهرة .
رجال الديوان ، وكلهم معرفون لديه .
ربما نفذ أحدهم ، استطاع رؤيتهما بطريقة ما ، لم تتضح حتى الآن ، نقل ما رآه الى الزيني ، هذه فعلا مصيبة ، كيف يطل الغريب عبر الأسوار ، لابد من مراجعة ملكتب عن رجاله واحدا واحدا ، أصولهم ، أحوالهم ، أمزجتهم ، أفكارهم ، ثم يضيق الحلقات ، يمد الخطوط ، يضع الدوائر ، حتى تضيق الحلقة حول عنق بعينه ، ثم ينتقل الى معارفه وأقاربه خارج رجال الديوان .
— الحريم .
(أ) نساؤه الأربع
(ب) الجوارى
من الليلة ، سيرى كلا منهن ، ليبدأ بأقدمهن ، حكمت ، أولى حريمه ، هجرها منذ وقت ، ولم يزرها ، الليلة يبدأ بها ، وعندما يشم عبير المسك ، يرشف عصير العنب ، يأكل الدجاج المسقى بالسمن وماء الورد ، تخرج الأسئلة منه تائهة بلا قصد ، الباقيات لكل منهن وقت يلي الليلة ، الجوارى ، « وسيلة » لكنها طفلة لا تكاد ، جاءته قبيل تولي الزيني بأسابيع ، من يدرى ، لن يخرج أحد عن دائرة الشك ، يبقى احتمال لجوء الزيني الى حيلة جديدة يجهلها زكريا ، هذا ماسيحاول الوصول اليه ، لابد من ذهابه الى « بركة الرطلى » ، الزيني يقترح عليه بحث الوسائل والخبايا يريد معرفة طرقه ، لا يغيب عن زكريا الضيق الذى جاءه ، صحيح أنه يأخذ حذره من جميع الناس بما فيهم أقربهم اليه ، العاملون في بيته ، حريمه ، فليأت الذين يشهرون به ، الذين يلعنونه ، ليروا أى هم يعانيه ، أى متاعب تحل به ؟ خط عدة دوائر ، منذ الآن سيكون كل واحد في بيته عينا على الآخر ، كل امرأة سترقب الاخرى ، الرجال ، يذكر بعض التواريخ الخاصة بالبصاصين ، تمكن ملك المغول ـ أحد أحفاد كبيرهم جنكيز خان ـ استطاع أن ينفذ إلى بصاصي بغداد ، انسان واحد فقط اعتلى منصب نائب كبير بصاصي دولة الخلافة العباسية ، وهكذا وقف على أسرار الخلافة كلها ، راسل بها المغول زمنا طويلا ، حتى اجتاحوا بغداد وهم على علم بأية أرض يخطون فوقها ، وكان ما كان ، قلم زكريا تحن روحه الى التجوال في المدينة والليل مطبق فوقها لكنه لن يخرج ابدا ، عندما يتبين له الانسان الذى أبلغ الزيني بما تم ، يتخيله الآن ، الغل يعتمل في بئر قلبه ، يرى بعيني عقله ألوان العذاب التى سينوعها لصاحب تلك الفعلة ، أى طريقة مستحدثة لا تخطر ببال جن ولا انس يختارها لانهاء حياته ، أى طريقه ، أما ما قرره بخصوص الزيني بركات بن موسى فلن يتراجع فيه ابدا حتى لو افنى عمره كله .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين).

«ما اقدمه إليكم ليس الا مجموعة خواطر وأفكار تراءت لنا ، اذا ما رأيتم صلاحيتها أرجو ان نعمل معا على اقرارها ، حتى يستقيم العدل ويستقر ولن نبالى فى هذا إلا إلا مرضاة رب العالمين ، وكما تعرفون فإن أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، قال (من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم ، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم ، ومن أحسن فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ أحسن الله فيما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله شر دنياه» .

وبعد ،

كان أسلس عملنا ـ أنا وأنت ـ اقرار الامن والعدل فى ربوع السلطنة ، وسأقصر حديثى الآن على دائرة اختصاصى (القاهرة والوجه البحرى الذى أضافه السلطان الى نظارة حسبتى أخيرا) أما فيما يخص ربوع الشام ، فهذا أمر أنت عليم به ، خبير فيه ، ولا أقر عليه ، وحتى يستقر العدل فى بر مصر لابد من اقامة أسس قوية ، ودعائم متينة ، وكما هو معروف لدينا ، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس ، فمن سبقك لم يظهر الا جانبها الوحشى ، حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها وعدم استمرار الدنيا بدونها ، من هنا فلابد من وصولنا الى لحظة يصبح فيها كل بصاص محبوبا مبجلا من الجميع ، رجال الدنيا والدين ، وسيتم هذا بوسائل عدة سنناقشها معا ، لكن ما يهمنى الآن تقسيم الجماعات والفئات التى سنعمل خلالها ، وتحديد أهمية كل منها ، وضرورة التركيز على بعضها دون الآخر .

تنقسم مصر الى فئات (وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات)

١ ـ السلطان والأمراء الكبار

٢ ـ المماليك والأمراء الصغار

٣ ـ أولاد الناس ، المتعممون ، والفقهاء أرباب الطوائف والحرف ، التجار .

٤ ـ العامة من الناس .

بالنسبة للفئة الأولى ، يجب النفاذ الى خباياها ، عن طريق بصاصين متخصصين على درجة عالية من الرفعة والإلمام بالعلوم والقدرة على المناقشة ومعرفة تقاليد هذه الفئة وعلومها ، وغرضنا هنا حماية مولانا السلطان والامراء الكبار ، وأرى

ان يكون البصاصون المخصصون للتوغل داخلهم من نفس الفئة (على خلاف المتبع حاليا) .

● المماليك والأمراء الصغار وتخصهم فرقة تتبعك وتقوم بعملها خير قيام .

● الفئة الثالثة لابد من التركيز عليها ، والاهتمام بها اهتماما كبيرا فلهم تأثير عظيم على الفئات القريبة منهم ، الجماعات العلوية (الامراء والأكابر) أو السفلية (العامة والأوباش) .

● عامة الناس وهم دائما مثيرو الفتن ، ربما حركوا بعض المتعممين والفقهاء في ظروف عدة ، واجدني مضطرا الى تقسيمهم .

(أ) طلبة الأزهر والكتاتيب ، وهؤلاء لابد من تتبعهم باستمرار ، وإثارة بعض الفتن من حين الى حين لكشف من ضل ومال الى جانب اثارة الفتنة والغم ، وتحريض الأوباش على سادتهم ، هؤلاء لا يجزرون من بين الناس فربما أثار هذا سخط العامة ، إنما يعاملون بطرق مختلفة وأساليب متنوعة سنتفق عليها معا .

(ب) بالنسبة للعامة فهؤلاء قطيع يتجه كيفما توجهه انه بحر زاخر طوع الريح ، وحش بلا عقل تسوسه فيطيعك ، والاعمار في هذه الفئة لا قيمة لها ، فكلما ضاقت سبل العيش ، قلت قيمة الحياة ، وذهب عناء الحرص عليها ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين الى أخر ، بطريقة لا يعرفها أحد ، وهذا يرهب الباقين .

أرجو مساعدتي في اعداد كشوف تضم اسماء جميع العاملين في الحرف والمهن والصناعات والتجارة ، كشف يحوى اسماء القصاصبين وأخر به البناءون ، والمرخمون والصباغون ، والنقاشون ، والعقادون ، والصدفجية ، والنساجون ، وباعة الحلوى والمشبك ، والشربتلية ، وغيرهم .

لابد من حصر المواليد الذين يجيئون الى الدنيا وكل أب ينجب طفلا لا يبلغ عنه الى نائبي في المنطقة التي يقيم بها يعاقب بالجلد ، وبإذن الله أنوى شنق عدد منهم في البداية حتى يرتدع الباقي وهكذا يمكننا معرفة اعداد القادمين ، من سيخلفوننا في دنيانا ، ندرجهم في كشوف ، نتتبعهم في نموهم ، تلقيهم التعليم ، سواء أكان التعليم دينيا أو دنيويا ، في طائفة أو حربيا بالنسبة لأولاد الامراء والمماليك ، تقدم عنهم التقارير كل فترة بعينها ، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم ومكامن الخطر فيهم ، حتى اذا ولينا عن الدنيا ، حانت أجالنا ، وهذا الامر لا يعلمه إلا الله ، تركنا لمن يأتي بعدنا سجلا نافعا جامعا لكل ما عركناه ، وما رأيناه في زماننا ، وبالنسبة لهذا الامر قررت شهر النداء به والعمل به بعد أن وافقني السلطان عليه .

أرى ونحن مقبلون على عصر كله محن ، وفتن ، ونظرا لتعدد الطوائف والأجناس في بر مصر ، أن نعد بطاقة صغيرة من الجلد ، يحملها الصغير والكبير والبصير والضرير ، يوضح في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج ، بالكشف أيضا المهنة التي يزاولها الشخص ، الجهة المقيم بها . تختم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائبي في منطقة الاقامة ، والآخر من مقدم البصاصين في نفس المكان ، ومن ضبط بدون بطاقة جلد ، عوقب معاقبة شديدة ، وعند وفاة الانسان تقوم أسرته بتسليم بطاقته الى مقدم البصاصين لترفع الى الديوان فيشطب إسمه من الاحياء ، وينقل الى كشوف الأموات ولا يستثنى الجريم .

في المدة المنقضية على ولايتي للحسبة ، لاحظت طلوع حكايات بين الحين والحين تنتقل بين الناس الغرض منها التشهير بأحد كبار رجال السلطنة ، ومني شخصيا ، وهذا أمر تتفق معي على ضرورة مقاومته وإزالة أسبابه حفاظا على هيبة الامراء ، والرجال الاكابر ، وأضرب مثلا بسيطا ، عندما أردت انارة القاهرة بالفوانيس ، تردد كلام كثير حول الموضوع واعتبر واقعة عظيمة أدرجت في كتب التاريخ ، مما اضطرني الى الرجوع عن أمر انتويته ، وشرعت في البدء فيه ، هذا لم يغضبني قط ربما أخطأت الوقت ، لكن ما آلمني وأوجعني هذه الحكايات التي ترددت على ألسنة العامة ، وهم يحبونني ، مما دفع بي الى الظن باختلاق هذه الحكايات والنوادر ، وأنت كنائب للحسبة ونائب لي في جميع ما أتولاه من مناصب (قررت هذا أخيرا)، وما يلحق بي اليوم ، يلحق بك غدا ، ومما يمسني يمسك ، لهذا أرى أنك الوحيد القادر على مقاومة واخفاء هذه النوادر والحكايات حال ظهورها ولن أقبل عذرا ، فلا مستحيل يحول بينك وبين ما تريده .

واقبل مني السلام ، وأدعو معك أن يجعل الله هذا البلد آمنا .

(متولي حسبة الديار المصرية)

والي القاهرة

الزيني بركات بن موسى

عمرو بن العدوى

لا يدعه يغيب عن عينيه ، اذا بعد عنه ، عرف أخباره من أصحابه المجاورين ، يجلس هادئا بينهم ثم يسأل عنه سؤالا عارضا بلهجة يعرف الآن كيف يلونها تماما ، ألم ير أحدكم سعيد الجهيني ؟ ، يقول احدهم «خرج منذ الصباح» ، يجيب آخر «سعيد تعود الجلوس في مقهى قريب من جامع قلاوون» ، يقول عمرو «سعيد ابن حلال» ، يسكت ، منذ ايام خرج عمرو الى الطرقات يرى أياما نائيات يمسك فيها بجلباب أمه ، خرجا الى الحقول لينتزعا البطاطا ، رائحة الضباب لم تفارق أنفه رائحة الخبيز ساعة الظهيرة ، البوص ، وهج الافران ، جريه مع الأولاد عند مجيء نائب المحتسب ، نظرات الحريم المذعورة من الطيقان الضيقة ، خوف يضم القلوب ، عند سوق النحاسين يشم دخان المستوقد المجاور لحمام قلاوون تسوى فيه قدور الفول المدمس .

صباح الخير .. يرفع حمزة بن العيد الصغير يده .. «أهلا .. أهلا بالقمر ..»

منذ ثلاثة أسابيع يمر يوميا على حمزة ، يشرب القرفة بالحليب ، يدفع درهما كاملا بدلا من نصف درهم ، في أحد الايام تغيب عن المجيء ، في اليوم التالي أبدى حمزة جزعا ، تمنى ألا يكون لحقه مكروه ثم دعا له بطول الستر ، عمرو يجيء هنا في أوقات معينة ، يعرف من تتبعه لاخبار سعيد ، مواعيد حضوره ، قال مقدم البصاصين ، تردد سعيد الى مقهى حمزة ، أمر جديد لم تبلغ عنه الا أنت ثم قضاؤه وقتا في تدخين المعسل هذه علامة جديدة ثم ما الذى دفعه الى اختيار هذا المقهى بالذات ، تلك أمور لابد من ايضاحها ، في البداية حامت حوله الظنون ربما يتخذ الدكان مكانا للقاءات مريبة ، لكن الرقابة الصابرة المحكمة ، أثبتت أنه يقضي الوقت كله منفردا لا يتحدث الى أحد فيما عدا حمزة بن العيد الصغير ، حامت الظنون حول الألفاظ المتبادلة بينهما ، لكن ثبت أنها لا تعدو طلبه الحلبة ، أو تحية ، أو تبادل المودة ، وكلها ألفاظ لا تخرج عن حديث زبون وصاحب مقهى ، وان تميزت بود زائد ، أيضا طريقة طلبه للحلبة لا تدعو للريبة ، لا يقرن طلبه بأية اشارات خفية أو رموز سرية ، ربما تضمنت معاني دفينة تغيب عن اللبيب الفطن ، أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى مقدار ساعة أو ساعتين ، في مرة أخرى قال مقدم البصاصين «لابد من وجودك على مقربة من سعيد الجهيني» عمرو يعرفه ، ينام في الرواق بالقرب منه ، عالم بطبائعه ، بلحظات سروره ، ولحظات كآبته ، وما يصاحبها من علامات ، أو انقباضات وجه ، من هنا يمكن لعمرو لو راقبه جيدا تتبع اختلاجات وجهه ، ارتعاشات عينيه وحركات يديه ، ربما توصلوا الى شيء ، لكن لابد من الحذر ، بحيث

يجلس عمرو في مكان لا يمكن لسعيد أن يلحظه ، تساءل عمرو «كيف يمكن هذا والمقهى ضيق على صاحبه ؟ » هنا فرد مقدم البصاصين بين يديه ورقا عريضا ، به رسم للمقهى وما احتوى عليه من أوان ، ومقاعد منحوتة في الجدار ، أشار الى فجوة في الحائط قريبة من نصبة الفحم والحلبة والسحلب ، «هنا ستجلس» وسعيد لا يدخل إنما يبقى في الخارج ، تستطيع رصد حركاته بدون أن يراك ، لكن يجب ألا يأتي جلوسك هنا مرة واحدة من اليوم ، أذهب الى حمزة بن العيد الصغير ، عامله بمودة ، أجزل له العطاء ، كوب الحلبة عنده ثمنه نصف درهم ، أعطه درهما كاملا ، هل تحب الحلبة ؟ ياه .. نسيت عشقك للقرفة بالحليب ، الثمن واحد ، عموما ستأخذ مصاريفك كاملة أول كل أسبوع ، من اليوم ستذهب الى الدكان لمدة خمسة عشر يوما ، بعد صلاة المغرب في أي وقت بعد العشاء يمكنك أن تجلس في أي مكان تشاء . سعيد لا يأتي في هذه الأوقات ، في اليوم السادس عشر إذهب مبكرا الى الدكان ، أطلب الى حمزة بن العيد الصغير أن يبقيك جالسا في هذه الفجوة ، هنا .. ابق ولا تتحرك ، أظهر الحزن ، وعدم الرغبة في الكلام سيجيء سعيد .. سيجلس هنا ، هل ترى ؟ ومن مكانك ستراه تماما ، لن يتمكن من رؤيتك .. هل فهمتني ؟ أبدى عمرو تعجبا لدقة التفاصيل . سخط الدكان ومسخ ليبقى بهذا الحجم فوق الورق ، قال المقدم «توكل على بركة الله .. اسمع .. هل تحتاج نقودا ؟ » هز عمرو رأسه «خيرك يغرقني» بقيت يده معلقة بين يدى المقدم ، «ما أخبار الوالدة ؟ » كأن قصا مر الطعم ذاب في ريقه ، لا يعرف لها خبرا ، عندما رجع شيخ زاوية العميان ، أسرع اليه ، يعرف انها لابد سترسل اليه شيئا من البلد ، ربما أرغفة بتاو ، قدر مليء بالمش والجبنة القديمة تصل به الزمن الذى قطع المسافة بينهما ، عمرو لن ينسى أبدا صوت الرجل قال «لم أعثر لها على أثر ، قالوا في البلدة انها لم تمت ، منذ مدة بدأت تتحدث عن مجيء هاتف في المنام أنذرها بقلة ما تبقى من عمرها ، لابد من رؤية عمرو ولدها ، وحتى لا تشغله عن طلب العلم قالت لصاحبتها سكينة الدودة التي تصنع أواني الفخار ، الدودة هي التي تلقت عمرو عند ولادته ، فوق كوم برسيم أخضر قطعت حبل خلاصه «يادودة أنا سأسافر الى مصر لأرى كبدي» قالت الدودة «مصر بعيدة وأنت مارحت اليها أبدا» لكنها أصرت ، قالت لكل رجل في البلدة والنساء ، حتى الأطفال ، توقفهم في الطرقات وتحكي لهم عن ولدها عمرو ، ضرورة رحيلها إليه وتتمنى لهم أن يكبروا ويصبحوا مثله . أعطتها الدودة زوادة أكل ، في يوم صحت فلم تجد أم عمرو ، داروا عليها في غيطان البطاطا ، وملقة البطيخ ، لم يعثروا لها على أثر ، ولم يذكرها أحد ، بعد وقت قليل لم يحتجها أحد يوما ، إنما هي التي احتاجت الناس دائما ، تعجب شيخ زاوية العميان قال «ظننت أنها جاءت اليك» غامت عينا عمرو ، رأى أمه فوق طريق مترب مهجور يصل بين

قريتين ، تقطعه ترع ، حفر ، غابات نخيل ، ينزل عليها الليل لا تلقى ما تدفيء به معدتها ، تسأل القادمين والذاهبين عن الطريق الى مصر ، أحيانا يوقن عمرو بقربها منه ، ربما يلتقى بها فجأة ، هل سيعرفها ، ربما غيرتها المسافة ، ربما ضعف بصرها . فلا يمكنها رؤيته ، ثلاث سنوات لم يسمع لها حسا ، لم يلحظ ارتعاش هدبيها ، هو تغير ، تجيء لحظات يلوم نفسه لوما عظيما كيف انقطع عنها ثلاثة أعوام ، كيف .. لا فائدة ترجى ، جرح غرس نفسه فى كليته في قلبه لكن ماذا يحدث لو مرت في الطريق أمامه ، اثناء مراقبته لسعيد ، هل يقوم منتفضا ، كاشفا نفسه ، يعانقها ، يدرك سعيد ما يحاك له ، يعلم مقدم البصاصين بإفساد ما تم تدبيره ، عمرو ليس بمفرده في المقهى ، يعرف هذا تماما ، هناك عين أخرى ترقبه ، ربما حمزة ابن العيد الصغير نفسه ، ربما غيره ، شخص واحد ينفى عنه الشك هو سعيد الجهيني نفسه ، ومن يدرى ، ربما يتعرض لاختبار رهيب تمهيدا لتصعيده فى سلم البصاصين ، أبدى المقدم تاثرا واضحا ، قال هذه حالة أصعب من الموت نفسه ، قال انه سيوصي النواب في سائر البلاد بإبلاغه عنها . لابد من كشف أمرها ، في لقائه مع المقدم رأى تغييرا ملحوظا لا تخطئه عين فى طريقة حديثه ، معاملته ، لهجته أرق ، يبدى اهتماما زائدا عن الحد بشئونه الخاصة ، لا يهدد كالعادة ، هذا أفضل . عمرو أكثر قربا منه بعد اللقاء ، الآن يجلس منكمشا في الفجوة ، تعلم من المقدم ألا يمل ولا يزهق من مرور الزمن ، ربما دفعته الظروف إلى النظر من خلال ثقب مشربية يوما كاملا ، يرقب وصول إنسان بعينه قد لا يجيء ، عليه ألا يدع للضيق سبيلا إلا روحه ، بالفجوة رطوبة ، وفي القلب حنين إلى عجوز لا يعرف مكانها ، إلى أى أرض تمضى ، بأى أرض تموت ، لكن الحنين يجب أن يتوارى ، الآن يعمل ، يسعى من أجل عيشه ، لم يقربه حمزة كما رجاه ، جاء ثلاثة من مشايخ الكتاتيب التى تحفظ القرآن للصبية ، أحدهم يرشف السحلب بصوت مسموع .. تضايق عمرو ، ترحم أكبرهم سنا على أيام زمان عندما كان الصبية يسعون بأرواحهم إلى حفظ القرآن وتلاوته ، لكن الزمن ما عاد الزمن ، الصبى ابن العاشرة يجلس أمامك وكأنه قاعد على فرخ جمر ، ما يصدق الحصة تخلص حتى يهج ، قال أحدهم « والشقاوة .. أعوذ بالله منها .. » ، قال ثالث « هذه علامات الساعة » تساءل عمرو بينه وبين نفسه « ما الذى يقصده بعلامات الساعة ؟ » لينتبه ، صحيح أنه هنا من أجل سعيد ، لكن لابد من الإصغاء إلى ما يجرى ، ربما طلع بحديث له قيمته ، ربما وقع مصادفة على ما لن يقع عليه بالترتيب والتدبير . قال أكبرهم « أى والله .. لا أعجب لو أخبرنى أحد عن بغلة أنجبت » ، قال الثالث : أقصرهم قامة « نستعيذ بالله يامولانا .. لو حملت بغلة وانجبت لكان هذا علامة على انتهاء عمر الدنيا » قال غليظ الصوت ، « وما أدراك أنها

لا تنتهي » أصغى عمرو ، حديث طريف لكن له مغزى .. بأى سيم يتخاطب العجائز ؟؟ ، ليفتح أذنيه تماما ، عندما قابل مقدم البصاصين أول مرة قال له ، « البصاص المكين عبارة عن أذنين وعينين ، يسمع ويرى ، يحفظ وينقل ، حتى فى ساعات نومه » ، عشنا وشفنا بدعا لها العجب ، يعني الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلى الجامع إلا بقطعة الجلد هذه .. والله عجيب » ، قال قصير القامة « لم نسمع بهذا من قبل » آه لو يعرف عمرو أى الكتاتيب يديرون ؟؟ سيسأل حمزة عنهم آخر النهار أو غدا حتى لا يثير ريبته ، وحتى يثبت التزامه بقواعد البصاصة الصحيحة ، لو صح أن حمزة عين ترقبه ، انتبه عمرو إلى وصول رجلين من التجار ، دخل أولهما ، أشيب الشعر وهو يسأل ؟ « يا ترى هل خلع السلطان عمامته الخفيفة ، ولبس الكبيرة » قال الثاني ، « لو تم هذا فمعناه شفاؤه من مرضه لكن البشائر لم تدق بهذا » ، تساءل عمرو ، من أى حى هما ؟؟ في الناحية الأخرى أكبر الشيوخ « ومن علامات الساعة ظهور المسيخ الدجال » ، التاجر أشيب الشعر ، « أنا متأكد أنه ارتدى العمامة الكبيرة وقابل الأمير طومانباى » ، يقول ثاني المشايخ « والله أشعر أن المسيخ الدجال يسعى بيننا ، يدق قلب عمرو ، هذا خطير ، التاجر الصغير : لا أصدق أبدا أن السلطان ارتدى العمامة الكبيرة ، وإلا .. فأين البشائر ، آه .. أين البشائر ؟؟ » الشيخ أشيب الشعر ، « أى والله ينقصنا طلوع الشمس من المغرب » التاجر الصغير « عموما .. أنا لا أستبعد هذا .. ربما » دخل رجل رفيع أسمر حول رأسه عمامة صغيرة زرقاء نصرانى من أهل الذمة ، حمزة بن العيد الصغير حدث عمرو عنه ، لا يتحدث كثيرا ، إنتظار الكلام منه كنزول المطر فى بؤونه ، كل يوم يجيء أربع مرات ، مرة بعد طلوع الشمس بمجرد فتح الدكان ، وفى الضحى ، ثم العصر ، وقبيل إغلاق الدكان ، آه .. يضحك المشايخ ، هل فاته شيء ؟ أشيب الشعر يقول « سيمد الله فى أجلى حتى أشمت فى زمنى » يضحكون ، لابد أن يتذكر الجملة جيدا ، التاجر الصغير « اشترينا الأردب بدينار ونصف اضطررنا إلى هذا .. » ، تغير موضوع حديثهما ، النصرانى فى كل مرة يشرب كوبا من اليانسون بلا سكر ، يدخن كرسيين من الدخان ، لايدخن تبغ الدكان ، إنما يحمل معه كيسا جلديا متشققا مليئا بالتبغ الأصفر الجيد ، له رائحة لا مثيل لها لا يعرف حمزة من أين يحضره ؟ يتناول مقدارا معينا لا ينقص ولا يزيد ، يطلب من حمزة رص الكرسى ، يتابعه بدقة ، يبدأ التدخين ، ينفث الدخان من أنفه كأنه يتألم أو يعانى وجعا ، يحرك رأسه يمينا وشمالا ، يشكو شكوى صامتة إلى الشيشة ، يحدثها عن ظلم فادح حل به ، قرب انتهاء الكرسى ، ينظر إليه ، يسوى الفحم ، يضغطه ، يحيط الحجر بيديه ، يميل عليه ، ينفخ بفمه ، رجاء أخرس ألا تنتهى أنفاس الدخان ، يقول الشيخ قصير القامة

« أي والله .. أي والله » ، يرد أشيب الشعر « لكنني لم أصدقه قط .. أقسم الإيمان المغلظة لكنني لم أصدقه » ، حمزة حكى ما يعرفه عنه ، يسكن في وكالة الفراخ ، قرب خان الخليلي ، لا زوجة عنده ولا أولاد ، مرة رآه حمزة يبكي ، يبكي بدموع تنسال من عينيه سهلة لينة بلا ممانع ، بلا نشيج ، تساءل عمرو ، من أين يأتي بالتبغ ؟؟ ما الذي يجعله مهموما ؟؟ كأنه يتحدث إلى رجال اختفوا عن العيون كلها إلا عينيه هو ، آه .. سعيد يجلس أمام الدكان ، حضور مفاجيء لم ينتبه إليه ، لم يذكر رؤيته المفاجئة : هذا أمر يحسب عليه ، يقعد فوق الدكة ، أطرق ، عمرو يحاول تهدئة دقات قلبه ، حقا لا يزال الشوط بعيدا حتى يصل إلى حد الكمال ، أن يرى مهما يرى ، لكن مشاعره لا تتغير ، لا تتبدل ، هذه درجة راقية لا يصل إليها إلا كل بصاص مكين ، آه لو هناك حيلة ينفذ بها الإنسان إلى ما يدور في عقل الآخر ، لعرف البصاصون دلالة رعشة العين ، أي الخواطر دفعت الأنف إلى اختلاجة سريعة ، تراجع عمرو حتى ألصق ظهره بجدران الدكان .

★ ★ ★

نـــداء

يا أهـالى مصـر
نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر
انكشف المستور
منذ ستة شهور
تسلم الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القـاهرة
تسلم الأمير ماماى الصغير
وبعد أن قرره ، احتاط على موجوده
وظهر لديه ما قيمته ،
تسعون ألف دينار
وهذا يزيد عما طلبه السلطان
بعشرين ألف دينار
وقد سلمت الأموال ، جميعها
إلى بيت المال ،
ياأهـالى مصـر
أمر الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القـاهرة
بفرض ضريبة على بيوت الخطأ
ومنع تردد من هم دون العشرين عليها
حفاظا على الخلق ، والشريعة
يا أهـالى مصـر
بعد يومين ، يسافر الزينى
إلى جهات دمياط ، والدقهلية
لكشف أمورها

ودفع العربان عنها
وإقرار النظام بها
وسوف يقوم بأعماله فى غيبته
عبد العظيم الصيرفى
صراف الحسبة
ونائبها لشئون الأموال
وجميع الأمور ستبقى على حالها
وسيعاقب المخالف
يا أهـالى مصـر
تعهد الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القـاهرة
إلى مولانا السلطان
باستلام الأمير بكتمر الساقى أمير عشرة
واستخراج أموال المسلمين منه
ويقدرها الزينى بخمسين ألف دينار خالصة
غير ما يظهر
من المخبأ ..

★ ★ ★

عـاجـــل :

إلى مقدم بصاصى القـاهرة

فى يوم الإثنين ، فى الصباح ، حيث خرج الخلق يحتفلون بشم النسيم ، يمارسون اللهو والفرجة ، رأيت سعيد الجهينى ، وفى الحال تواريت عنه ، لم يكن بمفرده ، إنما تصحبه امرأتان ، إحداهما كبيرة السن ، اقتفيت خطواتهم ، من باب الخلق إلى حدائق بولاق ، وهناك لحق بهما شيخ معمم إسمه ريحان البيرونى ، اعلم بتردد سعيد على بيته ، وبدا سعيد ـ وأنا أقطع الشك باليقين ، والتردد بالثبات ـ مولها ، مدلها ، غارقا حتى أذنيه فى عشق إبنة الشيخ البيرونى ، وعرفت من أصحابى المجاورين أنه كثيرا ما يلفظ باسم « سماح » أثناء نومه وسماح هى إبنة الشيخ وقد أمضيا اليوم كله فى حدائق بولاق ، انفرد سعيد بها مرتين ، حدثها وحدثته ، وسوف أتابع ما يستجد .

عمـرو .....

نــــداء

يا أهــالى مصــر
يعلن عبد العظيم الصيرفى
صراف الحسبة
إن كل شيء على حاله
والأسعار كما قرر الزينى
وأى تاجر يتلاعب
دمه مبـــاح
حتى يرجع الزينى من غيبته

★ ★ ★

نــــداء

يا أهــالى القــاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بشنق بائع بيض على باب دكانه
لأنه زاد سعر البيض

★ ★ ★

نــــداء

يا أهــالى القــاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بقطع السنة ثلاثة شبان
ضبطوا يشيعون البلبلة

★ ★ ★

نـــداء

يا أهـالى القـاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بتسليم ثلاثة مغاربة
إلى الشهاب الأعظم زكريا
النائب الأول للحسبة ، ولوالى القاهرة
بعد ثبوت اتصالهم بابن عثمان
★ ★ ★

نــداء

يا أهـالى القـاهرة
يأمر عبد العظيم الصيرفى
بأن يفتح كل إنسان أذنيه
ويدل على من شك فى أمره
بوجود صلة له مع ابن عثمان
وله مكافأة
يا أهـالى القـاهرة
غـــدا ..
يتوجه الشهاب الأعظم زكريا
إلى جامع شيخون
ليؤم الصلاة
ويخطب فى المؤمنين
والجامع مفتوح أمام الراغبين
★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اجعل هذا البلد آمنا

« ديوان سر الشهاب زكريا بن راضي »

نبذة مرسلة بالحمام الزاجل

إلى الزيني بركات بن موسى متولي حسبة القاهرة والديار المصرية ، ووالي القاهرة ، إلى دمياط .

١ ـ من هو الشيخ ريحان البيروني ؟؟

هو الشيخ ريحان بن زيد محمد الأسيوطي بن عامر الفاضل أحمد بن إبراهيم ، أما البيروني فلقب لصق بالشيخ ، منذ أن درس علوم المنطق على يدى شيخ ضرير أتى إلى الجامع العتيق في أواخر عام ٨٠٥ هـ جاء من بلاد الشاه إسماعيل الصوفي ، اسمه الشيخ البيروني ولم يكن شيعيا ، أو منتميا إلى أى طائفة من طوائف الرافضة ، إنما هو سني متعمق ، عاش بمصر ولم يتزوج حتى مات عام ٨٨٣ هـ . دفن بالقرافة الشرقية مع العلماء الصالحين .

عمل الشيخ ريحان كاتبا صغيرا بديوان سر قاضي القضاة ، وفي هذه المدة قام بصياغة الحجج والفتاوى التي تصدر عن قاضي القضاة ، وأتقن عمله ، كما أتاح له هذا فرصة مشاهدة الأمراء وكبار رجال السلطنة عن قرب ، ومن قبل لم يرهم إلا في المواكب ، وعندما كان يلمحهم يتساءل ويروح عقله إلى بعيد ، هل يضحك هؤلاء الأكابر كبقية الناس ، هل يتبادلون النكات ، والقفشات ، هل يداعب الواحد منهم صاحبه ، يناديه بألفاظ الألفة والمودة ، تساءل كثيرا عن طريقة أكلهم وكيف يقدم لهم الطعام ، يغمض عينيه ، يرى نفسه مقربا إلى أمير كبير ، وقريب من مجلس السلطان نفسه ، لكنه لا يدرى ما يقوله لهم ، بل من الثابت فعلا ، وهذا دلت عليه شواهد وقرائن ، أنه تساءل إلى أحد أصحابه ـ في الفترة ما بين عامي ٨٦٣ هـ و ٨٧٥ هـ ـ عما إذا كان شخص مثل الأمير تمربغا أتابك العسكر وقتئذ ، يبول ويفعل كبقية الناس ؟؟ بل قال لصاحبه ، كيف يتعرى السلطان ويلفح الفراغ مؤخرته الضخمة عندما يعلو امرأة من حريمه ، يسيل ريقه ، يغمض عينيه وترتعش أطراف حنكه شهوة ورغبة ، واعتبر البيروني مثل هذه الأسئلة أمورا كبيرة ، تستحق مؤلفا ضخما ، تمنى لو نفذ إلى الأكابر العظام ، صاحبهم بادلهم الرأى في الزمان ، ما يأملون فيه ، ما يحلمون ، رأى نفسه يجلس إلى أتابك العسكر ، يدخنان سويا بعد عشاء هنيء ، يميل عليه الأتابك ، يسر إليه بسر لا يعلمه إلا هو ، أو الأمير الجوكندار

المحمدى ، يقص عليه حكاية خاصة جدا تتعلق بالسلطان ، ثم يطلب منه الا يفضى بها إلى أحد من الناس ، لأن السلطان لو عرف بتسربها لأطاح برقبة من حكاها ومن سمعها ، لا يتخيل مدى سروره وفرحته وعظمة بهجته عندما تفضى إليه اسرار لم يسمعها غيره ، أن يمشى فى شارع الصليبة ، سوق الليمون تحت باب الفتوح ، حوله الخلق ، باعة ومشترون ، فى عقولهم مشاغل الدنيا الصغيرة والتافهة ، اما دماغه هو فيعج بالأسرار ، وعندما يجلس باحد الدكاكين ، يشرب الحلبة أو السحلب المخلوط باللبن ، يرى نفسه وقد قضى الليل كله فى قصر امير كبير ، لم ينم ، لم ياخذ راحته وحقه فى النوم ، يضطر مع هذا إلى الذهاب إلى ديوان المكاتبات ، يصوغ الفتاوى والحجج ، هنا ، يشعر بعينيه مجهدتين فعلا ، بل يتثاءب عدة مرات ينظر إلى المحيطين به ، يلحظون كسله وتراخيه ، لو سألوه فسيوضح لهم فورا طوال الليل يجالس الأمراء ، ينادم الكبار العظام ، فيعذرونه ، ينتهزون لحظات راحته فيسعون إليه ، يطلبون منه رفع أمرهم إلى ذوى الشأن الذين يعرفهم ، يرجونه فى الوساطة وقضاء شئونهم ، فهو طيب القلب لا يرد محتاجا عن بابه .

تتكاثر عنده الفتاوى التى يعمل فى صياغتها ، يضيق بطلبات عبد البر ان يسرع ، يرى نفسه داخلا على الشيخ عبد البر قاضى القضاة ، يقف امامه ، عبد البر تاخذه الدهشة ، ما الذى غير حال مستخدمه ، نظراته جامدة ، عمامته كبيرة ، عطر وطيب يفوحان منه ، بهدوء يميل عليه الشيخ ريحان يطلب منه ببساطة الا يتعجله ، حسه منخفض ، لا بل مرتفع ، أبدا الافضل أن يكون منخفضا واثقا ، الفاظه بليغة ، سيقول لعبد البر أنه يطيل السهر مع الأمراء ، أنه من خاصة الأمير بكتمر ، ونديم منطاش ، ومستودع سر الأمير طومانباى نفسه ، اما الأمير تمربغا فلا يتوكأ إلا على كتفه ، سيفزع عبد البر ، تغشاه رهبة ، يخشى على نفسه ، يامر الشيخ ريحان بأن يعمل على مهله الا يتعجل ابدا ، أن يحل ويربط على هواه ، ليس بعيدا ان يامر السلطان بخلع القاضى عبد البر ، فيسعى عبد البر إلى الشيخ ريحان ليرجوه أن يشفع له عند السلطان حتى يرده قاضيا .

« حدث حوالى عام ٨٧٦ هـ ، وعمر الشيخ ريحان حوالى خمس وعشرين سنة ، أن عرف الطريق مع أحد أصحابه إلى بيت « سنية إبنة الخبيزة » قرب الفسطاط ، هناك قدمت له صبية فلاحة إلتقطتها من الطريق وعلمتها عمل الفاحشة ، والثابت فعلا أنها المرة الأولى التى ينام فيها الشيخ ريحان مع امرأة فى حياته ، فى أول مقابلة ، قال انه يشغل وظيفة خطيرة ، وظيفة وثيقة الصلة بالأمير اقبغا ، سألته الصبية من هو اقبغا ؟ فقال « اقرب الناس إلى السلطان ، فضربت البنت صدرها الجامد الناهض وشهقت « ياخراب اسود » ، ضم شفتيه حذرها من البوح بهذا السر

إلى صاحبة البيت ، رقبتها ستطير عندئذ ، وظيفته السرية ، تمنعه من الظهور علانية مع الحريم ، أو السعى إليهن ، وامرأة أى أمير أو كبير فى متناول يده ، بل يوقن أن الكثيرات منهن يرغبنه فعلا ، لكنه لا يستطيع ، وظيفته السرية تحوشه عن هذا ، وقبل الوظيفة هناك ضميره ذاته ، أثناء حديثه توقف مرات ، هز أصبع يده اليمنى محذرا إياها من البوح بما يقول إلى نفسها حتى ، خافت الصبية ، صدقت ماقاله ، خاصة انه أعطاها بقشيشا محترما تندر تناوله من أى واحد يخلو بها .

« فى كل يومى اثنين وخميس يمضى الشيخ ريحان إلى الفسطاط ، ومرة وجد الصبية متغيبة ، رفض مضاجعة أخرى برغم تحايل المعلمة سنية ابنة الخبيزة ، عاد ليجد الصبية متزينة فى انتظاره ، عندما تجرد من ثيابه ، تمدد بجوارها خبط جبهته بيده ، قال .. ياه .. خافت الصبية ، مالك ؟ أجاب ، نسيت أمرا مهولا كلفنى به الأمير منطاش ، يسكت لحظات ، مجرد سماعها هذه الأسماء ، طريقته البسيطة فى النطق بها ، تخشى وتخاف ، يتاسف قائلا واله أخطأت فى حقه ، منطاش كريم معى جدا ، جدا تصورى ، ويراعى حقى لكننى لا أعيره التفاتا ، لا أهتم به ، لكنه يجب أن يعذرنى ، مشاغلى لا تحصى ، أى واله لا تحصى .. وينفخ بفمه ، يضرب ركبته بقبضته ، الصبية لا تعرف ما تقوله ، وعندما تأخذها الحيرة تزحف إليه تلتصق به تقول « لا عليك يا حبيبى ما تغتم يا حبيبى » مرة ثانية يتمدد جوارها راضيا يضحك « يا سلام على طومانباى .. أما ولد » ، تتسع عيناها ، يحكى عن الأمير الدوادار كأقرب الناس إليه ، يذكر إسمه بلا تفخيم أو تعظيم ، تسأله « ماله يا حبيبى ؟؟ » فيقول « سهر معى طوال الليل .. ياسلام .. اما حكايات غريبة غريبة جدا » يصمت لحظات ، يقول « لكننى لا أعرف كيف جرى هذا ، كيف ؟ » ، وفى مرة تلقى حلمة ثديها الأيسر ، يمر على حوافه بشفتيه ، عادته المفضلة ، قالت الصبية وجسدها يختلج : سنية إبنة الخبيزة تعانى ضيقا وعسرا من متولى الحسبة - كان فى هذا الوقت على بن ابى الجود - قرر عليها زيادة فى الضريبة ، وتمنت لو أن الشيخ ريحان تحدث إلى أحد أصحابه المقربين الأكابر العظام ، هنا انتفض الشيخ ريحان عاريا ، وعرق الغضب يطق من جبينه ، « انت مجنونة .. ضاعت رقبتنا الآن ، هل قلت شيئا يا مجنونة مما أقوله لك لابنة الخبيزة ، إرتعش جلدها وقفقفت ، أقسمت بحياته عندها ، بآل البيت ، برحمة ابيها الذى لم تره قط إنما الصحيح أنها فكرت فيه ، هى لا تعرف من الأكابر غيره ، وبكت بين يديه ، حتى هدات ثورته ، وخفت حدته ، فقال أنا لا أمانع ولو كان الأمر معقولا لا يمسنى ، لكننى ماذا أقول لأى أمير من أصحابى ؟ هل أقول له إننى أريد إنصافا لإبنة الخبيزة .. سيسألون ، وما الذى عرفك بابنة الخبيزة ؟؟ آه .. عندما يتعلق الأمر بالعظام الأكابر أصحابى لابد أن توزن الأمور .

ألا تؤخذ كما هى .. » « وبقى الشيخ ريحان مبلبل الخاطر ، عندما يقابل إبنة الخبيزة ينظر إليها ، يحاول تلمس أى دلالة على معرفتها بما يقوله ، يخشى مفاجآته بسؤال ترجوه فيه التوسط لدى الأكابر ، ويقلت لسانها بحديث أمام المترددين عليها ، يفهم منه شيء عن أحاديثه المستمرة إلى الصبية ، عرف منها شخصيات بعض المترددين هنا ، موظفين في دواوين الأمراء عند المحتسب ، مشايخ ، بعض الأمراء الصغار يجيئون خفية .

حدث في هذه الفترة أن استدعاه القاضى عبد البر ، وعندما مضى إليه دارت في رأسه الدوائر ، ربما وصلت أخبار أحاديثه إلى عبد البر ، سيجازيه القاضى مرتين .. الأولى لذهابه إلى بيت من بيوت الخطا ، الثانية لكثرة تخريفه ، راح يجهز ما سيقوله ، سيرجو القاضى العفو عنه بسبب التردد على البيت فالألسن لا ترحم ، لكن ماذا يقول عن الأحاديث ، واختلاق الحكايات حول الأمراء ، قابله عبد البر مرحبا ، ابتسم في وجهه ، طيب خاطره ، وهذا ما لا يحدث أبدا ، فعبد البر عبوس دائما ، فظ اللسان ، غليظ القلب ، أخبره بمجيء الأمير سلامش الجمدار المختص بإلباس السلطان ، إذ يقف السلطان ويوليه ظهره ، يفرد ذراعيه فيقوم سلامش بإدخالهما في كم الرداء ، ثم يسويه ، وهذا منصب لا يصل إليه إلا صاحب ثقة عظيمة توفر الاطمئنان للسلطان ، بحيث يدير ظهره إليه ، ويسلمه نفسه ، قال القاضى عبد البر ، الأمير سلامش طلب منه شخصا موثوقا به ، ليحرر مكاتباته ، وبحث القاضى عبد البر كثيرا فلم يجد أخلص من الشيخ ريحان ، لكن حتى يتم الأمر ، عليه أن يبحث عن عروس صالحة يتزوجها ، فالأمير سلامش لا يقبل عزبا في قصره ، وقال القاضى عبد البر « ثم إنك لست صغيرا يا شيخ ريحان » .

فلم الشيخ ريحان وقبل القاضى عبد البر ، مشى في الطرقات يرقص فرحا وطربا ، أخيرا سيرى الأمراء والضيوف ، يحرر المكاتبات ، يطلع على أسرار الدولة ، تمنى لو قال هذا للصبية لكنها ستتعجب ، ألا يخبرها دائما بقربه والتصاقه بالأمراء والأكابر ؟ ! .

مضى في أفخر ثيابه وقتئذ إلى قصر الأمير سلامش ، بالغ كثيرا في إظهار علامات الأدب واللياقة ليوحى أنه خدم طوال عمره في بيوت أكابر ، انتظر مقابلة الأمير ، لم يلتق به ، قال لنفسه ربما انشغل الأمير بشيء عنه ، وعندما سأله نائب الأمير عن زواجه أخبره « تزوجت منذ أسبوعين » وفعلا كان قد مضى إلى أحد أقاربه واسمه المعلم محمود بن سلامة ، أحد تجار العدس في أثر النبى يمتلك ثلاثة مراكب سارحة في النيل تنقل له المحصول من الصعيد ، غير القلل والأزيار (مات عام ٩٠٩ هـ) المهم أثنى المعلم محمود على الشيخ ريحان حافظ كتاب الله وحارس البخارى ، وبعد أسبوع دخل على إبنة المعلم في داره بالفسطاط حتى يبحث له عن بيت يستقر

به ، وصار المعلم يقول « زوج إبنتي رئيس عند الأمير الجمدار » .

في قصر الأمير سلامش اتخذ الشيخ ريحان حجرة صغيرة في مبنى منعزل عن بناء القصر الأصلي ، حجرة مظلمة تضاء بقنديل ليلا ونهارا ، ثاني وثالث يوم لم يقف الشيخ بين يدى الأمير ، كذا الأسبوع الأول ، والثاني والشهر الأول والثابت فعلا عدم مثوله بين يدى الأمير قط .

عندما يلتقى به المعلم محمود بن سلامة يسأله عن صحة الأمير الجمدار وأحواله ، يهز يده ، يقول « والله .. صحته بالأمس كانت على غير العادة .. صحا من نومه فوجد عينه اليمنى ترف .. وهذا عنده فال سيىء فقضى بقية يومه مغتما .. » يبدى المعلم جزعا ، يزعق بصوته ليسمعه زملاؤه التجار يتحدث عن أمير كبير ، يتساءل : « ألم يقصده الطبيب ؟ » يقول الشيخ ريحان « وجاءه وفصد دمه .. » هنا يطلب المعلم محمود ـ بصوت عال ـ من زوج إبنته أن يبلغ سلامه إلى الأمير ، أن يخبره بدعواته الصالحات من اجل شفائه ، فيهز الشيخ ريحان رأسه ويجيبه ـ بصوت عال ايضا فهو يعرف قصد المعلم ، سأقول له .. والله حملني سلاما خاصا إليك .. أي والله » .

كثيرا ما يجيء إلى المعلم ، يزعق من بعيد « الأمير سلامش يهديك سلام الإسلام .. » ، يشرق وجه المعلم ، يبرم شاربه ، يتخلل لحيته بأصابعه ، « والله عندما ترى الأمير ابلغه سلامي » .

بدا هذا القول يؤلم الشيخ ريحان ويورثه حسرة ، لم ير سلامش بعينيه ، حتى نائبه لم يلتق به إلا مرة واحدة ، عندما تسلم وظيفته ، كل المكاتبات تجيئه يوميا مع احد الطواشية ، والثابت فعلا انه لم ير الأمير قط حتى عندما انجب إبنته الأولى « سماح » (انجبها عام ٩٠٢ هـ بعد ثلاث سنوات من زواجه . لم ينجب بعدها ، وهذا أمر يتكرر وقوعه بين قلة من الرجال) بل أرسل إليه الأمير سلامش مع نائبه دنانير وكسوة (بالضبط عشرة دنانير اشرفية وقماش اطلس ، وقميص زركش لطفلة صغيرة) .

بعد مجيء سماح بعامين (٩٠٤ هـ) غضب مولانا على الأمير سلامش ـ وهذه واقعة معروفة ـ عندما لم يحكم لف الشاش حول العمامة السلطانية الكبيرة مما أدى إلى فكه لحظة جلوس مولانا السلطان إلى قصاد الحبشة مما أوقعه في حيرة ، وتسبب في حصول كسفه للسلطان مما جعله يستدعي سلامش وحقق معه ، وبطحه ارضا وضربه حتى كاد يهلك لظنه ان واقعة عدم إحكام لف الشاش امر مدبر ، وأمر بإلقائه في المقشرة ، ولا يزال سلامش محبوسا حتى الآن بعد مضى ما يقرب من عشرين عاما على الحادثة .

يشاء حظ الشيخ ريحان ، أن الأمير سلامش أرسل ـ قبل حدوث واقعته ـ إلى الأمير طغلق ليحرر مكاتيب صادرة إلى بلاد اليمن ، وأثناء تواجد الشيخ ريحان عنده ، وقعت حادثة الشاش ، هنا عرض عليه طغلق البقاء عنده ، وارتضى الشيخ ريحان بالحال ، وتزايد سروره ، لاتصاله مباشرة بطغلق ، وخروجه معه أكثر من مرة . وأفضى إلى المعلم محمود وبعض خاصته أن بعض أصحابه من الأمراء والكبار أسروا إليه بما سيحدث مع سلامش ونصحوه بالابتعاد عنه ، وتوسطوا له عند طغلق الذى لم يكن غريبا عليه ، فأخذه عنده ، وعند ركوبه مع طغلق يحاول الاقتراب منه ، ويجول بنظراته في الطرقات متمنيا أن يراه أحد ممن يعرفهم ، وهو ممتط بغلة بسرج عال فى موكب طغلق ، وهذه مرتبة قل أن يدنو منها إنسان .

منذ سنوات جاء من بلدة جهينة ، شاب صعيدى يمت إلى الشيخ ريحان بقرابة بعيدة ، أقام في بيته فترة من الزمان ، حتى التحق برواق الصعايدة ، وللأمانة فلا نقطع بخلوه إلى سماح إبنة الشيخ ريحان خاصة أنها وقت وصوله لم تتجاوز سن العاشرة .

طبقا لما هو تحت بصرنا وسمعنا حتى الآن لا يمكننا تحديد التاريخ الذى بدأت محبتها تدب في قلبه ، ولكن بعد تحليل طريقة مشيته وأحاديثه معها يوم شم النسيم في حدائق بولاق ثبت عشقه لها والأيام لا تزيده إلا وجدا وصبابة مع أنه لا يراها إلا نادرا جدا (وهذا نثق به) .

الثابت أيضا جهل الشيخ بما يكنه سعيد لإبنته ، وحتى الآن لم تفاصيل أدق تصل بنا إلى لب الحقيقة وجوهرها الخفى .

(ديوان سركبير البصاصين ونائب المحتسب)
ونائب والى القاهـرة

« ختم »
(زكريا بن راضى)

نـــداء

يا أهـالى القـاهرة
يعلن عبد العظيم الصيرفى
عن قرب وصول
الزينى بركات بن موسى
متولى حسبة الديار المصرية
ووالى القـاهرة
بعد عودته من بلاد الصعيد
فعلى أصحاب الدكاكين
والمغنين
وأصحاب الربابة ، والرقاصين
الخروج لمقابلته
عند دخوله من الجيزة
ظهر يوم الثلاثاء بعد غد
ومن تخلف ، وقع عليه عقاب شديد
★ ★ ★

كـوم الجـارح .

مسافات لا أول لها ولا آخر فى عينى الساعى ، والمسافر على قدميه ، زاده عشق الذات العليا ، وجد يشده إلى أقاصى الأرض يعبرها متأملا العبر ، يرثى المبتدأ والخبر ، ما أوجع أحزان القلب فى بيوت خراب ، فى بلاد عامرة نسى أهلها الأول والآخر ، ما أعذب وقفة الملاح عند رأس قارب مفرود القلوع ، الكون بحر ، كله بحر ، المركب يميل ليعتدل ، يعتدل ليميل ، يزعق الملاح زعقة نابعة من فص الحنجرة ، أعمق الأصوات ، خلاصة الآمال ، ونهاية الآلام ، صرخة ملاح فى وجه خلاء لا بر له ، ولا يابسة تبدو ، لا يذكر الشيخ أين غالب الدوار ، أحاط فمه بيديه ، ومن شرايين القلب ، من حدقتى العين ، من خلاصة سر الكبد ، من لوعة المشتاق إلى آخر الآفاق ، من سنى العمر ، من بئر القلب الدفين ، من عذابات وجد قديم ، من بقايا عشق يتيم ، صاح زعقة واحدة ، ألغت الحشا ، خففت حمل البدن ، ولاح سر الباطن ، وكادت الحقيقة الأولية أن تفصح عن نفسها ، وسوست النجوم ، وألقت السماء دمعا ضنينا .

يا واحد .. يا أحد .. أين أنت .. نجنى ..

نجنى ..

لا يذكر إسم البحر ، عند طوافه بالدنيا لا تعنيه معرفة أسماء البلاد ، الدار كبيرة ، لا عرض بلديا لها ولا طول ، وتعليل النفس بالوصول إثم عظيم ، لا هذا العالم ، ولا العالم الذى يليه يحمل البشرى ، فى زعقته طرح السؤال ، عبر البحار السبعة ، الأراضى السبع ، تجاوز قاف ، واق الواق ، جزائر النساء ، ونفذ عبر بطن الحوت ، يرى بعينى وجده سدرة المنتهى ، غاية الأمل ، صوته الضعيف المخزون سمع هناك ، آه لو حوله بحر الآن ، آه لو يقف فوق الصارى الكبير يزعق ملتاعا ، تتجسد صرخته فى الهواء حبلا طويلا من هيام ووجد لكنها الآن همسة ، حيرة مقطرة ، استغاثة نجاة يهمس بها طائر ضعيف الجناحين . هاجر وحيدا فارتمى بلا رفقة ، لحظات كثيرة رآها فى حياته ظن الخلاص وشيكا وما يفصله عن الحقيقة الأولية ، خطوات قصار ، لكن الأحداث تميل فتعكر صفو الرؤية ، تخدش حياء النفس ، عبثا ، تلوح الأنوار الإلهية فى زمان كهذا ، محال أن يرق الجسد حتى يخف ، يشف ، الآن يرى أيامه البعيدة ، عندما رأى العالم مال بخده على الحجر الأسود ، داعب النمور الوحشية ، مص الزلط متلمسا رشفة رطوبة تنزع حراشيف العطش عن حلقه ، حديثه إلى برابرة غزاة يحلون لحم الإنسان ، آه لو يودع الثبات إلى الحركة ، يترك الركود

إلى ديمومة لا تنتهي ، طوال عمره لم تلجئه الاحداث إلى الخلوة الطويلة وهاهي ذي سنوات قليلة في موطنه تدفعه إلى حفر سرداب حفره بأصابعه ، فيه يغمض عينيه عن رؤية السجن ، يسد اذنيه عن اصوات البشر ، في أول العمر يكشف الإنسان عوج الدنيا فيحاول تقويمها ، لكن في آخره ، عندما يبدو كل شيء على حاله ، ولا امل في تحول ، في انقلاب ، حتى أولاده لا يدركهم ، عندما يربط ظهر سعيد الباكي ، يراه واحدا منهم ، لم ير أحدهم شابا ، في أول خطى الحق تزوج في خوارزم ، لم يكمل العام ، إنما رحل في وجه الجبل مخلفا وراءه الثرا ، لا يدري ، هل جاء الدنيا اولا ؟ في مدينة بشرق الصين ، في قرية فوق جبل شاهق العلو في الهند ، في جزيرة صغيرة في المحيط الشرقي الكبير ، كل ساكنيه أربعون نفسا ذكرا وانثى ، لم يضم واحدا من بنيه إلى صدره ، لا يعرف تعدادهم لكن قلبه خفق بحبهم ، بأي أرض مر عنده ثقة ، أنه عالم بأحوالهم يعرفون بأي أرض هو ، فالعالم كله واحد ، ربما رأى أحدهم في أسواق فارس المزدحمة ، في ميناء البصرة ، في ربوع كازخستان لا يعرفهم ويعرفهم ، لولا أن الدمع جف وهجر المآقي من زمن لشارك سعيداً البكاء ، اول مرة يراه باكيا ، طفل أتوه ، امور السوء توائم متلاصقة ، تأتي مع بعضها ، البصاصون لا يخفون أنفسهم الآن عند اقتفاء أثره ، منهم من يصيح بصوت عال بعد الاقتراب منه « امثل هذا يتزوج بقمر ؟ » يسمع هاتفا ينتهك إسمها « سماح » يلتفت براسه مفزوعا ، الكون كله يصغي ، اربع مرات أرسل مقدم البصاصين يطلبه ، أوامره لا ترد ، اما زكريا بن راضي ، الآن أمام المصلين بجامع شيخون ، يقرأ الفاتحة بصوت عال ، الناس تقبل يده تبركا ، تيمنا ، ومن القلعة ، رأس الدولة ، نخاعها الأمين ، تسرح البطاقة إلى بلاد ابن عثمان ، عرف ما يجرى في السر ، ما من همسة أو كلمة تقال ، إلا ويرسلها خاير بك وجان بردى الغزالي ويونس القاضي إلى ابن عثمان ، وليلة زواج سماح ، طاف سعيد ، طير لم يكتمل ذبحه ، كل هؤلاء الأكابر جاءوا إلى حفل العرس ، العريس ابن أمير كبير ترك الخدمة ومات منذ عامين ، شاب وأمامه مستقبل ، أحاطوا الشيخ ريحان ، الدنيا لا تسعه من الفرحة، يتمازحون معه ، يتباسطون ، والزيني بركات يمد مدة حافلة لعشاء الفرح ، أما برهان الدين بن سيد الناس ، فهو محتكر الفول الوحيد في مصر ، إذا سأل إنسانا قيل له ، وهل تأثر سعر الفول ، لم يزد طفافة من درهم ، ما من سؤال صعب إلا ورده المقنع جاهز عند الزيني ، وتبدو الأمور معقولة ، وما الإنسان إلا خلاصة زمانه ، لكن يحدث ان تتركز خلاصة الزمان في شخص بعينه ، يجمع الحسنات والسيئات ، الشيخ يرى خلاصة العكارة ، عندما بث أشجانه للشيخ الزاهد العابد بهاء الحق علوان (لم يتوقف بعد ، ومازال طوافا عظيما ، في كل ليلة يذكر إسم الله كل ليلة في موضع مختلف

بين أخرين ، السكون عند موته) ، قال الشيخ بهاء الحق كلما ظن نفسه تخفف من الأحمال والأثقال ، يرى الوهم ، كثيرا ما فكر في اعتزال الكون ، قضاء ما تبقى من عمره في السرداب ، لكنه يلوم روحه ، كيف يحوم الأذى في أرض هي أول ما لامست رأسه . اختارها راضيا لقضاء وقت ما قبل الخلاص الأبدى ، أن يرى البلد آمنا ، محال ، ما يراه بسيطا كالحروف ، مشروعا كالأنفاس ، في حقيقته محال ، هز الشيخ بهاء الحق رأسه .

« كلنا نحترق .. أنت في ثباتك ، وأنا في طوافي ، لكن إن مالت الروح عما رماه بها الزمان فقل علينا السلام .. »

★ ★ ★



● رسم : لودج دويتش

السرادق الرابع

وفيه يدبر الزيني والشهاب زكريا أمورًا شتى !

زكريا بن راضي :

سرح البريد بالبطائق والرسائل ، الى بلاد المغرب ، وصاحب فاس ، وملك الحبشة ، وامير البندقية ، والهند ، والصين ، فيما عدا دولة ابن عثمان ، الامور الآن لا تسمح لكبير البصاصين هناك بالمجيء الى القاهرة ليحضر اجتماعا كبيرا يضم كافة كبار البصاصين العتاة في هذه البلاد ، إذ يجتمع شملهم هنا ، يتدارسون الأمور والواجبات ، يتبادلون ما جرى لكل منهم ، ستتحدث كتب التاريخ عن هذا الاجتماع ، سيذكر في سطر ، ما يدور به ، سيظل خفيا مستورا ، لكن آثاره ستعم العالمين . لا يعلم اخبار الاجتماع فى مصر إلا إثنان ، زكريا بن راضي ، والزينى بركات ابن موسى ، صاحب الفكرة ، لأول مرة يحدث أمر كهذا ، لم يخف زكريا فرحته ، الزينى المح الى انه سيتعرف عند جلوسه إليهم ، طريقة كل منهم ، واسلوبه ، طبعا لن يقول اى واحد منهم عما يتبعه ويطبقه ، على زكريا استكشاف خباياهم بما يروق له من طرق ، حتى إذا ما دب العداء بين الديار المصرية وصاحب اى مملكة منهم ، يجد زكريا نفسه عليما بادق اسرار البلاد التى يعمل فيها ، مطلعا على طريقة بصاصيها ، مما يتيح له النفاذ الى ادق الأمور ، وهو بمجلسه هنا ، بالقاهرة ، عندما سمع زكريا افكار الزينى تساءل ، من اين له هذه الخواطر ؟ ؟ لكنه قال بعد إطراقة قصيرة ، هل تعرف .. منذ عامين انتويت تنفيذ هذا . أن أجمع كبار البصاصين فى العالم ، لكن المشاغل الهتنى ، خبط الزينى ركبة زكريا ، طبعا .. أمر كهذا لن يفوتك ابدا .. الآن يطوف الزينى بلاد الصعيد ، ينزل كل قرية فى جمع من رجاله الأشداء ونوابه حاملا الميزان والصنج . الزينى الآن يحتسب على الديار المصرية كلها ، يقيم العدل فيها ، اخبار جولاته تصله يوما بيوم ، نجح فى ضم رجلين من رجال الزينى ، لكنه لم يعثر على مخلوق واحد من بصاصى الحسبة ، بعد جولة الزينى فى الصعيد ، سيسافر الى دمياط ، من شهور تعهد للسلطان بدفع مبلغ معين من المال ، عن دمياط والمنصورة ، لا يذكر زكريا مقداره الآن ، إنما فى حدود ثلاثين ألف دينار ، بعد التعهد توجه عدد من الامراء الى الزينى ، قالوا فيما بينهم ، لو نجح الزينى وجمع الثلاثين الفا لأظهر لنا السلطان عين الغضب وقال : انظروا الى ذمم المسلمين

وكيف تكون ؟ ؟ قابلوا الزيني ، ابدوا إشفاقهم عليه ، دمياط والمنصورة لا تدر اكثر من عشرة آلاف دينار سنويا ، كيف الحال لو انتهى العام ولم يدفع الزيني مال السلطان . ثم ما الذى يدخل جيبه ؟ هل يرهق روحه ؟ يطارد الفلاحين عندما يسافر ، ويصرف ، ويشنق أرواحا ، مقابل ماذا ؟ رد الزيني قائلا لن اقتل ولن اشنق اى إنسان لأنه تأخر في دفع ما عليه ، إنما ساعذر كل مخلوق ناءت به الحال « سكت لحظات » ، قال أعانني الله على جمع مال السلطان و إذا كانت دمياط لم تدر في جميع العصور أكثر من عشرة آلاف دينار ، فساصلح امورها ، واستخرج منها ما لن يتخيله انسان » خرج الأمراء من عنده وهم في غيظ عظيم » ، ارسل زكريا خفية الى كل منهم ، لن ينسى ما قرره يوما ما قط ، ألمح اليهم بنية خبيثة يضمرها الزيني ضدهم ، هاجوا وطلعوا الى السلطان ، إتكوا عليه في الحديث ، ابدوا تعصبا ضد الزيني ، لكن السلطان خاطبهم بكلام يابس ، قال .. انتم هكذا إذا ما ظهر انسان يبغي العدل ، حاربتموه ، ولما زادوا عن حدهم قام الغورى هائجا ، رمى العمامة ، قال : « والله اخلع نفسي وتسلموها انتم خربة بورا ، الخزائن خاوية وابن عثمان متحرش بنا ، العامة لا يهداون ، وتجار الفرنجة ما غادوا يعبرون من الاسكندرية الى دمياط ، خسرنا دخلنا ، وعندما يظهر إنسان يتفنن في جلب المال ، نقف ضده ، ونمانعه ، والله هذا كلام لا يرضى مؤمنا ولا كافرا » زكريا نفسه حار ، كيف يجمع الزيني ثلاثين الفا من دمياط والمنصورة ، في الليلة نفسها قرر ان يمد مقدم البصاصين بدمياط برجال أكفاء يرصدون أساليب الزيني ، وما يستحدثه من بدع ، في الشهور الأخيرة ، لا ينكر زكريا إعجابه الخفي بخطط الزيني وتدبيره ، زكريا يقدر الناس حق قدرهم ، مهما بلغ كرهه لبعضهم ، كبير البصاصين في بلاد ابن عثمان مثلا ، عدوه الأول الآن ، لم يره قط ، لكن عنده أوصافه كلها ، ومزاجه ، درجة عشقه للغلمان والنساء ، قدرته على اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالمصائر ، في ديوان السر دفتر كامل عنه ، كان زكريا صاحبه دهرا طويلا مع انه لم يره ، زكريا يراه بصاصا من أعظم البصاصين قدرة ، منذ عامين انشا فرقة خاصة ، بعضهم يتحدث بلسان العثمانلية ، كأنهم ولدوا في القسطنطينية نفسها ، قسمهم الى فروع ، منهم من اختص بتاريخ ابناء عثمان وامزجتهم وأحوالهم ، آخر تخصص في امور الجيش العثمانلي وما يستجده من أسلحة ، زكريا يقدر تماما كبير بصاصي الدولة العثمانية خاصة بعد ثبوت امر قاطع كحد السيف وهو اتصال عدد من امراء المماليك بدولة ابن عثمان ، زكريا عندما علم بالأمر انزعج انزعاجا شديدا ، ليس لوجود مماليك يتصلون بابن عثمان ، هذا طبيعي ، سهل اكتشافه ، وإن لم يستطع كبير البصاصين العثمانليين هذا فلا يستحق منصبه ، زكريا انزعج لرتبهم ، منهم مثلا خاير بك ، وهو من اشد الأمراء قربا الى السلطان ، زكريا لم يبلغ السلطان ، لا بد

من جمع أدلة أكثر ، أمر بفك رسائل الأمير خاير بك لكنه لم يعثر على إشارة ، إذن توجد طريقة خفية تغيب عن بصاصيه حتى الآن يراسل بها العثمانلية ، الأدلة كلها شفوية ، حتى بعد توافر الأدلة القاطعة ، سيبقيها زمنا تحت يده ، ربما تجيء لحظة يشهرها سيفا فوق رأس خاير بك إذا بدرت منه بادرة، السلطان بلا أدلة ملموسة لن يصدق ، خاير بك تقرب جدا منه ، بل أعطاه ولاية حلب القريبة جدا من ابن عثمان ، لكن لا بد من التلويح لخاير بك بالأمر ، زكريا يحوم حولهم ، صحيح سيأخذون حذرهم ، لكن لابد أن يعلموا ، زكريا يعرف ويسكت ، ثمة فكرة بعيدة في قرارة العقل .. من يدرى ربما دارت الأمور واعتلى واحد منهم كرسيا ، زكريا يكره طفو الخاطرة الى وعيه ، يكره ما وصلوا إليه من خيانة أستاذهم ، والبلد الذى رضعوا خيره حتى صلبت عظامهم ، يقدمون ما فيه مطبوخا جاهزا ليأكله ابن عثمان ، هذا جرم يعلم به زكريا ، قليلة المعلومات التي تثير في نفسه شعورا معينا بعينه ، طالما تمنى دخول واحد من أمراء ابن عثمان في خدمته ، سيرحب به ، يجزل له العطاء لكنه بينه وبين نفسه سيحتقره ، لكن حتى الآن ، يتفوق عليه كبير البصاصين العثمانليين في هذا ، ضم من عنده أكثر من أمير ، وزكريا لم يضم أميرا واحدا مشابها لخاير بك وغيره ، عندما وصل اليه ما يفيد باجتماع الأمراء الباغضين للزيني ، تساءل عما يريدون ، هل يلتقون مع زكريا فيما قدره ، ما يسعى اليه بتأن عظيم ، لكن الخلاص من الزيني لا يتحقق بضربة خنجر ،ولا سائل يدس في طعامه ، ولا فرسان يقطعون عليه الطريق في الصعيد ، أو فوق مدق زراعى بدمياط ، أبدا ، الزيني تحدى عمره ، ما أسهل أن يتخلص منه الزيني بنفس الطريقة ، أمر لن تمنعه احتياطات زكريا ، عندما قرر القضاء على الزيني لم يقصد ذبحه ، قتله ، إنما الخلاص منه وهو حي يرزق ، يأكل وجباته ويضاجع نساءه ، يقتله لكن يبقى على حياته في الوقت نفسه ، هذا أشق وربما استنفد عمراً ، لكن الخلق لا يعاملون كلهم هكذا، رجل مثل الزيني لا يجود الزمان بمثله ، زكريا يزن قدره تماما ، يدرس أساليبه ويأخذ ما يخدمه منها ، حتى لو استعملت هذه الأساليب ضده هو ، راح زكريا يرقب الأمراء ، أطلق البصاصين في ركاب كل منهم ، كيف سيتخلصون من الزيني ، الآذان تنقل إليه أحاديث القاعات المغلقة ، العجائز يسعين اليه بالأخبار ، تزايد ضيق الأمراء عندما تسلم الزيني الأمير أزدمر الصغير ، تعهد باستخراج مائة الف دينار ذهبا خالصا منه ، فيما بينهم قالوا ، لو تركناه يفعل ما يشاء لدار علينا واحداً واحداً ، ننفضح في عيون العامة ، وتنزل هيبة المماليك في مصر ، وتذهب حرمتهم ، أيقن زكريا بخطورة الحال في الليل التالي ، خرج متخفيا الى بركة الرطلي ، وقتها كان الزيني يستعد لبدء رحلته الثانية الى بلاد الصعيد ، عند باب الفتوح ، تلكأت خطواته ، كيف قرر هذا ؟ أحقا يمضي الى الزيني يحذره من القتل ؟ يقترح عليه تغيير أماكن نومه كل ليلة في

بيت يحدده زكريا . يبث حوله العيون والأرصاد . في الوقت الذى يرصد فيه حركات الأمراء وسكناتهم . لا ينسى ما الحقه الزيني به من مضايقات . هل ضعف امامه اليست فرصته .؟ ابدأ هذه طريقة سريعة الخلاص اذا ما ذبحه الأمراء فسيبكيه العامة . ويتحسرون عليه . سيخطو بينهم ميتا اكثر من خطوه حيا يرزق . عندما قام الأمير طيبغا في زمن الناصر بن قلاوون . ونادى بالعدل وصار ينصر الفقير على الغني . ضايق الأمراء مضايقة شديدة . دسوا له السم البطيء ، لم يخف الأمر على العامة . بكوه بكاء مراً . لطموا الخدود . شقوا الثياب زمنا . صاروا يقولون فى كل صغيرة وكبيرة . لو طيبغا موجود بيننا . حتى عندما قام كبير البصاصين فى ذلك الوقت بتكليف العلماء لوضع كتيب ورسائل تذم فيه . إزداد العامة تمسكا به . صنعوا له بلاليق من الحلوى ، تباع في الموالد ولا تزال بلاليق طيبغا ترص فى دكاكين الحلوى كلما اقيم مولد لسيدنا الحسين ، او سيدى إسماعيل الامبابي او سيدى الليث او اى ولى اخر . لكن الأمراء اغبياء مناكيد لا يدركون هذا ، هل الحق الزيني ضرراً باحدهم كما الحق بزكريا ؟ زكريا لا ينسى ابدا ليلة تجمع الأدلة القاطعة حول امر طال تردده في قبوله ، رفضه الاقتناع بصحته ، ليلتها دخل عليها القاعة مكروش النفس ، مبهدل الثياب ، وعندما واجهها في ضوء النهار الخائن المتسلل من ثقوب المشربية ، أيقن صحة ما تردد في الاقتناع به ، عرف انه خدع ، هذا شعور لم يطأه من قبل ، حتى عندما بدا بصاصاً صغيراً ينقل كافة الأخبار ، كل الأدلة لم تقنعه لكن نظرة عينيها في تلك اللحظة أنهت التردد ، ذبحت الشك ، وتذكر بصاص مصر الأعظم الكازروني عندما امسك بأحد امراء الظاهر بيبرس ، وفصل اعضاء عن جسمه مبتدئاً بذكره ، اطال عذابه حتى لفظ الأمير روحه في خمسة واربعين يوماً ، بدا بحلق شعره الناعم المتسلل كالحقد في عروقه ، شوه الوجه ، حتى لا يرق القلب لتضاريس العمر البكر ، ادخل سن خنجره المحمي فيها اداره على مهل ، لم تتحمل فخمدت انفاسها بعد ليلة واحدة ، حزن عفي اوغل في قلبه ، والحزن إذ يعرف الطريق إلى قلب رجل مثله علامة ضعف غير مستحبة ، لام نفسه إذ تسرع بقتلها ، لكنها لم تحتمل قط ، بالغ في تعذيبها كان لابد ان يعرف منها ، اين ومتى نفذ اليها الزيني ، واستطاع ضمها الى صفوفه ، ادخلها بيت زكريا قبل توليه الحسبة باسابيع ، كان لابد ان يعرف منها اية ادلة على جماعة البصاصين التابعة للزيني ، قال مقدم القاهرة ، جماعة الزيني هذه اما محكمة البناء بحيث لا يمكن النفاذ اليها ابدا ، او غير موجودة بالمرة ، زكريا يثق من وجودها ، وإلا فإلى اى النفس تنتمي « وسيلة »؟ فعلا تسرع في ذبحها ، هل يوجد آخرون في البيت يسهلون اتصالها

بالزيني ، كيف كانت تنقل المعلومات الى الزيني ، لابد من رصد أهل البيت ، مراجعة المرات التي خرجت فيها وسيلة ، محاولة التعرف على دكاكين القماش والعطور التي قصدتها ، مع أي الباعة تحدثت ؟ أمور كلها سيتابعها زكريا بنفسه ، أمر « وسيلة » يجب ألا يشيع ، سبة في تاريخه . سيصير نادرة لبصاصي الأزمنة المقبلة ، أه لابد أنها أخبرت الزيني بطريقة نومه معها ، قشعريرة سرت في ظهره ، كأن الزيني ثالثهما في كل خلوة ، عيناه اللامعتان تتأملان مؤخرته العارية ، من يدريه ، ربما واحدة من حريمه الآن على اتصال بالزيني ، كلما خطر له هذا لا يقربهن . يتراجع عنهن ، هل الحق الزيني أذى بأحد مثلما الحق به ، مع هذا يطرق بابه* ليخبره بما دار بين الأمراء ، ليحميه ، عندما يقدم على حمايته يسن نصلا خفيا ، نصل لا ينثني ، الى قلب الزيني ، قابله الزيني بذراعين مفتوحتين ، بدأ الحديث عن أمور تحدث في الأزهر ، مجاورون كثيرون يجهرون بكلام في حق السلطان ، بل يتحرشون بسمعة زكريا والزيني نفسه ، قال الزيني « سأرسل لك أسماء المجاورين المشاغبين ، وبهذه المناسبة ما آخر أخبار هذا الولد .. اسمه . قال زكريا (سعيد الجهيني) . صاح الزيني « تمام .تمام .. » ابتسم زكريا « لا تفوتنا حركاته ، نحن أدرى به من نفسه ، بعد زواج حبيبته كان حزيناً جداً ، قلنا إنه سيلقي نفسه في النيل ، أو يشرب فصا ساماً ، ثم بدأ يكثر من الخلوة الى نفسه في مقهى حمزة ، أحياناً يجلس معه واحد الزيني « منصور ؟ » قال زكريا « منصور الركليبي ، عندي معلومات كافية عنه ، إنه أكثر تعقلا من صاحبه ، ويجيء منه الخير .. » أشار الزيني بيده « المهم .. لنرجع الى الولد سعيد » قال زكريا « إدمان الدخان ،والمشروب الجديد الذي وصلنا من اليمن .. القهوة ، وبعد زواج حبيبته بشهور بدأ يتردد على بيت سنية إبنة الخبيزة .. يروح هناك كل يوم ثلاثاء ، ولا ندرى السر في هذا » مال الزيني وأسند ذقنه الى يده ، « أكثر من إطلاق رجالك في أثره بحيث لا يكون الهدف رصد حركته ، إنما إشعاره أن هناك من يرصدها .. » هز زكريا رأسه « فعلنا ما هو أكثر .. أمرت رجالي باقتفاء أثره ثم النداء باسم سماح بصوت عال ، كاد يجن .. » ضحك الزيني « عال .. عال .. وأخبار الصلاة ؟ » ابتسم زكريا ، « يدى قبلة الشفاه .. » تزايد ضحك الزيني ، إسمع يا زكريا .. لا بد أن تحتل مكانة في قلوبهم أكبر ، غدا اركب حصانك ، دع رجلا من رجالك يرتدي ملابس فلاح ، وآخر من رجالك في ملابس مملوك ، ليضرب الثاني الأول ضربا فظيعا ، وطبعا يتصادف عبور موكبك هنا ترجل أنت أنصف الفلاح واقبض على المملوك ، أكثر من أشباه هذا يحببك الله الى قلوب الخلق ، وعندما يصل البصاصون يجدون لأول مرة في تاريخ الانسان بصاصا عظيما لا يتقن عمله فحسب إنما يحبه الخلق ،ويحترمونه ، هذا يساعدنا في نشر العدالة وإقامة الميزان .

سكت زكريا ، الفكرة أعجبته ، كاد ينسى ما جاء من أجله ، هل يدرك الزيني غرضه فاثر شغله بالحديث ، هل يؤجل الحديث عن الأمراء ، وإذا جهل الزيني قصة مجيئه سيضطرب ويحار ، ويتساءل عن السبب في مجيء زكريا ، تاخذه ظنون شتى ، غير أنه قال فجاة بعد لحظات صمت أثقلها ضوء خافت من شمعدان وحيد ، أنت يا زيني ستقتل .. » ، أصغى الزيني ، بعد يومين ، عندما تجول زكريا في حديقة بيته ، تراءى له وجه الزيني ، ثم قيامه المفاجيء ، عناقه لزكريا ، لمح فعلا دموع التأثر في ركني عينيه ، قال « مثلي لا يمكنه العيش بدونك يازكريا » ، في البيت لاحظ زكريا ميلا خفيا الى الزيني ، خاصة بعد قبول الزيني الذهاب الى المواضع التى حددها زكريا ، ونومه تحت حمايته ، لكن ، هل يصفو قلبه تجاه الزيني ، أبدا . الاستسلام أو الرجوع عن القرار القديم مذبحة يعدها زكريا لنفسه ، حتى يؤكد لنفسه ثباته على قراره القديم ، بدأ في استنبات بذور مشروع قديم مدفون في عقله ، أرسل في استدعاء « أبو الخير المراقع » ، أبو الخير بصاص قديم عمل زمنا في أقصى الصعيد ، منذ أيام وصل القاهرة ، يقول متباهيا ، في حياتي خربت عشرات البيوت ، هدمت عائلات ما ظن أحد قط أنها ستهدم ، إذا حام أبو الخير حول إنسان فلابد أن يطرحه أرضا ، خاصة اذا وصل الى علمه استقرار أمر هذا الانسان أو فرحته بعياله وامرأته ، يهوى إحالة الفرح حزنا ، والسرور قهرا ، والغنى مذلة ، دءوب في اغلاق البيوت وإفساد سعادة الناس وفرحتهم ، يرقص طربا لحظة طلاق امرأة ، زكريا يتأمل وجهه المسحوب ، حدبته ، ينظر الى تقوس ظهره ، عيناه تنظران الى فوق دائما ، من لحظة الى أخرى يدفع أبو الخير الهواء الى أنفه بقوة ، كأنه يعاني ضيقا ، يتساءل عما سيحدث في اللحظات التالية ..

★ ★ ★

نـــداء

يا أهالى القاهرة ..
نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
ينهى اليكم
الزينى بركات بن موسى
متولى حسبة الديار المصرية
ووالى القاهرة
والمتحدث عن الوجه البحرى كله
أنه سيخطب يوم الجمعة
ويكشف للخلق فى أركان الأرض
حقيقة الحال ، وسر ما قيل وما يقال
فإذا شئتم الاطلاع على الحقيقة
فاذهبوا الى الجامع الأزهر
يوم الجمعة
بعد الصلاة ..

□ □ □

ذو القعدة : ٩٢٠ هـ

مقتطف « حـ »

من مشاهدات الرحالة البندقي ، فياسكونتي جانتي ، الذى وصل القاهرة للمرة الثانية علم ٩١٧ هـ واقام بها ثم رحل الى الشام وبلاد الحجاز ، ثم عاد الى القاهرة ، واقام بها ، وفي هذه المرة كان قد تعلم لغة اهل البلاد ، فلم يعد بحاجة الى مترجم عربي .

★ ★ ★

« لم ارتد ملابس تاجر تركي ، خاصة لن الأهالي والشرطة يتعقبون كل عثماني ربما امسكوه ، يسلمونه في أحسن الأحوال الى كبير بصاصي الدولة ليعاقبه عقابا مريرا ، ليقر اى معلومات كلف بجمعها وإرسالها الى ابن عثمان ، نزلت ممسكا عصاقصيرة ادفع بها اذى الكلاب عني ، رأيت المدينة تغلي . من النادر جدا تواجد الأهالي خاصة النساء بعد العشاء في طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التي يشرف على نظامها رجل قوى ، متمسك بالدين وفروضه ، له هيبة عظيمة عند الناس ، وهو محور هذا الغليان ،لااقصد الزيني بركات . لم يعمر رجل مثله في وظيفته مع ان الأوضاع هنا سريعة التقلب ، وهناك من يتولى منصبا في المساء ليخلع في الصباح ، رأيت المشاعل معلقة امام الدكاكين فقط ، رأيت عجوزا يجلس بجوار جدار قديم ؟ اراه في الليل والنهار ، لا يرعش طرفا . كانه بروز حجرى على هيئة إنسان واذكر انني رايته في زيارتي السابقة ، لا يتغير ، بودى لو أرقبه ، اعرف متى ياكل ، متى يفك قبضته عن العصا ، إمرأة بدينة تجلس امام قفص كبير ، فوقه البقدونس والجرجير ، رجل يبيع حلوى لذيذة الطعم من الدقيق والسمن والسكر ، يحبها اهل الشرق ، إسمها بسبوسة ، إشتهر في القاهرة عدد من الباعة يتقنون صناعتها اذكر منهم رجلا قصير القامة ، اعور قبل المغرب يخرج من بيته إلى ناحية حارة لا يسكنها إلا العطارون ، يقف جامداً ،يتوافد اليه الناس رجالا واطفالا ونساء ، لايزعق احدهم ، اذا علا صوت رجل يطلب الإسراع لتلبية طلبه ، هنا ينظر اليه ويشير اشارة واحدة موجزة « إمش .. » ، ولا يمكن ان يبيع له ابدا حتى لو تردد عليه مرات ، وعندما يقطع البسبوسة ، يمد يده بسكينة قصيرة سلاحها عريض مثلث ، حركات يده مرسومة محددة ، كانه يشكل الذهب ، ينحت المرمر ، تخلو الصينيةالا من فتات حلو متناثر يلمع فوق طبقة رقيقة من السمن كالأشعة الصفراء ، بالسكين يجمع الفتات ، يلمه الى حافة الصينية ، في اللحظة التي ينتهي من تجميعه ، يجيء رجل عجوز طويل رفيع معصوب العينين ،

يمشي منسربا لا حس له ، يحمل طفلا صغيرا لا يبكى ، يعطيه البائع الفتات ملفوفة فى ورقة صغيرة ، يضم الحامل الخشبى المثلث تحت إبطه ينصرف ، احببت الوقوف قريبا منه ، أراقب يديه ، وجهه الجامد ، لم أذهب اليه بعد ، محلات الأكل كلها مفتوحة ، تسمع وانت تسير امامها اصطدام الأطباق والأوعية ، تتصاعد روائح الطعام . السمك المقلى . الفراخ المحشوة بالبصل . السنبوسك . وهو نوع رقيق العجين . يشكل فى مثلثات محشوة باللحمة . تقلى فى السمن حتى يحمر العجين . من بعيد . ترتفع اصوات . تدور وتتجه جماعة نجارين يركبون عربات تجرها الدواب . يصفقون . يكبرون مهللين . يرددون في إيقاع منتظم « ابن موسى .. ابن موسى » لم أميز بقية ما يقولون . من آن الى آخر ترتفع صيحات هادرة عن جماعة . تبتعد كلماتهم شائهة مضطربة . تغيب ، فجاة سمعت من يقول . « ابن موسى لا يأتى مرتين في زمن واحد » . رد آخر « لو جاءهم من يصلح أمرهم لابد أن يخلقوا فيه العيوب » ، العجيب أننى سمعت بالأمس رجلا عجوزا يقول عند دكان عطور قديم فى الحمزاوى « ظهور ابن موسى علامة من علامات خراب الدنيا .. أنا أعرف عنه ما يقشعر الأبدان » لكن الحضور نظروا اليه ، سكتوا لحظة . تسابقوا في الثناء على ابن موسى . كانهم يدفعون عن ارواحهم أذى مكتوما . ينفون استماعهم الى العجوز . أى أمر محير هذا .لم أر مثله فى أى البلاد . الناس تحب شخصا بعينه ، كل لسان يحمد سيرته ،يثنى عليه ، فى الوقت نفسه يسرى شيء خفى . شعور لا يبين فى الأرواح والجماد رهبة خفية من الزينى ، لا تبدو على وجه بشر إنما ترى بعيون خفية ، هذا أمر حيرنى فعلا وأربكنى ، سمعت طبل المنادى ، إذن سيخطب ابن موسى فى الناس غدا . المدينة ساهرة ، لم أر فارسا مملوكيا واحدا ، عرفت من خادمى أن ضررهم بلغ حدا فظيعا لا يحتمل ، منذ عام كامل الخروج بعد العاشرة مغامرة ، أهالى الحارات يغلقون أبوابها ويعينون منهم من يجلس وراءها ، وعندما تزايد الأذى ، طلع ابن موسى الى السلطان وشفع فى الناس ، قال : « الدنيا ستخرب إذا استمر الحال على ما هو عليه ، من خطف نساء وذبح أبرياء » ، واستجاب السلطان لرجاء الزينى وأمر بمنع المماليك من مغادرة ثكناتهم العسكرية والنزول بعد العشاء إلا بإذن خاص ، أمر بمنع أى مملوك من ارتداء لثام حول وجهه ، لم أعاصر هذه الفترة فى مصر ، لكن أخبرنى خادمى باستمرار الدعاء ثلاثة أيام فوق منابر الجوامع للزينى بركات ، ولم يحدث هذا لأى إنسان من قبله ، حتى أمر ابن موسى بمنع هذا . أخبرنى خادمى بذبح ثلاثة شبان فى هذه الفترة بسبب ذمهم ابن موسى ، ذبحهم العامة بأيديهم عندما قال الشبان ما يفعله الزينى مشكوك فيه ، هو الذى أثار المماليك ، حتى يطلع الى السلطان ويشفع فى الخلق ، وعندما يمنع السلطان مماليكه ، ينادى ابن

موسى بالكف عن الدعاء له . رجعت الى بيتي وفي رأسي دوار . بلا شك هنك أمان يعيش بين الناس وادعا . لم تفارقني ضجة الناس . لهوهم . في اليوم التالي قمت من نومي مبكرا . صعب علي دخول الجامع . لو فرض وامسكوني فساطلب عون الزيني . ما من أجنبي خاصة الفرنجة يدخل مصر إلا ويسجل اسمه والناحية القادم منها . هذا نظام جديد لم يتبع في زيارتي الأولى . لو سألني عما افعله في المسجد ساخبره بطوافي . برغبتي في رؤية الدنيا . ابن موسى سيفهمني . لابد من لقائي به هذه المرة . لم أره إلا في موكبه يوم مشيه في موكب اعدام سلفه بأغرب طريقة قتل رأيتها . الرقص حتى الموت . قلت لن يفوتني سماعه . فلأدخل المسجد . لمحت رجالا يرتدون ملابس زرقاء ياقاتها صفراء . يقفون بين المصلين . يرقبون حركاتهم . يزداد عددهم كلما اقتربوا من الصفوف الأمامية وحتى أمن على نفسي جلست ملاصقا لأحدهم لم أخطيء في القيام والركوع . أعرف الصلاة هنا اهون من قرى الهند والمعابد والعادات التي لا تنتهي . بين الناس سرت همهمة . دوائر تتسع . تتسع بعد إلقاء حجر في مياه ساكنة . تعلقت العيون بالمنبر الخشبي . وفوق السلالم الخشبية طلع حاكم القاهرة . محتسب الديار المصرية . الزيني بركات بن موسى . أصغيت مرهفا . حديثه عامي اللهجة . وهذا يخالف الأصول على حد علمي . اضطررت الى إحاطة اذني حينا بيدي حتى أسمع ما يقول . بدأ لينا ثم علا . سمعت مجيء الزيني الى وظيفته . حرصه على إقامة العدل . وإقامة العدل في العالم امر محبوب للبعض . مكروه لآخرين . كانت الفرصة مفتوحة امامه . ينهب الأموال ويكنس اليواقيت . اللؤلؤ والمرجان . كما فعل الأولون . وكما يفعل الآخرون . لكنه أبى خوفا منه وحده (يقصد الله) . وها هو ذا لا يمتلك اكثر مما يقيم اوده . وقال إنه تعهد بتقديم المال عن جهات معينة . وتمكن من استخراج أضعاف الأموال التي تدرها هذه الجهات عادة ولم يشك إنسان . أو يتضرر . لم يصادر فلاحا فقيرا يعمل بها . لم يتسبب في خروج بعضهم عن بلاده . وضع حدا لهجمات العربان على بيوت الفلاحين . هذا ما تم في الريف . أما الضرائب هنا فهل شكا منها مخلوق ؟ لقد الغى العديد من الضرائب . وهنا تمهل صوت الزيني . استمع الناس الى سر من أسرار السلطنة لا يجرؤ مخلوق على قوله . كان السلطان ينوي فرض ضريبة جديدة (وهنا علا صياح الناس . حماك الله .. حماك الله) . لقد شاءت رحمة السلطان وعدله أن يستجيب لشفاعة ابن موسى . فيلغي ما عزم عليه . (حماك الله .. حماك الله) . وما قيمة الشفاعة إذا لم تجد صدرا رحيما كصدر السلطان يتقبلها . وبعد نزول الزيني من القلعة . نزوله يوم سبت وسفره الى الصعيد للاطمئنان على الأحوال (هنا توقف الحديث وبدأ التأثر في لهجة الزيني) . سرى هياج بين الناس . لاحظت صدور

أصوات من مكان قصى فى المسجد ، أما الرجال المرتدون الملابس الزرقاء فبدأوا يقتربون من بعضهم البعض ، ثم يتفرقون ، لكن ليقفوا فى مواضع غير أماكنهم الأولى فى الظهيرة ، ظهيرة السبت طلع الى القلعة هذا الرجل ، سامحه الله أبو الخير المرافع ، أبو الخير الذى خرب فى عام واحد ثلاثا وثلاثين أسرة ، ابن موسى لا يذم أبا الخير ، إنما يذكر وقائع مدعومة بدلائل لا تقبل الشك ، الذين خربت بيوتهم أحياء يرزقون ، أما اليتامى فيشهدون على آباء رحلوا قبل الأوان ، من أخبره بهذه التفاصيل ، من أوضح له حقيقة أبى الخير المرافع ؟ إنه نائبه المخلص الأمين ، نائبه الذى يغار على العدل كما يغار على أهل بيته (أشار بيده الى أول الصفوف) انه زكريا بن راضى ، وتطاولت اعناق الناس ليلمحوا زكريا لكنهم لم يستطيعوا فزعقوا (أبقى الله زكريا . أبقى الله زكريا) اقترب الرجال ذوو الأردية الزرقاء من ركن المسجد ، يبدو أن شغبا يجرى . علا صوت ابن موسى ، رأيته يضرب صدره بيده ، أبو الخير المرافع افترى عليه ، تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينار من الزينى بركات ، بعد أن يتسلمه ويجرى عليه العذاب . (زعق الناس .. لعن الله أبو الخير .. لعن الله أبو الخير) . لكن السلطان بما أوتى من قوة بصيرة ونفاذ سريرة . هل يدرى الناس ما قاله السلطان . أولا .. أمر برج أبوالخير المرافع فى القيد الحديدى ، قال له هل تظن أننى لا أدرى ما يمتلك ابن موسى . سأحكى لك حادثة بسيطة . عندما انعقد مجلس السمر الليلى . تأسف الأمير ملماى الطبردار (أى حامل الطبر والفأس) . وقال ، حتى اليوم كنت أظن ابن موسى واحدا من الأثرياء والمال عنده كاللولب يديره كيفما شاء لكنه جاءنى . وكان مضطربا زائغ العينين . طلب منى قرضا قيمته .. تساءل السلطان عن قيمته . تأسف السلطان ثانيا . قال خمسة دنانير .. أى والله خمسة دنانير . قال السلطان ، هل تظن شخصا يرسل فى طلب قرض كهذا تستطيع اخراج آلاف الدنانير منه . ثم لماذا ستون ألف دينار . آه .. ابن موسى أدخل إلى خزائنى آلاف آلاف الدنانير . لم يأخذ منها درهما لنفسه وعندى عيونى التى تخبرنى بكل كبيرة وصغيرة فى بيته (هنا علت همهمات من أقصى المسجد ، وسرت همسات بين الناس) فوق المنبر وقف ابن موسى صامتا .. رأسه مطرق ، يداه تضمان طرف عباءته السوداء . وصاح الناس مطالبين بعضهم بالسكوت ، رأيت الناس فوق سطح المسجد المطل على الصحن الداخلى يروحون ويجيئون . ثم ظهر ثلاثة رجال يلبسون الملابس الزرقاء يدفعون الرجال الذين يختلسون النظر الى أعلى . أيقنت جمال المنظر لو صعدت فوق المئذنة الجديدة التى بناها السلطان الحالى هنا ، تشبه مئذنة ذات الأربع رؤوس والمنبثقة من جامعه الجديد فى أول سوق الشرابشيين . هذه المئذنة أدمنت النظر اليها . المرور من

تحتها . يتساقط فوق روحي وهج رخامها الملون . عصور سحيقة أراها في الصباح . أعود إليها وغبار العصر يغطيها فالقي منظرا جديدا . أجلس في دكان مشروبات قريب من الأزهر ، أرقبها تغوص بقمتها ، برؤوسها الأربع في الليل . حتى تندمج بظلامه . أخشى عليها من ضياع . أرجع اليها من جديد . لم يتحدث ابن موسى إلا بعد هدوء الضجة . « أعذروني إذا رويت لكم فيما رويت بعض أسرار بيتي . »

أنتم أخوتي .. يا أخوتي ..

هل سرقت واحدا منكم ؟ ؟

(تالفت الحناجر .. تسد الفراغ ..)

حاشا لله ..

هل أتيت فاحشة ؟؟

لا ...

هل ظلمت واحدا منكم ؟؟

وتداخلت الأصوات . علت ، رأيت ابن موسى يشير بيديه ، عندما هدأ الناس تقدم رجل قصير يرتدي قميصا من الجلد ، أجهدت نفسي محاولا سماع الرجل . لم أستطع ، عندما رفع ابن موسى يده كان هذا الرجل يشكو ظلما وقع عليه ، أحد رجالي ضربه لأنه كان يمشي حاملا قربة من الماء فهو سقاء وسط الطريق وهذا يعرض ثياب المارة للبلل ، وتساقط الماء فوق الأرض يغطيها بالطين ، وهذا يخالف الأصول التي وضعها المحتسب بالنسبة للسقائين ، ومع هذا لابد من رد حق السقاء . اعتداء رجل من رجال ابن موسى على أي إنسان بضرب غير شرعي . مرفوض . لن يقبله المحتسب أبدا .

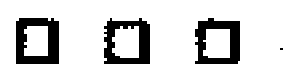
« بعد الصلاة تعال عندي ، أخبرني عن المكان الذي مشيت فيه . وسأحضر أمامك رجالي كلهم المتواجدين فيه ، ولابد من رد حقك إليك » .

وفي لحظة بعينها ، قبل تهليل الناس ، انطلقت صيحة من أقصى المسجد . انطلقت في هفوة صمت ، تخللت حديث الزيني ..

« كذاب .. » .

هنا لم يصدق ابن موسى ، صوت نشاز ، لم أخف تعجبي ، الحق أنني لم أر مثل الرجل طوال سني عمري التي قضيتها راحلا عبر البلاد ، تزايد إعجابي بابن موسى ، عندما عاد إلى إطراقته ، لا يتكلم إلا إذا ساد هدوء ، لمحت ضيقا خفيا حل به ، طبعا لابد أن يضيق بهذه الصفاقة ، ربما وصل أعداؤه ليفسدوا عليه حديثه الى الناس ، مرة ثانية أشار بيده الى الصف الأول ، تابعه المخلص الأمين الشهاب زكريا بن راضي (دام زكريا .. دام زكريا) هو الذي قبض بنفسه على أبوالخير المرافع تسلمه وحبسه ، لا لأنه طلع وترافع في حق الزيني ، ابن موسى فكر في العفو عنه

يكفيه معرفة السلطان بالحق وأهله ، لكن الشهاب الأعظم سيذيقه ما أذاق الآخرين ، ابن موسى لن ينثني ، لن يتراجع عما يراه عدلا ، السلطان معه . وقلوب الناس تحميه ، فليات أعداؤه بما يشاءون . كل ما يرجوه ، أن يمضي اليه صاحب المظلمة وإذا ثبت انه ظلم مخلوقا ، فسيقبل أي قصاص يقع عليه كأي مخلوق. (علت ضجة من نفس المكان الذي انطلقت منه الصيحة) . بدأ ابن موسى في نزول درجات المنبر الخشبي . صاح البعض « الله أكبر . الله أكبر . الزيني . زكريا . قواك الله وحماك » ، دق بعض الدراويش كئوسا نحاسية وضاعت الأصوات التي علت تشوش على الزيني . لم أخف بهجتي . وازداد إصراري . لابد من لقائي به قبل سفري ..



نـداء

يا أهالى القاهرة
نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر
اليوم نبشركم
بقلع السلطان الصوف الأسود
وارتداءه اللباس الأبيض
مع دخول الحر
يا أهالى القاهرة
امر الشهاب الأعظم ، زكريا بن راضى
نائب محتسب الديار المصرية
نائب والى القاهرة
بشنق ابى الخير المرافع
وسوف تبقى جثته ثلاثة ايام
عبرة لمن اعتبر
ودرسا لمن جاء ومن غبر
يا أهالى القاهرة
ممنوع على دكاكين المشروبات ، والحلوى
السهر بعد العشاء
ومن ضبط مخالفا
عوقب بخمسين جلدة
يا أهالى مصر
جاءت الأخبار
بوقوع معركة
بين فرساننا الأشاوس
ورجال ابن عثمان
وقتل فرسان سلطاننا
أربعين فارسا عثمانيا
وهذا أول دم يسيل
فانتبهوا يا أهالى مصر
يا أهالى مصر

□ □ □

نــداء

يا أهالى مصر
نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
أمر من مولانا السلطان
بتعيين الزيني بركات بن موسى
ناظرا للذودخاناه
ونائبا للدوادار الكبير
الأمير طومانباى
فلزم التنويه والتنبيه
يا أهالى مصر
من سمع أحدكم بعض أعداء الدين والملة
يقع بالكلام فى حق السلطان*
أو حق واحد من الأكابر
فعليه بابلاغ الأمر
الى نائب الحسبة
الشهاب زكريا بن راضى
وله الجزاء ، والمكافأة
ومن سمع وسكت
قطع دابره بغير معاودة
فاعلموا
وعوا ..

□ □ □

في القلب جراح صعبة الاندمال ، النفس غابة أسنة وحراب ، مرشوقة لا تنتزع ، لا سد يوقف الأسى المنثال ، يذوى الأول والآخر ، يضيع المثنى والمفرد ، التاء المفتوحة نهاية النهاية ، موت الآمال وليد فراق الأحبة ، أما الأماني فتنأى ، في أول العمر يهتف خاطر خفي دفين ، جبينك لم تدركه الغضون ، صدى وسوسات النجوم . يشد الأرض الى السماء . قلوب الخلق تنهج بالمر والبلوى . لكن صبرا . مهلا . بعد سنوات ستجيء الأيام السعيدة . لن يستقر الأمر على حاله . أول العمر يغمض عينيه فيرى أياما مقبلة . وربيعا فتيا يخرج الخلق بمأمن من عبث المماليك . لا يدركهم خوف من هجوم المنسر . أو كبسة مفاجئة من بصاصين يسعون في أثر إنسان . لا يحب الانسان مرتين . أول من يخفق لها القلب . لا تنفى ضرباته . لا تصرع خفقاته . لا تنتزعه من الصدر وتسلمه الى منقار طير جارح . يلهى به أفراخه الصغار . في الزمان المرتجى أطفال صغار لا تعرف لغاتهم لفظ الخوزقة . قطع رقبة . وباء . في الوجوه صفاء اعتاد رؤيته في وجه مولاه الشيخ أبو السعود . لن يطول انتظار هذا . يقول لنفسه خمس سنوات .. خمس سنوات لاغير . وتمضي الأيام وتنأى . يسأل ملتاعا . ألم تمض السنون الخمس ؟ ربما بعد خمس أخرى ، أبدا أبدا . حتى أمنيته العذبة . أن يصبح له سكن مستقل يغلق ضبة بابه . دورة مياه لا يشاركه فيها أحد . حتى هذا صعب ومحال . يقول منصور صاحبه : جئنا الى الدنيا وسنمضي عنها فنحن لسنا بمعمرين وسنترك آخرين يأملون في قدوم الأيام السعيدة . يا سعيد لماذا نخدع أرواحنا ؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر . ياسعيد إنما نأتي شيئا إمرا . بعد خمس ثم خمس أخرى . الأصابع تنثني لا تلاحق ما يمضي . وسبع وعشرون سنة مضت . عطن الدنيا أبدى . عبث الجان بالخلق لا ينتهي . الظلم كنيران المجوس لا ينطفيء ..

* * *

الطريق الى بيت الشيخ ريحان لايعرفه الآن . في الأيام الضائعة انغلق . ضبة المفتاح تلغ في قلبه . قال منصور . في الزمان دواء عظيم اسمه النسيان . أحيانا تمضي أيام معدودات تخف فيها حدة الأسى . يهتف باله المكدود . هاهو ذا الدواء يسري لكن في لحظة بعينها . أى وقت من أوقات النهار أو الليل . ربما في جلسته الصباحية المعتادة عند حمزة بن العيد الصغير . في رشفة معينة من كوز الحلبة . في صحن الجامع عند إصغائه الى الدرس . فجأة يحط عليه ثقل عظيم أوردة قلبه

يتدفق منها دم معتم يظلم الروح . يذكر لحظة بعينها تنفر آلامه جامحة . يهب واقفا . ما العمر إلا حلقات نحاس محمية . تكوى النفس . ما العمر إلا ذكرى طويلة اليمة . تدثره . تزمله . ترى في أى الأفلاك منقذه ؟ اى العوالم الأرضية تخفيه ؟ اى النجوم تخفف البلوى . او تنبئه بها قبل مجيئها من بعد قصي . أى قمقم يغوص فيه هربا من عصره . من دنياه لا يفتح إلا فى الزمن السعيد الآتى . يفتحه صياد بسيط فيخرج منه شعاعا . يخرج منه روحا وصفاء . يهبه الحياة . والحب الضائع . يؤويه الصياد ، تضمهما الأبدية . لا يضل الطريق إلا من احب . اما زمانه هذا فلا يقبل ما يجود به القلب الحنون . لا يجفف دمعة أم على إبنها القتيل . لا يبدد الهجر . لا يحيي موات الأمل . لا يجفف الجراح الطرية . ابدا . ابدا . يقول سعيد . ستأتي الايام السعيدة . يصيح منصور . متى ؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر العنيد ؟ يا سعيد لا شفاعة للخلق ترجى . حتى لو اتانا الحبيب المصطفى . وحاول ملء الارض عدلا وسلاما . من بعد ان ملئت ظلما وجورا . يا سعيد انا مقطوع الأمل من المهدى المنتظر . لو قام ناطق الزمان . لو ظهر . لو جاء من الكعبة يشهر سيفه الذهبي . سيتصدى له زكريا . سيحرمه دخول الديار . سيقبض عليه ويرميه فى المقشرة . الحقيقة الوحيدة فى الدنيا . الحقيقة الأولى والاخيرة هى المقشرة . المقشرة . وما عداها باطل . لا بل والشهاب والزيني وسنيه إبنة الخبيزة . أه . يصغى سعيد كثيرا الى منصور يتأمل كلماته . يلفها يقلبها ويعدل حروفها ، منذ ايام طلع الى المئذنة الجديدة ، راى السواد يلف المدينة لا حس فى العلو الشاهق ، الفراغ بحر بلا قرار ، خال من المحار والاصداف ، راى نفسه وحيدا ، اول الخلق فى الدنيا ، رأى نفسه ينتزع ضلعا من ضلوعه ، تجيء سماح ، حلقه ضلق بلعابه ، وانفاسه ، أرسل الما كالصهد ، شفت روحه وخفت ، تحررت من اسر الجسد ، علت جناحاها دموع صافية ، نجوم الأعالى خرساء ، تقول حديثا خفيا غير منطوق ، لا يسمعه مخلوق ، اه ، اليس على حق ؟ إذن لماذا لا يتجسد دعاؤه صاعقة منزلة ، تزلزل الأرض زلزالها ، ينكشف الزبانية الملتحفون بقفاطين ملائكية ظاهرها الخير وباطنها الأذى ، سداها الشر ولحمتها الضرر ، يؤمون الصلاة ، يعتلون المنابر ، أرسل دمعا صادقا ، كطلوع النهار ، رأى بعينى عقله سماح الرقيقة ، التى تساءل يوما ، أحقا تمضغ وتاكل ، وتاتى ما ياتيه البشر ؟ رآها عارية تماما ، يخور فوقها لوطي عارى المؤخرة ، يصول ويجول في أرض كانت حراما ، يحرق عشبها ، يجتز التين والزيتون ، يحصد غلتها ، يطفيء وهجها ، تذكر يد سماح ، يدها الصغيرة ، رقيقة كهمسة ، كبيت شعر اتقنت صياغته ، احتواها في يومه اليتيم الناسك ، عند خروجه معهم للنزهة ، شم النسيم ، هذه اليد الرقيقة لابد أن تتحسس الظهر الخشن

المنحنى فوق النبع الغزير ، أما الشيخ ريحان فلا حديث له إلا عن زيارة العظماء الأكابر ، ليلة العرس همس إليه الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ، جاءه بعدها الزيني بركات ، يسأله عما قال الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ضحكة متواضعة وبسط راحته فوق صدره ، « إعفني يازيني من البوح بما قاله ، لا أبوح بما استوثقني عليه » ضحك الزيني ، قال ، أتعرف أنها المرة الأولى التي يميل فيها الأمير سودون على إنسان ويهمس إليه بسر ، طاش عقل الشيخ ريحان ، طغت عليه الفرحة ، إبنته زوجة لنجل أمير قديم ، في عروقه تجرى دماء الأمراء والعظماء والأكابر ، آه ، أى فائدة ترجى من اجتلاب هوام الأفكار ؟ أى نفس خربة ، معطبة يضمها بين ضلوعه ، أهذه روح لم تعش إلا سبعة وعشرين .

* * *

لا يبالغون في إخفاء أنفسهم ، يجهرون بالظهور أمامه ، يعبرون الطريق أمام دكان حمزة . كثيرون يروحون ويجيئون ، لكن سملتهم الخفية لا يخطئها إنسان ، ربما ظهروا فجأة ، ربما في هيئة عجوز فلاح فقير يمشي الهوينى ، نظرة خاطفة من عينيه ، تشي بحقيقته ، تقول من هو ؟ ما الذى دفعه الى المرور من هذا المكان بالذات ؟ ربما إمرأة شابة ، ربما عجوز بلغت من العمر قصيا ، الأطفال حتى ، أطفال لا حصر لهم ولا عد يخدمون الشهاب ، يفسد الابن على أبيه ، لا يصدق إلا شهادة الطفل ، من هو دون الخمس السنوات ، وهذا أمر مستجد لم يعهده أحد من قبل ، سعيد لا يمشي مع صاحبه منصور ، سيقتفون أثره ، يجهدون أنفسهم في النفاذ اليه ، سعيد يعلم تماما ، حركاته ترصد ، أنفاسه تحصى . يتحدث كثيرا في الرواق في المسجد ربما فسروا حديثه . أضافوا اليه مالم يقصده . الغريب أنه سمع بعض المجاورين يسبون الأمير طشتمر جهارا . قال . ربما من البصاصين . لكنه سمع مجاورا شاميا من أهالي حلب يقسم بصحيح البخارى . أن الأمير خاير بك يراسل السلطان العثماني في الباطن . يخبره بأحوال الخلق في الشام ومصر . ينقل اليه الصغيرة والكبيرة . وارتفعت الأصابع تتخلل اللحى . في العيون حيرة . أى بلاء قادم . أى مصائب تحوم ؟ ما أدهش سعيد . ليس اتصال خاير بك بالعثمانية . ربما فكّر في واقعة كهذه ، أمر قريب ممن لا أهل له ولا يد . لكن ما روعه . اللهجة التي قيل بها الكلام . أى الخواطر ترقب عقولهم . في وقت طويل رأى نفسه حامل الثقل الفادح . لا أحد يعينه عليه . حتى منصور صاحبه . إذا سئل عن أصحابه وزملائه . قال لافائدة منهم ترجى . أتاهم المماليك على غفلة فعملوا فيهم ما أحالهم الى طواشية لم يعرف مثلهم على مر الأزمان . طواشية ينجبون خصيانا . يعمرون بطون النساء . لكنهم بلا الستة . معلمهم بصاص ومربيتهم سنية ابنة الخبيزة . الآن يسمعهم

يجهزون بما يتردد هو في التصريح به . ما الذي جرى ؟ هل أدركته الشيخوخة . هل يمتد مشفر الموسى الى فؤاده . الى وجدانه . الى لسانه . يروح بين حلقاتهم ويجيء . يصغي . الأخبار تدور . رسل السلطان يعودون من بلاد ابن عثمان ، بهدلهم ، انتهك حرمتهم ، حلق شعر كبيرهم الأمير مغلباي وشكه في الزناجير . كاد يقتله لولا شفاعة بعض عقلاء العثمانلية فيه ، الحرب أمر لا جدال فيه . قصاد ملك الحبشة يطلعون القلعة . الناس يتفرجون عليهم لغرابة هيئتهم . جان بردى الغزالي . يسافر الى نواحي الشرقية يلعب بالسيف في رقاب الفلاحين ، يقتل الآلاف حتى تسد الترع بالجثث ، موت رجل عجوز كان فريدا في صنع البسبوسة ، بموته اختفي صنف لا يعوض ، لم يعط سره لانسان . الزيني بركات ينوى الخطبة في الناس ، هل تعرفون ربما كان بعض الأمراء وراء طلوع أبو الخير المرافع الى السلطان وطعنه في الزيني .

* * *

الجامع يفيض بالمصلين ، عبير الوضوء والحصير القديم ، يطلع الزيني المنبر ، لحظة بعينها تجيء فتتغير كل شيء الى مسار مخالف ، فوق المنبر الخشبي يرى خروجه مع سماح يوم شم النسيم ، ادراكه نهاية فرحته ، يوم كامل تحدث اليها ، لم تغب شمسه ، يراه الآن معطلا من الأمل ، تضج في اذنيه الكلمات ، يصغي الى اصوات العرس ، ليلة أن ذبح ذبحا ولم يفتده جبريل عليه السلام ، لم يبكه قلبه ، بل هام كالأبرص ، يرى الدنيا ثقبا ضيقا ، تقدم له جرعة ماء ، عندما حالوا بينه وبين الجرى ، سفكت دماؤه فوق صحراء ، اجتز البوح من صدره ، الزيني يتحدث من فوق المنبر ، ابن سيد الناس يتجر في الفول كما يهوى ، الشفاه تتسابق في تقبيل زكريا ، لمس طرف عباءته ، الرجال امام الدكاكين يهزون رءوسهم ، يضيقون عيونهم ، يا سلام هل رأت القاهرة رجلا مثله ، انظروا الى ورعه ، الى تقواه ، لن يأتي الزمان ببصاص كهذا ، الزيني يخطب الناس ، في صوته لين ومسكنة ، هل سعى في زواج سماح ، لماذا حضر العرس ، باى غرض ؟ اين المرأة العجوز التى تطلع بين الناس ، تصيح بكلمتين فقط في وجهه ، منذ مدة طويلة لم يرها احد ، لم يسمع عنها مخلوق ، ربما قتلها ، ربما نفاها عن الدنيا ، قالوا إنها تذهب إليه في المساء ويبكى بين يديها أمام باب بيته ، وإنها تخبره بما جرى وما سيجرى ، بما سياتي به الزمن ، لكنها الوحيدة التى تصرخ فيه ، سعيد سمعها باذنيه في اول موكب ، منذ سنوات عندما رقص طربا ، مال فرحا ، الناس يجارون بالدعاء ، (حماك الله) ، (دام زكريا .. زكريا) ، فليقل سعيد ما قالته هي ، كتفاه تنوءان بحمل هم عظيم ، الحجارة تثقل صدره ، لكنه لا يرقد في هجير مكة ، لا تلسعه نيران الرمال ، لا يهتف كبلال ، كعمار

ابن ياسر ، احد ، احَد ، مصرٌ لا يلين كزرد الحديد وعنف السلاسل ، احد احد ، قلها واطلق صيحة الشهادة ، (عاش زكريا دمت يازيني) ، ما الذى بقى ليحرص عليه ، زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا ، سدنته البصاصون ، كاتم سره عمرو بن العدوي ، ليطرد كهولة ما قبل الأوان ، ليسترد شباب العمر ، ليرفع المشفر الحامي عن اللسان .

« كاذب »

لحظة هينة طنت في اذنيه ، ذوو الأردية الزرقاء والياقات الصفراء ، زرقاء ، صفراء ، نفذ السهم ، وتجمدت اليد في الهواء ، فوق المنبر .

« كاذب »

لا يخاف الهجير ، لتغرقه نظرات الاستياء ، السقائين ، الحدادين ، المرخمين ، البنائين ، الفحامين ، النجارين ، الخبازين ، البصاصين ، ليزحفوا إليه ، هم لا يعلمون ، تتدحرج حجارة الصخر والجبل ، لا يهم ، لو ذبحوا إبنه بين يديه . ولو ، لو منعوا الماء عنه ، لو اخذوا الراس وعبثوا بالشفتين . ولو سبقه الحسين الى احتمال شرف العذاب .

« أنت تكذب » ..

اهو الصدى ؟؟ أبدا . ربما . عجيب . محير . أصوات أخرى حز الخوف فيها لكنها تنطق معه في حس موحد شهيد ..

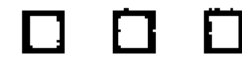
« أنت تكذب . »

« أنت تكذب . »

* * *

مقدم بصاصى القاهرة

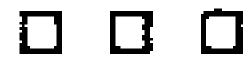
الآن لا يرى ما يقوم به رجاله . لكنه يعرف ما يجرى . لم ير وجه سعيد ويعرفه تماما . لكثرة ما قرأ عنه . يعلم أمورا تخصه لا يدرى بها سعيد نفسه . يود لو أسرع الوقت حتى يراه . الوجه الذى قرأ كثيرا عن صمته . هنا سيعرف كل اختلاجة طافت به . ما الذى يجعل وجهه صامتا دائما . لا يتحدث كثيرا . هوايته القديمة رؤية اللحظات الأولى فى وجه إنسان أحيط عمره بقيود . عند الباب الخارجى سيقدم إليه نصف كوب ماء . يشربه معصوب العينين . أى تأثير يحدثه هذا ؟ يقول الشهاب الأعظم . يجب أن تكون الخطوة التى يعبر فيها الانسان عتبة أبوابنا حدا فاصلا بين عهدين . عندهم ينقسم العمر الواحد قسمين . بحيث يخرج الانسان من هنا يحمل نفس الاسم لكنه فى حقيقة الأمر شخص آخر » .



كوم الجارح

جذع دومة قديم عتيد يحاط بسياج من حديد ، مدينة وثنية ترجم ناسكا ، بغداد الاسلام تلتف حول منصة عالية فوقها المنصور ، الحسين بن منصور الحلاج ، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال ، اللسان الشهيد لا يكف ، أنا الحق ، أنا الحق . تعلو اليد الغليظة ، ساعدها مغطى بالجلد المرصع بفصوص الحديد . يهوى السوط فوق الجسد النحيل ، أدرك صاحبه الأحوال والفروع ، كلت يد الجلاد من الضرب ، قطع ذراعى الحسين ورجليه ، الابتسامة فوق شفتى العابد الزاهد ، توحى بالظاهر والباطن ، ووجهه ملطخ بدم ذراعيه المتدفق لا يتوقف ، لا يكف ، إنما يندفق من سخاء مبين ، مال المشفر الحامى ليجتز اللسان ، فى الليل انتثر رماد البدن المحروق فوق دجلة أما الرأس فنفى الى خراسان ، تجمعت بغداد ، أغرقت الحسين بن منصور ، ما الزمان هنا إلا امتداد هذه الأيام الثقيلة الفانية ، ظل لزج لا يروح أبدا ، الخير مسكوب والشر باغ والعهر طاغ ، إلى أى الأرجاء يأوى ، إلى أى السبل يلجأ ؟ حيرة غير متوقعة ، غير مرجوة فى نهاية المطاف ، سعيد أرجف قاع روحه ، أضاعوه ، أصوات المدينة تتباعد ، ما أحوجه الى غيبة ، الى إحاطة الروح بجدران الصمت ، الى استرجاع الأيام البعيدة ، ليدرك سر الابتسامة الجماد ، بينما اليدان مذبوحتان والرجلان ، يحاول لم الرماد ، يسأل

الروح ، أى سر ، انصرف منصور تطارده أشباح الزمن الخائن*. منصور يرتعش ، يرتجف ، ربما جاء ليلتمس الأمان ، لكن أى أمان ، في قفاه عينان لايراهما مخلوق ، تكبلان رؤيته ، تحددان طريقه ، منصور نقل ما يقوله الناس « مولانا اختار الزيني وثبت أركانه ، فأى شفيع له يرتجي ؟ » ، آه لو يطلق صيحة الخلاص ويمضي ، لكن الى اين ؟ حتما سيلقى المسيخ الدجال ، الى أين ؟ الى السرداب الذى حفره بأظفاره ، أهذه نهاية المطاف ؟؟ آه .. سقط في كمين متقن ، أعده باغ بعناية .



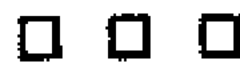
مقتطف من مذكرات الرحالة الايطالى فياسكونتى جانتى ١٥١٧ م ٩٢٢ هـ

فيما يبدو ، قدر لى أن اشاهد خلال هذه الرحلة — الثالثة — الى الديار المصرية ، أحداثا كبيرة ، بعد وصولى من بلاد السودان بأيام ثلاثة ، نزلت المدينة ، عرفت خروج السلطان الى الشام لمحاربة سلطان الديار العثمانية ، سمعت المؤذنين يدعون لسلطان البلاد بالنصر ، وقيل لى أن القاهرة ارتجت رجا مهولا يوم السبت ، وتحسرت فعلا لوصولى بعد خروج موكب السلطان على رأس جيشه قاصدا الشام ، وحتى لا يفوت أهل بلادى وصف الموكب ، وللأمانة فإننى أنقل عن صديقى الشيخ محمد أحمد بن اياس ، وهو من أهل العلم المعروفين فى القاهرةوصاحب تاريخ طويل عن الديار المصرية ، أتمنى لو أتيحت لى فسحة وقت أعرف به أهل وطنى ، وحضر ابن اياس — برغم كبر سنه — خروج السلطان ودون ما رآه ، وسمح لى بنقل ما كتب ، يقول صاحبى ، ابن اياس ..

(.. أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى ، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة ، وكان السلطان راكبا على فرس أشقر عال ، بسرج ذهب وكنبوش وهو لابس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمئة مثقال ذهب بندقة ، وكان ذلك اليوم غاية فى الأبهة والعظمة ، فإنه كان حسن الهيئة ، تملأ منه العيون ، مبجلا فى المواكب ، ثم أقبل السنجق السلطانى ، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانلى وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش ، فدخل من باب زويلة ، وشق القاهرة فى ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة فى ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام الذين خرجوا كلهم ،

ولم يبق منهم إنسان في بيته ، وبدت وجوههم مرعوشة تأثرا وانفعالا ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان ، فاستمر في ذلك الركب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا .

وفي أعقاب ذلك نزل حوايج خاناه ، فيها مال وذهب وفضة قيل ان ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته الى أن خرج في هذه التجريدة ، وفرغ ايضا حواصل الذخيرة عن آخرها ، وأخذ ما فيها من التحف والهدايا ، والات السلاح الفاخرة مما كان بها من ذخائر الملوك السالفة ، من سرج ذهب وبلور وعقيق ، وكنابيش زركش ، وغير ذلك من التحف الملوكية . فنزل جماعة من كتاب الخزانة صحبة الحوايج خاناه وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الحوايج محملة على خمسين جملا ، قيل إن جميع هذه الأموال أودعها الغوري بقلعة حلب ، وفي يوم الأحد سادس عشر ارسل السلطان مناديا للعسكر في القاهرة بأن السلطان يرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر (طبقا للتقويم الاسلامي) ، فلا يتأخر أحد من العسكر الذين عينوا للسفر ، ولا يحتج احد بحجة أو عذر ، فلما أقام السلطان في الوطاق ، وعين السلطان بعض القضاة والأعيان ليتولوا المناصب وأحوال الناس خلال سفره ، فاستقر بالقاضي محمود بن أجا في كتابة السر ، والقاضي علاء الدين بن الامام في نظارة الخاص ، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان مستوفيا لديوان الانشاء الشريف ، والقاضي الزيني بركات بن موسى ناظرا كعادته للحسبة الشريفة ، وواليا للقاهرة ومتحدثا عن جميع انحاء مصر ، وأضيفت الى مناصبه الجليلة استدارية الذخيرة.





● رسم : بجادور كاسبرو

وتوافد كبار البصاصين من أركان المعمورة إلى القاهرة . قلب العالم وبستان الكون .

السرادق الخامس

اللهم اجعل هذا البلد آمناً
سرى لا يطلع عليه مخلوق
القاهرة جمادى الأول ٩٢٢هـ

(رسالة أعدت بمناسبة إجتماع
كبار البصاصين في أنحاء الأرض
وأركان الدنيا الأربعة في القاهرة أم
الدنيا، وبستان الكون، لتدارس
الأحوال، والنظر في الأساليب
المتبعة، وما يستجد منها، ولتبادل
المعرفة والفوائد أعدها في ديوان
بصاص السلطنة المملوكية، وتلاه
الشهاب الأعظم زكريا بن راضي
عفا الله عنه، وعرفه طرقه ومسالكه)

بسـم الله الرحمـن الرحيـم

قال تعالى « إن ربك لبالمرصاد »
قال تعالى « وأن الله علام الغيوب »
قال تعالى « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

(صدق الله العظيم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه « الكلام كالدواء ، إن أكثرت منه قتل وإن أقللت منه نفع » .

« أما بعـد » :

فلم يحدث ان اجتمع كبارنا فى اركان الدنيا قط ، وهذا حدث جلل وعظيم ، إذا كشفت عنه الازمان المقبلة فحتما ستلقي فيه من الدروس والعبر ما يعرفون منه اننا حملنا عبئا ثقيلا وحملا فادحا ، واننا عانينا ، وقاسينا ، وضحينا بالكثير من اجل إرضاء الله تعالى ، جل شانه ، وما نهدف من وراء لقائنا هذا : إلا استحداث طرق جديدة ، وسبل غير معروفة ، تعيننا على مهامنا الصعبة ، وهذا يساعدنا في الوصول الى لب الحقيقة ، وسوف يسهل الأمر لمن يجيء بعدنا ..

والله المعين ..

« نشاء بحكم عملنا ، وما يتعلق به ، ان يحيطنا وضع غريب ، وهذا يتطلب من البصاص الكبير المهيمن على امور الدولة باكملها ، حتى البصاص الصغير الذى يتعقب رجلا او امراة ، او ينقل كل ما قيل في مجلس ان يكون صاحب فطنة وذكاء ، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بين الناس آمنا ، إنما لابد من عيشه محبوبا ربما بدا هذا صعبا ، كيف يتاتي لرجل قدر عليه بحكم مهنته ان ينفذ إلى حياة الناس وخباياهم — وهذا مكروه — أن يكون محبوبا ؟ كيف يقصده الخلق ليحل لهم امورهم ؟ لكن لنلحظ أولا أمرا هاما ..

مهمة البصاص — بلا لف او دوران — إقامة العدل بين الناس ، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس ، وحيث ان كل أمر في الدنيا لا يتفق عليه اثنان ، مثلا ، هذه القاعة

التي نجلس فيها ، البعيدة عن أصوات الدنيا ، وضجيج أهلها ، لا نراها جميعا في هيئة واحدة ، مثلا كبير بصاصي الهند الأعظم يراني واقفا هنا ، وكبير بصاصي اليمن يراني من الجانب الأيسر ، أما كبير بصاصي السودان المبجل فيراني من مكان آخر بصورة مغايرة ، حتى التراجمة يرونني بهيئات مختلفة وينقلون الى حضراتكم حديثي ليس بنفس الألفاظ ، إنما المعنى ، ومن هنا تصبح لي أكثر من صورة ، والحقيقة أن وضعي واحد لايتغير ، وحديثي يتغير على ألسنة التراجمة لكن معناه كما هو ، وهكذا .. ما نراه نحن عدلا يراه الآخرون ظلما وجرما .

البصاص لا يعمل من أجل نفسه ابدا ، الغرض الأول والأخير ، إرضاؤه سبحانه وتعالى ، ثم يأتي السلطان بعد هذا ، ثم أركان الدولة ، ومادام البصاص مؤمنا بالله ، بربه ، مسلما كان أو مسيحيا ، أو بوذيا ، ويؤمن بمولاه ، فانه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها ، ورفع الأذى عنها .

ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب من كافة قومه ، لم يخلق هذا قط ، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشر مضطهدا من قومه ، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسوار الطائف فالهب الهجير باطن قدميه . وسال دمه . ألم يتآمروا على قتله ؟ ألم يحاربوه وتأكل واحدة منهم كبد عمه حمزة نيئة ، ومن قبل أن يثقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشوك ، ودقوا المسامير في جسده وصلبوه ، أما سيدنا يوسف فأخوته هم الذين ألقوه في البئر وحزوا نفس أبيه يعقوب ، حتى البوذا الأعظم امتلأت حياته بالام ومواجع ، وهذا حال الأولياء الصالحين ، والشهداء والقديسين وخلاصة هذه العبر أنه ما من إنسان يجتمع الخاصة على حبه ، بما فيهم من خوارق واختلافات ، وبالتالي . فان حاكم أى بلدة من بلدان الله ، لابد أن يصبح مكروها من جانب آخر ، والحاكم الأمثل من نجح في ترغيب الأغلبية فيه ، وتقليل أعدائه ، إذن ، لابد من وجود أعداء يتربصون ويكيدون ، ويتحينون الفرصة للانقضاض ، وهؤلاء إما من الخارج ، أى مخالفين للجنس ، أو الملة ، وفي هذه الحالة لابد من الالتفاف حول الحاكم ، ومهنة البصاص هنا مقدسة ، ولا يختلف في هذا اثنان ، وإما أعداء في الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة ، وبين عامة الناس .

الدرس العظيم المستفاد من التواريخ ، أنه في حالات اندلاع الفتنة فلا بد من حياد البصاص . البصاص يعمل للعدل وحده ، ورمز العدل هو كرسي السلطنة ، كرسي السلطنة ذاته .

إذا تآمر بعض الصفوة ، أو جماعات من العامة على الكرسي ، فلابد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسي ، هذا واجب ، لكن لنفترض وصول بعض الصفوة المتآمرة ، أو العامة (الغرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا الى تقاليد التملك والسيطرة ،

ما هو موقف البصاص هنا ؟ ؟ نقول مادام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسي الأصلي ، وتمكن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضعف الأول ، كيف يمكنه إقرار العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه .

ربما ثار سؤال ، هلى يبقى الجديد على القديم ؟ هنا يمكن للحفاظ على المكانة وضع شروط معينة ، يتوقف تنفيذها على مهارة البصاص وقدرته ، مهارته في النفاذ الى جوهر المكنون وخبايا كل إنسان ، ومادام الانسان يشعر بوجود عين ترى منه ما تراه بقية العيون وأذن تسمع منه ما لم تسمعه بقية الآذان ، فانه يخشى هذا الجانب ، ويضع له ألف حساب ، لقد ذكر لنا كبير بصاصي دولة المغرب المعظم أنه حدث منذ مائتي عام ان تعصب كبير البصاصين ، وقتئذ للحاكم الموجود ، بالغ في إخلاصه له مبالغة تزيد عن الحد حتى اكتسب عداء الأمراء والعلماء كلهم ، وعندما نجح أحدهم في إزاحة الحاكم ، وتولى مكانه لم يأخذ كبير البصاصين جانب الحياد ، إنما جهر بالعداء للأمراء حتى بعد تيقنه من قتل الحاكم ، وهذا عين الغباء ، تسبب في إيذاء جمع كبير حوله ، التصرف الأمثل هنا ، الصمت ومراقبة العامة ، حتى لا يحشروا أرواحهم فيما يدور من صراع ، فينحازوا الى جانب هذا أو ذاك نضع لهم آلاف الاعتبارات ، وسيتحدث كل منا عنهم في جلسة أخرى، وعندما تستقر الأمور يبدأ ممارسة عمله ، وإقامة ميزان العدالة ، وربما عدنا من هذه النقطة الى نقطة أخرى ابتدأنا فيها ، كيف يكون البصاص محبوبا من الناس ، برغم كراهية الخلق لمهامه ، لعمله .

كيف يكون البصاص محبوبا من الناس ؟

من خصائص البصاص الأعظم ، البصاص الصفوة ، قدرته الفائقة على اكتساب قدرات الخلق كلهم ، طبيعة البصاص تقضي عليه التداخل والتعامل مع جميع الناس ، مع عدد كبير من الأجناس ، آلاف البشر المختلفون في طبائعهم ونزعاتهم ، لايوجد شبيه للآخر ، والبصاص الحق ، البصاص المكين ، هو من استطاع جمع خصال البشر أجمعين وهذا صعب ، ربما يبدو محالا ، لكنه سهل علينا يسير ، يجب على البصاص أن يكون فحاما عندما يتحدث الى الفحامين ، عطارا نابغا في العطارة عند حديثه الى العطارين . ساخطا عند استماعه الى الساخطين . حشاشا عندما يأتنس بالحشاشين ، خاطئا عندما يسلك طريق الخاطئين . مستغفرا تائبا عندما يسجد بين التائبين . راضيا مع الراضين . يجب عليه ان يتنقل بين إظهار الكراهية والاعراب عن الحب في غمضة عين ولابد ان يقنع في كل الحالين . لابد أن

- يتقن لهجة الأغنياء ، متواضعا يخالط الفقراء ، سفيها محببا الى السفهاء ، حتى إذا جالس النساء عرف طريقه الى قلوبهن وعقولهن الناقصة . هذا مانراه في البصاص المكين . ومن أهم ما نقيس به مهارة بصاص . هو اتساع علومه ومعارفه عن الأشخاص . كلما تبحر البصاص في العلم ، جمع الأصول ، وأتقن الفنون ، كان اكثر قدرة على النفاذ الى أحوال الدنيا وأسرارها ، طبعا هذا يستحيل على كل بصاص . من هنا قلنا بعدم ضرورة إلمام البصاص بالعلوم كالمتبحر فيها ، إنما عليه الالمام بفكرة عامة ليست سطحية ، عن كل تاريخ وعلم وفن ، فكرة خاصة الطابع ، جليلة المظهر ، من أجل هذا قمت باعداد مناهج خاصة في سائر العلوم التي فكر فيها الانسان ، ندرسها في مدارسنا ، لكي يستوعبها رجالي فتنمو قدراتهم ، ولاتعجبوا يا إخواني البصاصين العظماء ، يامن تملكون سر الكون إذا أخبرتكم عن بصاص شاب من رجالي يمكنه مجادلة أمتن العلماء في أشد ما يمسهم من اختصاصات بدون فكرة سابقة عما يناقشه ، وطريقته تعتمد على الذكاء الحاد الوقاد ، وأخذه لبعض الكلمات والأفكار من المتحدث ، ثم تحويرها بشكل خاص والنطق بها على أنها أفكاره هو ، ولو شئتم أحضره إليكم واتركه لمناقشتكم ، ومن أغراضي التي أنوي إنجازها قبل رحيلي عن الدنيا ، الوصول بكل بصاص عندي ، الى مستوى يفوق هذا الشاب .

الى جانب ما ذكرناه ، نطبق طريقة أخرى في النفاذ الى خبايا الدنيا ، للوصول الى جوهر الحقيقة ، الاطلاع على الأسرار الأولية ، خصصت لكل طبقة وجماعة ، أفرادا بصاصين ، يتشربون عاداتهم ، وتقاليدهم ، وسائر ما يخصهم ، وكلامي هذا منصب على البصاص الأصلي ، إنما هناك جانب أخر ، هو البصاص (المستصنع) وأقصد به البصاص المنضم الينا من نفس البيئة ، بمعنى إذا أردت جمع معلومات معينة عن النحاسين قمت بضم واحد منهم إلي ، بدلا من اللف والدوران ، وإرسال شخص غريب لابد من وقت حتى يصبح واحدا منهم ، المهم مراعاة السرية التامة بالنسبة للبصاص المستصنع وتمرينه تمرينا متقنا ، بحيث تطوع قدراته لعملنا ، وبالنسبة للمستصنعين يجب اختيارهم من بين أكثر الناس أمانة وثقة واستقامة ، إذا نجح البصاص الأعظم في ضم مثل هذا ، فإنه نجاح عظيم ، أخبرنا كبير بصاصي بلاد الصين العظيمة أنه نجح في ضم أكابر العلماء إلى صفه ، والأعيان ، والكهنة خدمة البوذا الأعظم يعملون معه ، يسعون الى ركابه ، وطبيعي أن نلقى من أمثال هؤلاء مقاومة ورفضا لظنهم ضعة مهامنا وعدم اتساقها مع الشرف والأمانة ، لكنني أقول واثقا أنه ما من إنسان في الدنيا يستعصي على البصاص المكين . لنمسك ظروف كل إنسان وحياته . وننفذ من خلالها الى ما يمكننا من تطويع وتليين جامد فكره . بشرط أن يتم هذا كله بهدوء ؟ ودون قسوة . وعندي الآن مثال حي . إنسان

هو فى أوهج فترات العمر نعد له من سنوات . وسوف أقوم يوما بكتابة رسالة مفصلة للعملية التى نجريها عليه . عندما أصل الى غايتى التى وضعتها منذ البداية . بل أوقن أنه سيشارك فى كتابة جزء من الرسالة . يكشف ما جرى له . وما حدث ، بعد أن كان لا يطيق سماع اسمي . ولا هم له إلا تهييج العامة على أولى الأمر . وهنا لا بد من تحية وسلام أوجههما الى زميلنا الأعظم بصاص مملكة الفرنج الغربية على نجاحه العظيم فى ضم أطفال المملكة الى صفوفه . لقد زرع روح البص فى عقولهم وأطفالهم منذ تعلمهم نطق الكلمات ، فلا يسمع الطفل كلمة من أبيه أو أمه إلا ونقلها . وأصدق الخلق هم الأطفال . وشهادتهم لا تكذب أبدا ، وهكذا لو نجح كل واحد منا كما نجح زميلنا الأعظم . لتوصلنا الى تحويل البشر أجمعين بعد سنين الى بصاصين . وهذا أمر جليل يتطابق مع كل ملة ودين ، ولزميلنا الأعظم الحق فى الاحتفاظ بأسرار طريقته التى حولت الأطفال الى بصاصين فهذا لم يتوصل إليه فى غمضة عين ولكن بعد جهد سنين وسنين . لكننا نرجو الاستفادة منه واسمحوا لى أن أبدى إعجابى الفائق به . وبأحواله . لنجعل غايتنا وهادينا فى دنيانا وهدفنا تحويل البشر أجمعين الى بصاصين . إن ما نبغى الوصول اليه ، سر الحقيقة . برهان الحق . وهذا شاق وفظيع . فما أكثر الطرق اليه .

كيف نصل الى معرفة الحقيقة الأولية ؟ ؟

ما أتلوه الآن تسمعونه حضراتكم . وعند خروجكم من القاعة ، إذا اختلى واحد منكم بصاحبه . واستعاد ما قلته . هل سيقوله بنفس اللهجة ؟ نفس الألفاظ التى قلتها أنا ؟ بالقطع لا . محال . وعندما نذكر مجلسا .أو صحبة أو رحلة . فلا يمكننا استرجاع ما مررنا به تماما . إنما نحكيه فى عبارات لا تقرب ما حدث . لا نقوله كما جرى بالضبط ؟ وعندما أتسلم شخصا متهما بتهييج العامة . سينكر فى البداية كيف أعرف الحقيقة إذن ؟ يمكننى ببساطة ذبح أى مخلوق ، فزماننا لانسأل فيه عن مصير إنسان ، لا يحاسبنا أحد ، لا يطالبنا بدية ، لكننى لست جلادا ، أو غشوما ، أنا أحاول الوصول الى الحقيقة ، وعندما تتكشف ، ستفصح عن أمور أخرى أعم وأدق ، ربما تندثر لو أزهقنا روح قائلها منذ البداية ، ومعرفة ماجرى أمر صعب ، الزمن الماضى ليس موجودا فى مكان وزمان معين يمكننى الذهاب إليه فلستعيد ما جرى ، الأمس أو السنة الماضية لا نلقاها فى صورة موجودات ، إنما نلقاها هنا ، فى أذهاننا ، فيما يصيبنا من تحولات وتغيرات ، ولكى أصل فعلا الى الحقيقة الأولية ، لابد أن يلفظها الانسان نفسه ، تلفظ بالقلب والعقل ، بالاقناع والصدق وتؤكدها الأدلة والقرائن . ولكي يلفظ الانسان الحقيقة يحق لى استخدام ما

أراه مناسبا من كافة ألوان الأساليب التي تؤدي بنطق الانسان بالحقيقة ، ومن هنا فكل مايقوم به رجالنا من مهام وما يطبقونه من وسائل في سبيل كشف الحقيقة أحلته الشرائع كلها . وأذكر هنا بالاحترام رسالة كبير بصاصي مملكة البرتغال الأفرنجية ، المتضمنة لوسائل جديدة لانطاق الانسان بالحقيقة ، والحق أن جميعها أمور مستحدثة في مجالنا ، أضافت الينا أبعادا طالما تمنيناها وطال اشتياقنا اليها ، وهنا ، اسمحوا لي ذكر ما نتبعه هنا ، من تطويع الظروف نفسها لخدمة رسالتنا .

كيفية تطويع الظروف ؟ ؟

نبدا بمتابعة الانسان في حياته ، وليس في سجوننا ، وننفذ اليه من ثغرات ضعفه ، نفسح هذه الثغرات ، نقوض الأسس والأبنية ، وكما ذكرت ، سهل جدا قتل الف إنسان ، لكن ليس هذا مهما ، ما يهمني تغيير ما في المخ والقلب ، وهذا صعب ، وللصعاب دائما نتصدى ، إذا ثبت لنا شذوذ شخص عن الخلق ، إذا ثبت انه يهيج الناس ، يفتح عيونهم على الكبراء ، فبدلا من الترسيم عليه ، ورميه في المقشرة ، والمقشرة يا سادتي العظام من ابشع سجون الدنيا ، وانا شخصيا أتفاخر به ، وأدعوكم الى زيارة وجولة تطلعون فيها على ما أعددناه للمساجين به ولن نخفي عنكم أمرا ، نعود إلى حديثنا فاقول ، نبدأ بدراسة حياة الشخص ، أرقب ظروفه ، ثم أصب مائي على نار الهياج فاخفف لسعتها ، وفي لحظة بعينها انفخها فاجتز حرارتها من قلب الرماد ، أمد سكين الزمن الى عقله فأنزع منه ما يجعله شاذا عن بقية الخلق ، حتى لا القاهم جميعا منطوين يوما تحت كلماته ، يرجمون أميرا ، أو يحرقون قصرا ، أو ينهبون سوقا ، أو يهاجمون موكب السلطان ، وكما قلت ما من إنسان في الدنيا يستعصي أمره على التغيير والتبديل ، يا أصحاب العظمة ، يا كاشفي الحقيقة ، هذا ما نعيه هنا ، ونؤصله عندنا ، ما من مخلوق يظل على حاله ، ما من زهرة تبقى متفتحة ، ما من شجرة تظل سامقة ، ما من إمرأة تدوم شابة الى الأبد ، ما من طائر يعلو بلا حد ، ما من نشوة تحيا أبدا ، الشمس تشرق لتغيب ، النهار يطلع ليشيخ ثم يعتصره الليل ، والقمر لا يبقى في العيون مكتملا ، النهر يبدأ لينتهي ، والغيث بعد حين ينقطع ، والمسافة مهما طالت تقصر وتنتهي ، سادتي ممسكي سر العالم ، ما من إنسان قط يبقى كما هو ، والزمن وحده ليس سببا ، نحن ندعمه ، إذا وجدنا في نفس المرء ثغرة خوف برغم اشتهاره بالشجاعة ، أحوم من بعيد كطائر محلق على ارتفاع شاهق ، كطائر الحداة عندنا ، لا انقض غارزا منقاري ومخالبي ، إنما أدور ، أدور ، انزل الى ارتفاع معين ، ثم أطير مرة اخرى حتى

أختفي ، وأعاود النزول سهما خاطفا ، وشهابا ثاقبا ، كلمح البرق ، كصاعقة انقض ، كخاطرة عابرة ، هنا تنتهي مرحلة ، وتبدأ أخرى ، ياسادتي العظام ، ما من إنسان في الدنيا إلا وفي ميدان نفسه حفر وجراح ، ثغرات وقلاع ضعيفة متهاوية يقع على عاتقي واجب النفاذ منها ، مرة انفذ على مهل ، متحسبا متسللا لا يسمع لي صوت ولا انفاس ولا فحيح ، فجاة أبذر منجنيقي ، انصب مواقعي ، أبث رماحي السامة اشهر سيوفي ثم اهجم مرة واحدة ، اطوق . احرق . أهدم . احيل البناء انقاضا والعمار خرابا والأمان ياسا والآمال فشلا مذبوحا ، والميناء الصالح لرسو السفن اجعله غير صالح لايواء ورقة شجر ، إذا كان في صرح الشجاعة نقطة خوف احولها الى بركة ثم محيط ، لو في قرارة القلب حب مخلوقة ما ، أحيله الى كراهية لا تحد ، أجعله بغضا ، لو وجد بين الحبيب ومبتغاه عقبات يامل هدمها ، اجعل منها مستحيلا لايمكن تخطيه . اقيم الحدود والحواجز . احفر الخنادق وابث كمائني فاصيب النفس بجراح تبقى طرية حتى بعد الممات . ابث في الروح عكارة لا تروق أبدا ، إذا سخط الانسان لفقره بذرت له آمال الغنى والجاه ، اذيقه نتفا من حياة الرخاء يتعود عليها ، حينئذ احيله مسخا في عيون الخلق لايقدر على العودة الى قومه ولايمكنه حتى التطلع الى الأمام ، وهكذا بدلا من بتره حيا أحوله وهو يمشي على نفس قدميه ويحرك ذراعيه ويتحدث بلسانه يناديه الناس باسمه لكنه في الحقيقة شخص آخر وانسان ثان لا علاقة له بالوليد الذى انزلق يوما من رحم الأم او الفتى اليافع الذى اختال وزها بين اقرانه ، حتى رجولته أقلبها انوثة ، اضيع معالم الشارب واللحية ، لا احلقهما لا اثقب اذنيه وأعلق فيهما الأقراط ، لا أبتر عضوه ، كل ما فيه يبقى على حاله لكنه لا يبقى ، هنا سيفكر لكن كما أريد انا ، يثير الناس ايضا ، لكن كما أهدف انا وليس كما يحب ويشتهي ، هذا ما أتمه في الحياه نفسها ، وإذا انتقلنا الى الفترة التي يمكن للانسان قضاؤها في السجن ، هنا أسمح لنفسي مخالفة زميلي كبير بصاصي البرتغال الأعظم في بعض ما ذكره في رسالته ، كان تركيزه كله على الوان العذاب البدني ، ابدا عندنا الآن النموذج الذى أشرت إليه ، ما الذى نفعله معه ؟

على سبيل المثال نفتح الباب عليه فجاة في آخر الليل ، يضحك رجلنا في وجهه ضحكة معينة ، ضحكة مدروسة يساله بلهجة كاللحم البارد الذى تجلط عليه السمن ، هل تريد خدمة ، نقدم له كل يوم في ميعاد معين ربع كوب ماء .. ماء عادى جدا لكن وقعه عليه افظع من كي الأصابع ، دبرنا موقعا بحيث أجبرناه على رؤية حبيبته السابقة التي هام فيها وجدا وهياما وانشا فيها القصائد ، رآها عارية تماما .. يخور فوقها زوجها . زوجها وليس اى إنسان آخر وكانت تاتي من الحركات ما جعل شعر راسه يشيب فعلا . لحظة الضرب أو التعذيب نفسها لا تؤلم يا ممسكي سر الكون . إنما ما يؤلم انتظار الانسان لهذه اللحظة بعينها ،

عند تعذيب شخص ، ما الذى ينتظره اكثر من هذا ؟ لكن المهم أن يعيش فى انتظار دائم هذه اللحظة ، اللحظة المقبلة سيحدث ، ترى لماذا لم يحدث ، مامغزى كوب الماء هل تغير طعمه ؟ طعمه فعلا متغير ، ربما وضعوا فيه سائلا او عقارا ينسيني زماني ومكاني ربما أرادوا إفقادى رجولتى ربما يقتلونني ببطء . سادتي العظام ، لقد أجرينا تجربة منذ فترة وجيزة تقدر بأيام على إنسان عصبنا عينيه لامسنا رقبته بحز الموسي حزا خفيفا بحيث لم تحدث به إلا جرحا طفيفا جدا لكننا امسكنا بأنبوبة رفيعة تصل بقربة صغيرة بها ماء دافيء ، صارت القطرات تنزل منسالة ونقول له ، قل أين أموالك ونوقف الدم ، توهم فعلا أن رقبته تنزف دما غزيرا ، قال لنا كل مانريده ، بل اكثر ، دلنا على أمير صاحبه اشتهر بظلمه ونهبه للأموال ، صار يزعق ، أوقفوا الدم أوقفوا الدم ، ونحن نحدث أصواتا نوهمه أننا نحاول فعلا إيقاف الدم ، لقد مات الرجل بعد لحظات ، مع أنه لم ينزف دما . لكنه توهم الماء الدافيء دما . وان شرايينه جفت وخلت ومات ، انني اعصب عيني السجين ، يمشي دائما متوقعا ضربة مفاجئة تأتيه لكن متي ، اين ؟ هذا مايتساءل دائما عنه ، وفي ليلة معينة أدخل الى زنزانته الضيقة النظيفة . (هذا نظام جديد للسجون ونضعه فى سرية تامة) أدخل عليه أحد رجالي على انه سجين . ولا تمضي ساعات إلا ويدب الشجار بينهما يتشاجران على أتفه الأمور هذا ما أجريته على الشاب الذى حدثتكم عنه ، أمرت رجلي بالالتصاق به أثناء نومه ، قام مفزوعا ظنا منه بنية أضمرها الرجل ليزنقه ثم يناله غصبا ، وهكذا أحيل الحياة الى جهنم أبطنها بشوك فيصبح الموت أملا مرتجى ومتعة بعيدة المنال .

رجـــاء

أثارنا المطلب الطريف الذى قدمه كبير بصاصى دولة كاجورا الفنية الخاص بما يوده لمهامنا فى الأزمان المقبلة ، وأرجو السماح لى بإضافات بسيطة الى افكاره ، كما أعددت ملاحق خاصة جدا حول عدة مشاكل نواجهها سأقوم بتوزيعها عليكم كل منها مترجم الى لغات حضراتكم ، وأقول متمنيا لا يوجد أمر على الله ببعيد ، ما نراه مستحيلا اليوم . يدخل باب الممكن غدا . وغدا بالنسبة لنا دون حد ، إنني أرى يوما يجيء فيمكن للبصاص الأعظم أن يرصد حياة كل انسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته ليس الظاهر فحسب ، إنما ما يبطنه من خواطر ، مايراه من أحلام ، بهذا نرصد كل شيء منذ مولده نعرف أهواءه ومشاربه بحيث نتنبأ بما سيفعله فى العلم العشرين من عمره مثلا ، فنستطيع منعه أو دعمه قبلها وإذا ما سئل إنسان عن الحقيقة الأولية فأنكرها يمكن للبصاص استعادة الموقف كاملا من

الزمن فيواجه به إن انكر ، ارى يوما يجيء فيمكن للبصاص معرفة الهمسات ، الآهات ، تأوهات الجماع بين الرجل وإمرأته . إذا ما جرى حديث بين رجلين فوق قارب يجرى فى النيل أدركه هنا ، ويمكننى التدخل فى الحديث عند الوقت المناسب وتوجيهه ، أرى يوما تنزع فيه الأعضاء من جسم الانسان لتسأل عما فعلته ، فلا يمكنها الانكار ، أرى يوما تطلق فيه على الناس أرقام معينة ، فيحدد البصاص لأهل كل حارة ارقاما ، هذا رقم (١) هذا رقم (٢) بحيث لايحمل شخصان رقمين متشابهين ، وهذا أمر ناقشته بتوسع وإفاضة فى أحد ملاحقى التى ستوزع عليكم وهذا يساعدنا فى حصر الخلق ، بدلا من تعدد أسمائهم وتشابهها .

(وبعد)

فما ذكرته اخيرا أخيلة تراودنا ، لكن عندما يصير الأمر حقيقة ، فسوف يقول بصاصو الأزمان المقبلة انظروا ، كان اسلافنا أبعد نظرا واشد عزما .

« وعليكم سلام الله وأمانه »

« كبير بصاصى الديار المصرية »

زكريا بن راضى

□ □ □

ذيل (١)

مطلب في كيفية إعداد طعام المساجين وطرق نومهم وأفضل اللحظات اللازمة لإقلاق راحتهم.

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين بعينه

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بالمقر الرئيسي لبصاصي القاهرة
٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م

ذيل (٢)

مطلب في الوسائل المقترحة لترقيم الناس، بدلاً من الأسماء، ونص فتاوى شرعية تبيح هذا في سائر الأديان.

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بالمقر الرئيسي لبصاصي القاهرة
٩٢٢هـ - ١٥١٧م

ذيل (٣)

مطلب في كيفية الرقابة على الرقابة
أي كيف يرصد بصاص بصاصًا
آخر ..

حظ وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية
٩٢٢هـ

ذيل (٤)

مطلب في كيفية إقناع الناس بوجود ما هو غير موجود .

حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

رجاء تسليم هذا الذيل بعد دراسته وقراءته

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية
٩٢٢هـ

كوم الجارح

الوقت ذاته من كل عام ، البيت يفتح للمريدين ، طلاب الحق الجوابين الساعين حبا فى أهل البيت ، بعضهم التقى فعلا بالنبى الياس عليه السلام ، لم يفن ولم يمت ، النبى الياس شرب من نبع الحياة فما عاد الموت يقربه ، عاش الشيخ أبوالسعود على أمل اللقاء به ، التزود من حكمته ، الاستماع الى قصص أجيال اندثرت . الشيخ الكرماني حكي له مالا يتطرق اليه الشك ، عندما اجتاز فى أول الشباب بلاد فارس ، حيث عبد القوم يوما النور والظلام ، والتهبت نيران المجوس ، عند البحر التقى برجل يلبس البياض ، أبيض اللحية ، والشارب وشعر الرأس ، يمشى فتيا عفيا كأنه ابن عشرين ، الشيخ الكرمانى كان على وشك النزول فى قارب ليعبر البحر الكبير ، سلم عليه الشيخ ، من عينيه ينسال بهاء غريب ، حذره من ركوب البحر ، قال « الدردور عمال ومن ركبه هلك » ودواب هذا البحر لاترحم من يلقى به حظه العاثر اليها ، رجع الشيخ الكرمانى ، واختفى الشيخ الأشيب ، ذهب الرجل ، وبرق الخاطر فى عقل الشيخ الكرمانى ، من التقى به وحذره ، هو ، هو بعينه ، سيدنا الخضر عليه السلام ، فيما بعد عرف هلاك القارب ، انتابته حسرة ، كيف لم يبق معه ، كيف لم يقتف خطواته ، بعد أن قضى ثلاثة شهور يستقطر حسرة لا تنبت آملا ، عزم فتوكل ، بدأ طوافه ، عسى أن يلتقى به ، يصحبه ، لكن محال ، المرء لايرى سيدنا الخضر مرتين ، مع هذا لم يضع منه الرجاء ، الشيخ أبوالسعود لم ير سيدنا الخضر ولم يشهد النبى الياس ، فى السرداب ترق الأحزان ،توخز النفس كنصل ، سيف حاد ، النبيان الخالدان هجرا الأرض التى يحيا فيها ، رأى الكثير ولم يرهما ، ارتعش قلبه بمنظر الموتى فى غزوة بربرية ، مدن خيم عليها وباء حصد وافنى ولم يبق ، عندئذ يطرق باله سؤال الحيرة الأبدى ، لماذا يموتون بلا ثمن ؟ لماذا جاء الانسان وعاش وعرف الألم والأمل ، إذا كان ذهابه بسيطا هكذا ؟ فى السرداب سمع ثقة أهل مصر فيه ، سمع كل ما أتاه الزينى من رفع بعض الأسعار ، من القبض على أشخاص ، ارتقاءه فى المناصب مبرر معقول ، ألا يقول دائما ، لولا ثقة مولاى وأمامى الشيخ أبوالسعود الجارحى لما قبلت ، أحد المريدين

أخبر بوقوف الزيني خطيبا في أهالي الصعيد القصي ، أخبرهم بأن الشيخ أبوالسعود يدعو لهم ليلا ونهارا ، إنه يأتمنه على الأرض والناس ، إنه يوصيه بالعدل والخير وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه ، بعد فناء عمر طويل يجيء من يستبيحه . لو جاءه النبي الياس المعاصر لكافة الأزمنة فسيقول له . أنت المحق . لم تعرف زمنك . لم تغص فيه لتعرف كوامنه . لكن لا النبي الياس . ولا الخضر عليه السلام سيرشدانه ، في السرداب خيل له أن الهاتف صاح عليه ، والهاتف يسمع ولا يرى ، ولا يجيء إلا للصالحين ، إما مرشدا أو محذرا منجيا ، أو لائما ، أي أسى يطرق القلب الوجيع المحسور ، كيف ينفذ بصره الى الحقيقة، يقولون ، مولاه باركه أول سنة لكن لم يهتف الخلق باسمه نسوا وأصبح موقفه عنوانا لكل ما يجرى ، آه لو يصل الى شجرة الحقيقة ، حدثه النساك الزاهدون عنها ، من أكل ثمارها لايعرف الضلال أبدا ، لو وصل الى الحقيقة كل أمر مهما لف والتوى ، لم يصل الى الشجرة ، لن يرى طيفها ، جاءه درويش عجوز صعيدي بحبات التمر ، سطل اللبن ، أكل وشرب ، يميل عليه هامسا ، مولانا في الباب رجل اسمه الدمراوي . لا حجاب بيني وبين الخلق .

جاء الدمراوي ، فيما يبدو ميسور الحال .

جئت ساعيا على قدمي يامولاى .

من أي البلاد أنت ؟

منفلوط يامولاى .

الى منفلوط سافر الزيني بعد رحيل السلطان إلى الشام ، جمع أهل الناحية كبيرهم وصغيرهم .. في البدء حكى عن كل شيء عن حقيقة الأخبار . الغدر الذي يطل من ابن عثمان . قال فيما قال إنه موقن من تحرك ابن عثمان ليأخذ مصر . لكن جند السلطان وفرسان الاسلام سيتولون أمره . قال . مصر محمية بأولياء الله . وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدي أحمد البدوي وسيدي عبد الرحيم القناوي . وسيدي القولي والقطب القوي سيدي إبراهيم الدسوقي وسيدي الرفاعي والأولياء أصحاب الأوتاد ومولاى صاحب الكرامات النورانية أبو السعود .

أجرى الدمع من عيون الخلق ، يامولانا ، ثم قال إن خزانة السلطان في أمس الحاجة الى دراهم ، ورجاهم تقبل ماسيقول ، جمع ضرائب عام واحد مقدما غير السنة التي نحن فيها ، ولما كان الحال صعبا ، والدنيا متشطحة مع الناس ، ضجوا واعولوا ، فتحدث اليهم بلين الكلام ، قال من يملك شيئا ليبيعه ، حاش عنهم أذى الأمراء والمماليك ولو تركهم لجاءوا بسيوفهم ، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع الماشية ، وهذا ليس غريبا ، حدث من قبل مرات ومرات ، وبين الكلمة والأخرى يذكر

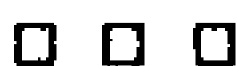
وصية مولاه الشيخ أبى السعود له . فصارت الناس يامولاى ، آه سامحنى يامولاى
بكى الدمراوى ، يولى سيدنا الخضر عليه السلام وجهه بعيدا ، يزعق المريدون ، تعلو الهمهمات ، « بعد أن صرف الناس . إستبقانى مع أربعة من أهالى البلدة ، أخبرنا بأمور عديدة عن أموالنا فعجبنا فيما بعد ، كيف وصلته ، ثم قال إنه سيفرض على كل منا مبلغا قدره ألف دينار ، قال لابد من الدفع ، العجيب يامولانا ، ضياع اللين فى حديثه ، نتر فى وجوهنا . أظهر القسوة قال إنه يمهلنا شهرا ، ولو تأخرنا وسيدعو علينا مولاه .. فتخرب بيوتنا .

صرف الدمراوى . ورأى السماء مقطبة الجبين . الآن يرجع الفلاحون الى ديار الطين ، الآن يوقد عساكر السلطان النيران فى سهول حلب ، الآن يتوه ملاحون فى البحار الغربية ، يجىء سيدنا الخضر يرشدهم الى السلامة ، الآن يضيع صواب الضالين فى الصحراء ، ينزل الليل صخرا وحجارة ، لايدركهم إلا النبى الياس ، وفى لحظة معينة من الليل لم يعرفها أى إنسان حتى اشد الأولياء ورعا ، فى مكان مجهول لاتطرقه دابة ، يجتمع سيدنا الخضر وسيدنا الياس ليلقيا نظرة على بلاد يأجوج ومأجوج ، حتى لايكسروا السد ، ويغرقوا العالم . خاطر يضيق به صدر الشيخ . هل نفذ بعض الياجوج الى دنيانا ، وتنكروا فى هيئة البشر ؟ سيهجر السرداب حينا ، خلا البيت من مجىء سعيد .

« يا فرج .. »

جاء المريد الشيخ . لا يعرف الطريق اليه إلا مرة كل سنة ، فى ميعاد بعينه .

إمض إلى الزينى بركات ، ارتد شال عمامتك الأحمر ، ناد عليه ، قل له أن يأتى عندى الليلة .. لا تدعه يغب .



الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر مقدم بصاصى القاهرة
عاجل وهام

تقرير مرفوع الى الشهاب الأعظم زكريا بن راضى ، كبير بصاصى السلطنة

في الجزء الأخير من هذه الليلة ، توجه الزيني بركات بن موسى ، استدار الذخيرة ومتولي حسبة الديار المصرية ، والى القاهرة ، والمتحدث عن الوجهين القبلي والبحرى الى كوم الجارح ، بعد استدعاء الشيخ أبوالسعود الجارحى العارف بالله ، وعندما دخل اليه أجلسه بين يديه ، مال الزيني عليه ، لكن الشيخ لم يراع هذا ، ونتر في وجهه ، يا كلب .. لماذا تظلم المسلمين ؟ لماذا تنهب أموالهم ، وتقول كلاما تنسبه الى . أبدى الزيني دهشة حاول الانصراف ، لكن الشيخ قام ، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج) .. أمره بخلع عباءة الزيني عنه ، تجمع حوله الدراويش أحاطوا به ، أمر الشيخ فضرب رأس الزيني بالنعال حتى كاد يهلك ، ثم أمر بشك الزيني في الحديد ، ثم أرسل الى الأمير علان .. وأيقظه .. وقال له : اطلع شاور نائب السلطان الأمير طومانباى فى أمره ، وأعلمه ان هذا الكلب يؤذى المسلمين ، وفى الحال طلع الأمير علان الدوادار الكبير الى نائب السلطنة ، وأيقظه ، وأخبره بما جرى ، وقال الأمير طومانباى ليفعل الشيخ أبوالسعود مايبدو له ، وحتى ساعة كتابة هذا ، مازال الزيني بركات بن موسى محتجزا عند الشيخ أبو السعود ، وقال الشيخ لمريديه « أبقوا الأمر سرا يوما أو يومين حتى أستخرج منه ما نهبه من أموال الغلابة ، ثم نشهره على حمار ، ونخلص الدنيا منه » وحتى الآن لا يعلم العامة بما يجرى ، وإن تساءل البعض عن عدم ركوب الزيني لصلاة الفجر كعادته ، ومن ناحيتنا ، بادرنا فأرسلنا العيون والارصاد فى كل فج ، وخاصة كوم الجارح ، وَنُمِيَ الى علمنا ، أن دراويش الشيخ ومريديه ، وكافة أرباب الطرق الصوفية ، والفقراء في بر مصر سيعلنون الخبر ويهيجون الخلق .

عليكم امان الله تعالى

(مقدم بصاصى القاهرة)

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر نائب الشهاب الأعظم
زكريا ، المختص بأحوال ابن عثمان
وأموره

مصـــيبـة كبيـــرة

بعد تضارب الأخبار ، وكثرة القيل والقال ، ورد إلينا ، منذ لحظات حقيقة ما جرى ، فبادرنا بإرسال الأخبار إليكم ، ونأسف لعدم تمكننا من الحضور بأنفسنا لانشغالنا باستقصاء الحقائق ، لقد وقعت كاينة عظيمة ، طمت وعمت ، وتفاصيلها ، أن السلطان الغوري دهمته عسكر سليم العثمانلي يوم الأحد خامس وعشرين رجب (وهو يوم نحس مستمر) ، وكان السلطان قد صلى صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه إلى تل الفار . وقيل هناك قبر داود عليه السلام فركب السلطان وصار يرتب العساكر بنفسه ، فكان أمير المؤمنين على ميمنته ، وحوله اربعون مصحفا في أكياس حرير صفراء على رؤوس جماعة أشراف . وفيهم مصحف بخط الامام ، عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وحوله أيضا جماعة من الفقراء ، هم خليفة السيد البدوى ، ومعه اعلام حمر ، والسادة الأشراف القادرية ، ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعي ومعه إعلام خليفتي ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها ، باعلام سود ، وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب الحلب .

قيل أول من برز إلى القتال الأتابكي سودون ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القراصنة دون الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا ومعهم جماعة من النواب ، فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة ، واخذوا منهم سبعة صناجق ، وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق ، فهم ابن عثمان بالهروب او بطلب الأمان ، وقتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان ، كانت النصرة لعسكر مصر أولا ، وياليت لو تم ذلك . بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا أو خلوا المماليك القراصنة تقاتل وحدها فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال . وبينما هم على ذلك وإذا بالاتابكي سودون قد قتل فى المعركة . وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم من الميمنة من المعسكر . ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . واشيع بين الناس أن خاير بك نائب حلب كان

موالسا على السلطان الذى ظل واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك صار يصيح فى العسكر ، يا اغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلى رضاكم . فلم يسمع له احد قولا وصاروا يتسحبون من حوله شيئا بعد شيء . فالتفت الى الفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا الى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم . وصار ما يجد له من معين ولا ناصر . فانطلق فى قلبه جمرة نار لا تنطفيء وكان ذلك اليوم شديد الحر . كثيف الغبار . كان نهاراً غضب من الله تعالى على عسكر مصر . ولما تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه فى الحال خلط فالج . فابطل شقته . وارخى حنكه . فطلب ماء فاتوه بماء فى طاسة ذهب شربه ومشى خطوتين وانقلب من على فرسه إلى الأرض ، فاقام نحو درجة ، وخرجت روحه . ومات من شدة قهره . وقيل فقعت مرارته . وطلع من حلقه دم أحمر ، ولم يعثر على اثر . ولم يعلم له خبر . فكان الارض انشقت وابتلعته فى الحال .

ولم تستغرق هذه الواقعة الا من طلوع الشمس إلى بعد الظهر . وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى . تحول ابن عثمان عن مرج دابق الى حلب فملكها من غير مانع . واستولى على مال السلطان وتحفه واسلحته التى خرج بها من بر مصر .

هذا ملخص ما جرى فى الشام ، نسال الله ان يقينا شر ما يجيء من احوال ، وسوف نرسل ما يرد الينا أولا باول .

عليكم أمان الله تعالى

نائب الشهاب الأعظم

المختص باحوال ابن عثمان واموره

★ ★ ★

عمرو بن العدوى

لماذا أرسل إليه ؟؟ هل انكشف أمره وافتضح ؟ أو انكسار العسكر واقترابه وكثرة الاشاعات واضطراب الاحوال ، حتى بيت ابنة الخبيزة لا يستطيع المضى إليه شحت يده بعد امتلاء ، المأوى فى الرواق ضاع ، لا يجمعه الا بيت واحد من أهالى البلدة ليلة أو ليلتين ، ثم يمضى الى غيره لتقلبه العيون بالنظرات نفسها ، لا يعرف ما سيقوله مقدم بصاصى القاهرة ؟ لكن هل يفنبه الى أمره مع كل هذه المشاغل والامور المضطربة ؟ لا يدرى ، الآن يعبر حارات العطوف ، يخاف لو رآه أحد المجاورين ، حتى من حرصوا على صحبته يوما خوفا وخشية ،

جهروا له بالعداء هذه الليلة وجد نفسه ضائعا فيها ، قابله خارج الرواق كل من ينام بجواره ، بالقرب منه ، زملاؤه في حلقة الدرس ، شوام ومغاربة وافغان وقفوا يرقبون ما يجرى ، حزمة ثيابه ربطوها تحت قدميه ، قال الشيخ حمزه أكبر من في الرواق سنا واقدمهم في طلب العلم وتحصيله ، امض عنا ياشيخ عمرو ، لا ترنا وجهك ، يد حجرية هوت فوقه ، كاد يزعق فيهم ، أتعرفون الى من تتكلمون ، إلى من يزعقون ؟ في هذه اللحظة رأى نفسه .. يجلس امام مقدم بصاصى القاهرة ، كان اذا جلس الى التجار . الى المجاورين ، يزهو اذ يسترجع حديث المقدم إليه ، يأسف لأنه لا يمكنه التصريح بذلك ، زهو داخله كلما رأى انسانا ، باستطاعته ارسال أى شخص الى المقشرة ، هل نسوا هذا ، لكن عرقا غزيرا انبثق من جلده ، بلل ثيابه ، ما الذى جرى يا شيخ حمزة ، واطلقت العيون شررا ، صاح الشيخ صلاح الصعيدى : امش يخرب بيتك كما خربت بيوت الناس .، تقدم الشيخ بهاء الحق ، خلع مركوبه ، منعه الشيخ حمزة ، اذيتنا وعددت أنفاسنا ونقلت سكناتنا وحركاتنا » ، « ذنب الشيخ سعيد ، والشيخ مبروك فى رقبتك » يوم لم يعمل له حسابا ، ما الذى جرى له ، يذهبون الى شيخ الجامع يوقعون فى أمره كل ما لم يجرؤوا على قوله من قبل ، يأمره بطرده من الرواق ومن حلقات الدراسة ، من الأزهر ، بفضحه ، نظر الى مدخل الرواق ألن يجتاز عتبة الباب أبدا ، ألن يصغى إلى أنفاسهم ، الى هلوسات احلامهم ، ما الذى سيكتبه إذن في تقاريره ؟آه ، لن يرحمه الرجل ، فشل ولم يتقن إخفاء نفسه ، وهذا يساوى الموت بالنسبة للبصاص ، الى اين يمضى ؟ تطل عليه أيام بعيدة طاف فيها بالبيوت . يستجدى الدراهم بتلاوة القرآن ، لن يجرؤ على دخول بيت منها ، بقجة ثيابه ، إلى أين ؟ ايعود إليهم ، يطلب الصفح والسماح ، يحكى لهم عن أمه التى لا يعرف مقرها الآن ، سنوات مرت على خروجها ، لا يعرف الطريق إليها ، لم تهتد إليه ، ربما تصل الى الرواق ، لا تلقاه الآن ، تسعى حول المسجد كسيحة عمياء كسيرة الفؤاد ، لو حكى لهم عنها ربما رقوا له ، ادرك انه نسى وجه أمه ، صورتها ، لو قابلها فلن يعرفها ، لو تعيش فهى ميتة فى قلبه منذ سنين ، حمل ثيابه ولى هاربا ، الطرق عليها كمدة ، كأن الدم المسفوح فى مرج دابق غطى تراب القاهرة ، الناس جروحهم طرية ، فى كل بيت مناحة ، أما جرحه فنافذ حتى النخاع ، سب الشيخ حمزة ، لعن المجاورين ، بل لعن فى سره البصاصين . من يدرى ، ربما كشفوا أمره لغرض فى عقولهم ، ربما اشاع مقدم البصاصين بالقاهرة حقيقته ، اشرف على فضيحته ، مرة سمع الشيخ حمزة يسب كبير بصاصى السلطنة ، أهمل ولم يرفع ما حدث ، أهو الكسل ؟ الآن يتمنى لو عرف الشيخ حمزة بموقفه ، ارتعش ، توقف مكانه . سمع صرخة غامضة غريبة طالعة من احشاء العطوف ، ربما يذبح انسان ، لا قيمة لذهاب رأس واحد ، فما أكثر الرءوس التى راحت فى مرج دابق ، لو أمسكوه الآن فى هذه

الساعة لظنوه يجس الأحوال ، يراسل ابن عثمان ، الرجم مصير هين عندئذ ، لن ينقذه زكريا نفسه ، ربما يدبر له مقدم بصاصى القاهرة ملعوبا ليتخلص منه تماما ، يمسكه بعض البصاصين الآن يزعقون عليه « بصاص لابن عثمان » اذن فليسرع ، كل شيء يولي ، كأنه لم يذهب إلى ابنة الخبيزة ، لم يضاجع لطيفة الحلوة ، كأنه لم يستمع إلى هيفاء اللذيذة ، لم يدرس العلم ، لم يحفظ الحديث ، آه لو بقى فى البلدة بجوار أمه ، يعمل فلاحا ، عنده زوجة وأطفال ، تصر البوابة عند فتحها صريرا ثقيلا ضبتها الضخمة توجعه ، نفس الممر ، عبره مرات ، ارتجف ، هل سيخطو فوقه راجعا الليلة ؟؟ لا يعرف ما سيفعل به ، فى أولى حجرات البيت طالعه نائب مقدم بصاصى القاهرة .

« اجلس »

لم يلامس ظهره مسند المقعد ، رأى نفسه بعين الرجل ، أدرك نحول بدنه ، اصفرار وجهه .

« فضحت نفسك .. وفضحتنا »

انعقد لسانه ما الذى سيفعل به ؟؟ عندما وصل اليه الرسول فى الفسطاط ، أعد كلاما كثيرا يقوله ، كل ما يرجوه تدبير المأوى ، يمكنه العمل خادما ينظف الحشايا ويغسل الأوانى ، ألم يبذل الجهد كله فى خدمته ، هل خاب تقرير واحد أعده من قبل ، ألم يتسبب فى كشف أمر عشرات المهيجين ، الآن لا يجد كلمة واحدة فوق ما فكر فيه ، قام نائب مقدم بصاصى القاهرة ، لاحظ عمرو أنه متعب ، تمنى لو قال له « استرح .. لا تتعب نفسك » لو بادله عادى الكلام ..

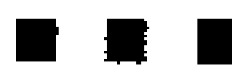
« سوف تسبب لنا متاعب » ..

قلب عمرو حمامة ابتل ريشها ، يلمس ما تقرر فى أمره ، من خلال كلمات الرجل وحركاته ، أثناء مشيه ومجيئه فى الحجرة ، ضرب قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى ..

« ستبقى عندنا وقتا حتى يبت فى أمرك » .

« هنا » ؟؟

ورأى عمرو ظلام الليل أبديا ، طاف حوله خيال هائم ، لا يدرى أين صاحبته وتمنى لو اقترب من النائب وهمس برقة « اهتم بنفسك ، صحتك على غير عادتها ، فيجاوبه النائب ، قائلا .. « رعاك الله يا عمرو وأبقاك .. »



سـعيد الجهينـى :

بخرقة ممزقة قديمة ، اقبل حمزة بن العيد الصغير ، ينظف الموضع المعتاد من الدكة .. « لك وحشة ياشيخ سعيد .. سنتان وأكثر .. هانت عليك العشرة » .

ضيق سعيد عينيه ، تعب البصر وامتنع عن تمييز القريب من الأشياء ، أيصدق حمزة في قوله ؟؟ او يتظاهر ؟؟ احقا يجهل ما جرى ؟؟ الم يبلغه الامر ؟؟ وإذا تجاهل فلابد من غرض خفي يستحق تظاهره ؟ الم يسمع صدفة حديثا تبادله بعض المجاورين المترددين على دكانه ، حمزة يدعك يديه بعضهما البعض ، في الترحيب حرارة لا تخفى ، هل أوصوه بافتعالها ؟؟ أيصدر عن نظراته ما يدفع الريبة والشك إلى قلبه ؟؟

« غيبته لم تطل يا ريس حمزة .. »

في كلمات قليلة رد ، ليفهم حمزة أو أى بصاص اخر يقف قريبا منه ، يختبيء في الدكان ، في أى مكان لا يراه ، انه لا يبدى الشكوى مما حدث ، سعيد عليم بمراقبتهم له ، في مكان بعينه ، فوق مساحة ارض بذاتها ، فراغ محدد يقف انسان يرصد كلماته ، الناس الذين يلقاهم ، العبارات المتبادلة بينهم ، كل ما يقوله ، يرفع ويوضع تحت تحليل عميق ، لا يمر معنى خفي الا وادركوه ، ومهما مضت السنون ، حتى ولو بقي في عمره يوم واحد ، يمسكونه ، يحاسبونه حسابا عسيرا وهم قادرون على إذاقته في يوم ما لا يذوقه انسان في مائة عام من الام ومواجع ، يبذلون جهدا لتصحيح مساره وتقويمه ، الا يضرب الأب أولاده ؟ يقسو عليهم ؟ يرقب الطرقات ، الشتاء يورث القلب حسرة ، دفقة دم ، تعيد إليه وقع اقدام مقبلة في طرقات طويلة لا نهاية لها . وجوه ترمقه بهدوء ، ببرود . وعيون تنفذ إلى نسيج احلامه ، ارهقهم كثيرا ، فاهتموا به طويلا ، اخبروه بالفاظه التائهة القليلة التي يطلقها عادة أثناء نومه في الرواق ، زمان احد اصحابه أخبره بها ، كثيرون يتحدثون وهم نيام ، الفاظهم مبهمة ، أما هو فلا ينطق الا لفظا او لفظين « الأول »، « الآخر »، « الأمس » « غدا »، « المثنى »،« المفرد » سالوه عن معاني الكلمات شهرا بأكمله ، في كل مرة يقسم أنه لا يدرى ، رحموه وصدقوه ، ترفقوا به وصدقوه ، ترفقوا به ، في مرات استعادوا احاديث تبادلها مع آخرين على فترات متباعدة في حياته ، توالت عليه الأسئلة حول مغزى الكلمات توضح الشروح ، توضح الفروق ، تضاهي الحروف حروف الجر ، وعلامات الاستفهام طلاسم تسد أبوابا في نفسه ، فكوها مع ظنه الدائم باستحالة هذا ، أزالوا ارصادها . نفذوا من أضيق الثقوب ، اغلقوا طاقات ، ردموا ممرات وساحات ، الآن ينتبه إلى نفسه فجاة ، كيف يفكر فيما فعلوه به ، ربما أدركوه وعرفوا

ما يفكر فيه ، يفهمون أنه يحاول تشويه اعمالهم ، أنه ينسب إليهم فظائع لم تحدث . نعم لم تحدث ، لم تحدث ، ألا يوجد عقار ما يمنع الانسان من التفكير في أمور بعينها ، الآن تتدافع إليه أصداء صرخات مجهولة ، آدميون يتألمون ، حناجر تعجز عن تفريغ طاقات الألم ، ركود الهواء في الحفر المغلقة ، ملمس السلاسل ، يهز رأسه ، ينفي الخواطر ، يبيد الأفكار ، ما مر به أحلام ثقيلة ، فعلا احلام .

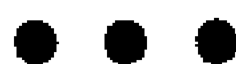
« بالصلاة على النبي .. اللهم اكتب لنا الستر .. »

الابتسامة على وجه حمزة بن العيد الصغير ، كانت كلماته تبدو طيبة ، الود المنسال من عينيه ، الآن لا يدرى القصد والهدف . في نفس هذا الموضوع رأى سماح ألف ألف مرة ، ذكراها تدفق الدم من الاوردة والشرايين ، سماح كيف احبها يوما ؟ كيف عاني ما عاناه ؟ لفظ الاسم بصوت عال من الطاقة . سمع ورأى ما يسقط النجوم الأعالي ، ما يهوى بالنفس من شموخها ، أدرك العطن جوهره . ظن انها لا تمس ، دب الخراب الي وجه مليح ، بارت الأرض . أفنى الوباء أمالا . ظن يوما انه سيعبر المحيطات ويمشى عبر الربع الخراب من العالم ، يعلو جبال قاف ويمضى إلى واق الواق ، يرسو في جزر لا يسكنها أحد ، يأكل الحديد ويشرب النار . فقط لو تصحبه الآن يتساءل ؟ كيف ، كيف أحبها يوما ، لا يدرى أين هى ؟ أين تسكن ؟ في القاهرة أم رحلت إلى الارياف مع الراحلين في الايام الأخيرة ، لابد انها انجبت طفلا يقول لزوجها يا ابى ، يقول لها يا أمي ،. لابد ان معالم وجهها تغيرت ، يدها غلظت ، كأنه يذكر شخصا غريبا عنه يعيش وراء المحيط ، عرفه يوما غير ان عكارة في قرارة الروح ، نقطة عنبر اسود لا تروح . لا يدرى ما الذى دفع إليه الآن ذكرى رجل عرفته القاهرة كلها منذ اعوام قضى سنين لم يقرب امرأة . وعندما اشترى بماله الذى افنى العمر في اقتنائه جارية حلوة صغيرة . لكنها بعد ايام استغاثت منه . استعانت عليه بالزينى ، الزينى خلصها من الرجل . طاش عقله وراح يدور الشوارع في عينيه حيرة ولهفة وقع به خبل ، ياه كانت سماح حربة مغروسة في قلبه لم يعرفها . واراق الدمع من أجلها . يقول الآن . الحمد لله انه لم يتزوجها . كأن شخصا آخر حكى له ما جرى ، قصه عليه . أما هو فلم يعرفه ، قرب كوز الحلبة . الطعم مغاير في الحلق ، هل نسى المذاق ؟ لو اشتهى الحلبة عندهم لجاءوه بها ..

« اللهم استرنا واحمنا ياكريم »

في البداية اقبل عليه ، لكن اسى الوجه الخفى ، الصد الذى لا يبين في عينيه ، حفر رفيعة طويلة حولهما ، كأنه قام من النوم توا ، كأنه يعانى حزنا فادحا ، أو انتهى فورا من بكاء طويل ، حمزة بن العيد الصغير ، يرى حاجزا يقوم بينهما .

« أنستنا يا شيخ سعيد .. »



فى الجو غليان ، انه يمشى على الرصيف المحيط بصحن المسجد المكشوف من وراء الأعمدة ، ينظرهم ، لا يقرب حلقات المناقشة الا وقت الدرس ، حتى وقتئذ ينأى بنفسه ، لن يدع فرصة للظن أن يهمس لأحدهم ، يرى العيون تبرق والعشرات يخرجون الى ظاهر القاهرة ، يشيلون أحمال التراب ، يحفرون للمدافع التى اجتهد السلطان طومانباى فى صنعها ، رذاذ الحديث ينفذ إلى أذنيه .

« لو خرج طومانباى وقابلهم فى الصالحية وهم متعبون ولا طعام عندهم لكنهم استراحوا يامشايخ . والآن يسعون الى الريدانية .. »

« أنا أرى ان يخرج طومانباى ويلتف مع الصحراء .. ويباغتهم عند بلبيس . لكن أن يحفر فى الريدانية وينتظرهم هنا فهذا ما لاتحمد عقباه .. »

« ربما اقنعه الأمراء بهذا لغرض فى أرواحهم » .

« هل شك واحد منا فى خاير بك من قبل ؟ »

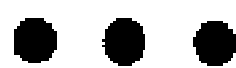
« فى الجو رائحة نتنة يا مشايخ »

إذا سأله احد جاوبه بهزة رأس لا يعنى شيئا . ابتسامته موجزة تبتر الحديث ، يعرف ان اصحابه رقوا له ، يختمون ما جرى له ، لايهمه ما يقولون ، يرجو الا يثيروه بالحديث ، كل كلمة تقال وتضيع فى الهواء لا تغنى عندهم ، يقطع الممر الطويل المبلط برخام قديم ، يداه وراء ظهره ، يروح ويجيء ، فيه خوف غامض من الخروج الى الفراغ ، كأنه لو مشى فى خط مستقيم سيختل ميزانه ، يسقط مرفوع الذراعين مرجوف الوجه ، يطلب نجدة لن تصل أبدا ، وغوثا منقطعا ، ومددا لا امل فيه لو أكثر من التجول لرأته ألف ألف عين ، كل عينين لانسان واحد ، لو أنه حدد الناس الذين يمضى بينهم ، فى الليل اذ يوشك شيخ الرواق على اغلاق الباب ، يقوم من مرقده تتتابع انفاسه بسرعة ، يكاد ينطق رجاء مكتوما فى صدره ، الا يغلق الباب ، كأنه لن يفتح أبدا ، لا يأتيه النوم الا بعد دوار رأسه ، انكتام نفسه ، ضياع حسه ، لا ينام نوما ، إنما يغشى عليه ..

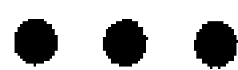
« فى الجيزة خمسون الفا من العربان .. »

المجاورون يروحون ويجيئون ، ثمة جدد فيهم أصغر سنا ، جاءوا بعد ذهابه فى الرحلة « كما يسميها بينه وبين نفسه » فى حلقه كتلة صلبة كالبندقة ، لو ان ما يجرى الآن جرى منذ عامين فقط ، عامين ؟ كأنهما عشرات السنين ، زمن قائم بذاته ، هل سيقف هكذا ؟ يتجنب الاقتراب من حلقات المناقشة ، ما يدفع طعما مرا الى دمه ، ما يحيره ، كيف يسمع الآن باقتراب جيوش ابن عثمان ، تكاد تلامس أرض الريدانية ، خيولهم تدوس الديار المصرية ، طاحت سيوفهم فى رقاب أهالى الشرقية وبلبيس ، ربما اجتاحوا فى طريقهم بلدة ، قرية ، سماح لجأت إليها مع زوجها ،

استباحوا عرضها في صحن جامع قديم . العرض الذي لم يهتك في خياله يوما وراه متمرغا تحت سليل الأمراء في لحظات قهر ، سعيد يتقلب فوق حصير شائك ، ما أبعد المسافة وأناى الترحال بينه وبين زمن ترعشه فيه مظلمة بسيطة ، ضرب إنسان في عرض الطريق ، تتكاثف الحيرة والحسرة ، كيف لا يحركه ما يجرى من أمور ؟ انتفض الشامي والمغربي ، القريب والبعيد ، الحريم يهتفن بالدعاء لطومانباى ، حتى العيال الصغار ، ربما يخشى أن يفهم حماسه خطأ ، لو زعق ، لو جهر بالدعاء ربما تضايقوا . يريدونه هادئا وادعا ، إذا هتف لطومانباى من يدريه أن الدعاء سيسمع بنصه ؟ رأى نساء الجمالية الفقيرات في العطوف الجوانية والروم والباطنية يقفن امام مشهد السيدة نفيسة حسيرات ، تعلو اصواتهن بنصرة طومانباى ، ورفعة جند مصر عسكر الإسلام . في داخل المسجد رءوس معممة ، يقيمون الصلاة في غير أوقاتها يقرأون البخارى ، شبان صغار عاب عليهم يوما انقطاعهم ، وترددهم في مواجهة جور الأمراء ، الآن يبدون همة لا يدرى من أين جاءتهم ، أحقا لامهم فعلا ؟ لكنه لا يخطىء الوجوه المنكسرة ، معالم الغربة يراها ، حتى في أبنية الحوارى .

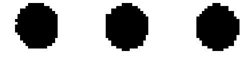


لحظة الغروب تجسد الموت ، الأسى رقراق ، عبثا صفاء النفس ، الآذان حزين يدفع بالعمر مائة سنة ، يعمق الغربة لمن لا بيت له ولا زوجة ولا امل يرتجى ، كأن الريف البعيد محى من المكان والزمان ، الأشرعة لا تهدى القوارب الى بر الأمان ، تمضى امرأة تلتف في حرير أصفر ، حتى الخيال لم يعد قادرا على تجريد الثياب ، لو جاءت بلقيس نفسها ، لو رقصت أمامه في حجرة مغلقة نائية ، لن تهتز حتى جذور شعيرات رأسه .



طفل ضئيل ، صغير الجسم . دامع العينين . الأصبع في الفم . حيرة أول العمر . يبحث عن أبيه ، يبحث عن أمه ، لا يدرى سعيد ، الطولة المخوزقة في عينيه أثارت خوفا غامضا ، في قلبه شفقة تنسال . توقف يرقب الطفل . إنتبه الى خطورة ما اقدم عليه . بأى كلام يفسر وقفته المفاجئة أمام الطفل . طفل صغير يبكى رأى نفسه ممددا فوق حشية قديمة . أطفال يصيحون . نساء يلطمن الخدود ، آه لو يرثى الانسان حيا ، لاقام النعى وجاءته الندابات من كل فج عميق . لو يصلب نفسه على باب زويلة . يقضى دامع العينين . كهذا الصنم الواقف في جزيرة لم يرها ابدا وسط البحر المحيط . كلما اقترب منه انسان يلقى الدمع هاطلا من عينيه . السوق خال . الحركة خفت من الطرقات . كأنها أوردة القلب الخالى . التفت وراءه . الطفل الباكى يتوسط الطريق . قدماه رفيعتان كقلم البسط .

تنوءان بحمل جسمه . كل اهتزازة منه تجسد أول العمر الشقي لا يعرف ان يمضي ؟ رأى بعيني عقله امرأة وقعت بين القفف في سوق الليمون انتابها خلط فالج ارتمت على ظهرها لا تدرى ما حولها . تطفطف ريما من فمها . زحف الى ثديها طفل يتلمس سريان الحياة منه . متى رأى المنظر . متى انتابه غم ؟



بحرص عظيم استقصي أخبار ، يقينا علم بخروجه ، في الرواق خطر له أن ينسرب تحت الظلام ، يطلع عليه ، لكن هذا أسهل الطرق لانكشاف أمره ، كلما انقضى يوم ، يطلع فيه إلى كوم الجارح ، أدرك أن المسافة تنأى ، ربما لن تطأ قدماه صحن البيت ، لن يتنسم هواءه المبلل بماء الورد ، منذ أعوام لم يخطر بباله قط ، لم يكن يقبل أي تصور ليوم كهذا ، لم يطلع الى كوم الجارح ، لكنه في حذر راح يستقصي أحوال مولاه ، عرف أن الأمراء عندما عرضوا السلطنة على طومانباى تمنع ورفض ، لم يجدوا امامهم الا الشيخ أبي السعود ليقنع طومانباى بتولي السلطنة ، سعيد يراه بوجهه الصافي ، ربما أخذه التردد . لا ينسى تدخله الى جانب الزيني بركات . ثم خيبة رجائه ومسعاه ، أبدا أبدا لم يخب رجاؤه ، بعد عودته من الرحلة طلب منه رجل اتاه دائما هناك ، جالسه اياما طويلة ، طلب منه الذهاب الى دكان حمزة كالمعتاد ، ولو جاءت سيرة الزيني امامه ، لو تساءل الناس عن سر اختفائه يقول (رجاه الرجل بأدب) إن الزيني في مكان قريب ، يعد العدة ويجمع المال والسلاح ، ولم يمانع سعيد ، واى مأخذ في هذا ، تساءل الناس في الدكان عن غيبة الزيني قال « أنه يرسل الاتباع إلى بلاد مصر . يستنفر مشايخ العربان لارسال رجالهم الى القاهرة » يذكر يوما شخصا افرنجيا بدا مصغيا لكل ما يقال ، استراب في أمره . بعد أيام عرف الناس الحقيقة ، الشيخ ابو السعود نفسه قبض على الزيني ورماه في بيته ، خجل سعيد من نفسه . خالف أمرا أتاه مولاه ، لكنه معذور لم يدر ، ثم أن الرجل رجاه بأدب ، مطلب بسيط ، لم يخطيء فيه ، أرسل الشيخ إلى الأمراء الا يخونوا مولاهم والا يغدروا ولا يخامروا عليه وأن يساندوه في تصديه لابن عثمان العازم على أخذ مصر ، يعرف سعيد أن كثيرا من المريدين ، قدموا من كافة القرى والانحاء ، يلفون رءوسهم بشيلان حمراء وخضراء سيدى أحمد البدوى ارتداها يوما ، مد يده فأحضر الاسرى من بلاد الكفر ، الشيخ ابو السعود يخرج يوميا الى الخلاء يحمل المقاطف مع العسكر ، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما بيديه من نشاط لا يناسب ابدا لحيته البيضاء وشيبته ، كبر العامة وهللوا ، لو رآه مولاه فسيسامحه ، يحرقه الشوق إلى رؤيته لكنه لا يدرى رد الفعل هكذا أطلقوه وتركوه لا يحددون له مسارا .

يطلب سعيد كوز الحلبة المعتاد ، يطحنها حمزة الآن ، يضيف إليها البندق

المبشور ، ولو طلب الزبون يحمرها فى السمن تصبح افطارا حلوا شهيا الذ من اكل الفول النابت فى مطعم المراغى امام زواية العميان ، العسكر يعبرون الطريق ، شيء ثقيل يقع فى مكان قريب ، لم يبدأ سعيد شرب الحلبة ، صاحب وجه غريب يقترب منه ، لم يره أبدا ،

« شيخ سعيد ؟ »

« ايوه »

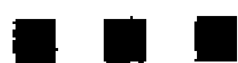
« لو سمحت .. معى لحظات .. »

الريح صائب ، ايبدأ رحلة من جديد ، ايعدو ؟ إلى أين ؟ إلى اين ؟

« ابدا .. مقدم بصاصى القاهرة يطلبك . ليس المفروض ان اقول لك . لكننى اشفق عليك ، أعرف رقتك وما يمكن ان يطوف بك ..

يطل حمزة ..

« لم تشرب الحلبة يا شيخ سعيد ، لم تشرب الحلبة ، لا حول ولا قوة إلا بالله ..



نــــداء

يا أهـالى مصــــر
يا أهـالى مصـــــر
يا ساكنى مصر
الجهــــــاد
الجهــــــاد
الجهـــاد
« وما النصر الا من عند الله »



زكريا بن راضى

لم يتوقف لحظة واحدة من المقطم الى بركة الرطل ، الحوارى مغلقة . الناس يسرعون الى غير هدف ، فى الصباح الباكر ، انطلقت إشاعة فى المدينة كالنار فى العشب الجاف ، أقسم البعض انهم رأوا جيوش ابن عثمان تجىء من ناحية الفسطاط ، تفاجىء طومانباى من الخلف ، ارتعب الناس ، ارتجفت قلوبهم ، لا أحد يصحب زكريا غير مبروك ، يمشى مجاورا له ، العتمة فى الضوء ، زعيق الجند العابرين يجسدون فى نفس زكريا شيئا خفيا ، يدرك أنه يعايش الآن أحداثا جساما لا تتكرر إلا مرات فى عمر الدنيا ، من قبل يتغير السلطان ، يجىء آخر ، لكنهم أفراد جماعة واحدة ، أما الآن فالجماعة نفسها مهددة ، آخرون غرباء لا يوقفهم أحد ، يرثى لطومانباى ، يعرف اى وضع صعب يلاقيه ، عكارة تشاؤم تأوى الى روح زكريا ، هو الوحيد فى مصر العالم بحقيقة ما سيجىء . لا يستريح إلى وقفة جان بردى الغزالى بجوار طومانباى ، وعنده أدلة وشواهد ، ابن عثمان وباء جاء فى غير ميعاده ، وباء لا علاقة له بانخفاض ماء النيل ، شر مسلط . عسكره همج ، يعرف زكريا ، أحوالهم بهائم لا نظام لهم ، أسرع الخطى ، يهرب من إدراك نتيجة يراها محدقة ، هذا ماسيناقشه مع الزينى بعد قليل ، هذا الزينى الذى نفذ الى عمره ، فكره وروحه ، فحول ما حول وابدل ما ابدل ، عندما قبض على الزينى أدركته دهشة بل مسه خوف ، سنوات طويلة يكيد فيها للزينى ، فى زمن هيج عليه مصركلها عند واقعة الفوانيس ، لن ينسيه شيئا أبدا أن الزينى دفع الى بيته بوسيلة الرومية ، الزينى أيضا تسبب فى قتلها ، أن يوارى جسدها البلورى وحشة القبر ، منذ شهور أدرك أن الزينى لم ينشىء نظاما خاصا به يجس الأخبار والأحوال ، لم يتبعه بصاص واحد ، إنما هم رجال المحتسب العاديون ، سنين طويلة وزكريا يجهد نفسه ، يبذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكى يعثر على بصاص واحد يتبع الزينى . لم يستطع رجاله ، أيقن من براعة رجال الزينى فى التخفى . عمل لهم ألف حساب وحسابا ، أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة ، تمنى زكريا لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزينى ، والا يدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزينى ، بنى نظاما فى الهواء أوجده ولم يوجده ، عانى زكريا مرارة الخديعة أياما لكنه أضمر فى نفسه إعجابا خفيا للزينى ، فعلا أن يوجد زكريا بمفرده فى زمن واحد أمر لا طعم له ، كل منهما مخلوق لصاحبه ، وجود الزينى أفاد زكريا ، حببه الى قلوب الخلق بعد كره ومقت . زكريا طور أساليبه وطرقه حتى يواجه مكر الزينى وخداعه ، غير الفائدة المباشرة التى أبداها الزينى فى عديد من المواقف ، افكاره الصالحة من أجل تطوير أعمال البصاصين ، يبتسم

زكريا . الزينى الذى عرض عليه كل ما قدمه على أساس انه بعض الطرق المتبعة فى نظامه هو الخاص بمراقبة الخلق ، اى إنسان فى مصر يعلم بوجود جماعتين ، جماعة بصاصين تتبع زكريا وجماعة تتبع الزينى ، هذا كله وهم اشاعه الزينى ، لكن الأوضاع ستجد فيما لو ، لو اجتاح وباء العثمانلية مصر ؟ هذا ما سيناقشه زكريا مع الزينى ، بيته فى المقطم لايحوى ورقة ، الآن شهاب الحلبى وديوانه وكل ما يحويه فى المقر السرى للزينى بحلوان ، ايضا الدفاتر والجداول التى ادرج فيها اسم كل مخلوق يدب على بر مصر حتما سيحتاجها فى الأيام القادمة ، زمان عندما امسكوا على ابن ابى الجود وتولى الزينى الامر راح يوزع اوراقه ، قتل معشوق السلطان وغلامه ، حتى الآن لم يصل الى سر العلاقة المكتومة ، مات الغلام ، مات السلطان ، فكم يبدو الزمن بعيدا ، سنوات طويلة فى كل يوم منها يؤكد قراره بالاجهاز على الزينى ، فرص عديدة سنحت له ، عندما ارسل الشيخ ابوالسعود واحضر الزينى وبهدله ، ليلتها عندما بلغه الامر ، قص شعر راسه ، لابد من حزم سريع ، هذا امر لا هزل فيه ، ها هو الزينى بين يدى رجل صالح تقى كلمته لا ترد عند الامراء ، الكبير والصغير ، باستطاعة زكريا استنفار اعوانه من كل فج عميق يثير الناس على الزينى ، وينشر الفضائح عليهم ، يمكنه إرسال قوائم طويلة بالأموال التى يكتنزها الزينى ، الدر والحجر البلخش واليواقيت والفيروز واكوام الذهب ، رسالة موجزة تقول لمولانا هذه هى المواضع التى كدس فيها الزينى أمواله ، حيرة اعتصرته ، فى تواريخ طائفة الاسماعيلية قرا مرة ، الفداوى المرسل لقتل عظيم او كبير تواجهه فى مهمته لحظات ، لحظات يجب الحسم فيها ، ليس ، مهما صحة القرار او خطؤه ، المهم هو اتخاذ قرار ، ربما اضاع التردد حياة الفداوى نفسه ، المهم اتخاذ القرار فى ذاته ، درس قديم طالعه زكريا ، فى الليلة نفسها قرر ، الزينى يجب الا يروح هدرا ، ارسل فى طلب ابراهيم بن السكر والليمون ، المعلم ابن كيفه استنفر اذانه وعيونه المنبثة فى انحاء الأرض ، بذكاء عظيم ، بكافة الطرق عليهم التحدث الى العامة عن عدل الزينى وتقواه وصلاحه ، تذكير العامة بما اتاه لهم ، ثم ينطلقون الى ما فعله الشيخ ابوالسعود الجارحى ، صحيح ، الشيخ ولى من أولياء الله وفيه بركة ، ولكن ما للمشايخ وامور السلطنة ؟ ما للنساك وامور الدنيا ؟ لو انشغلوا بامور الدنانير لضلوا سواء السبيل ، وعندما شرع الشيخ ابوالسعود فى تجريس الزينى بركات على حماره ، شهره فى الطرقات راكبا بالمقلوب قرر الامير علان الدوادار الكبير ، شنقه على باب بيت قريبه محتكر الفول فى مصر ، بالفسطاط ، أرسل زكريا مكتوبا عاجلا الى طومانباى يشير فيه الى مال جسيم لدى الزينى ولابد من رد المال الى خزانة السلطنة ، لو شنق لضاع المال ، والبلاد فى أشد الحاجة اليه ، ثم هنك امور هامة

تدخل تحت نطاق السرية معلقة معه وموته يعني التسبب في اضرار كثيرة تمس الأمراء والعامة والسلطنة ذاتها ، خاصة في هذه الأوقات العصيبة مع الرسالة نفسها ارسل خطابا صغيرا يطلب فيه من طومانباى الاقلال من عدد مرات نزوله وظهوره بين الناس حتى لا تضيع هيبته من بين العامة ، ولا يتعودوا رؤيته ، يعلم زكريا تماما أن الزيني يفضل الشنق على إنقاذ زكريا له ، أمثال الزيني يتقبلون ما اقدم عليه زكريا بأنفة ، عندما اعيد الى بيت الشيخ أبوالسعود ، ورجعوا في شنقه ارتاح زكريا ، من يدرى ؟ ربما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينقذه إلا الزيني ، زمان مضطرب لايؤمن فيه المرء على روحه ولا عياله خاصة من كان وضعه مثل زكريا ، الآن يقترب من بركة الرطل ، من الطبيعى لم ينزل الى المدينة ، لم يتجول في أسواقها ، يرسلون اليه التقارير باستمرار ، حتى من البلاد التى اجتاحها ابن عثمان ، بعض نوابه راح شهيدا ، لم يتصور انه سيرى الخراب هكذا بين الخلق ، المآذن حروف تجمدت في الهواء ، إبنه يس وحريمه في أقصى الصعيد ، يعاوده نفس الاحساس ، يعيش في زمن يشهد احداثا كبيرة يندر وقوعها ، بيت الزيني يبدو أخيرا ، بعد قليل يصغى اليه ، ثاني لقاءيهما منذ خروج الزيني ، ياه ، ألم يكن غبيا عندما فكر آلاف المرات في الخلاص منه ، ابتسامة خفية على شفتيه ، لكنه أحقا فكر في هذا ؟ أحقا ؟ ؟



نداء

نداء

يا أهالى مصر
ينهى اليكم الخنكار العظيم
فاسمعوا
من خبأ عنده مملوكا شنق
من دارى على أموال مملوك شنق
فاسمعوا وعوا

نــداء

نــداء

يا أهالى مصر
يا أهالى مصر
من دل على مكان طومانباى
له ألف دينار
من أحضره حيا أو ميتا
له ألف دينار
من حامى الحرمين ، والبحار
سليم شاه ،
الخنكار العظيم

نداء

نداء

يا أهالى مصر
يا أهالى مصر
من راى منكم
الشيخ ابا السعود الجارحى
من لمح منكم
درويشا من دراويش
الشيخ أبى السعود
الذين يثيرون الفتنة
ويهاجمون العسكر
ليحضره الى وطلق جند الخنكار
وله الجزاء العظيم
له الجزاء العظيم

نداء

نداء

يا أهالى مصر
يا اهالى مصر
من أخفى منكم جوارى ونساء المماليك
شنق بغير معاودة

نداء

نداء

يا أهالى مصر
يا اهالى مصر
لا يخرج أحدكم بعد المغيب
لا يرتدى احد لثاما
ومن ضبط شنق
يا أهالى مصر
يا اهالى مصر
استكينوا
استكينوا
ومن خالف شنق



● إنت منا .. انت بتاعنا

الشارع السادس

كوم الجارح

سعيد الجهينى

للقبر ضمة لا ينجو منها إنسان . يضغط ضلوع المؤمن والكافر ، يمحو الأول والآخر ، يفرق المثنى ، ويشتت الجمع ، يساوى الظاهر بالباطن ، تعرف كل نفس ما أتت ، وتتحدث الأعضاء عما ارتكبت ، اى ذنب جنت ؟ ويعرف سعيد طريقه إلى الوعر ، إلى كوم الجارح ، ينقبض قلبه ،مستقر النبال والرماح ، لم يخطئه هدف فى ساحة المعارك والطعان ومنذ رجوعه يود لو راى مولاه ، لحظة لا قبلها ولا بعدها ، يسمع لهجته ، يعرف اى الافكار تدور فى عقل مولاه حوله هو ، شخصه هو ، اتى الزمان الذى لا يعرف فيه الابن اباه ، يسال الأخ عن أخيه فينكره حتى لو جاوره وقوفا ، اتى اليوم الذى ترمى فيه كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، فى الهواء خمدة ، اهى القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، فى الهواء زمتة ، أهو الدخان الذى يظهر قبل قيام الساعة ؟ الجند الغرباء يفتضون الإبكار على باب جامع المؤيد ، عند القبة التى انحنى فوقها مرات ومرات ، خلع حذاءه ، ودخل المسجد العتيد يملاه خشوع .

ما الذى بقى إذن ؟؟ ربما ظهر المسيح الدجال ، ينزل من المقطم . يطلع من حوارى الحسينية ، يخرج على الناس فجاة من الخليج ، من النيل قبل ميعاد الوفاء ، من جزيرة الروضة ، من الهرم الأكبر ، يركب دابته التى تجس أخبار الدنيا له ، يطول الليل ، يصحو القوم فلا يلقون إلا ظلاما مستمراً عتيماً ، اول خيوط الضوء تدير العقول ، ها هى الشمس تطلع من الغرب ، ليس قرصا من ذهب ، إنما فطيرة رخوة سوداء ، ما الذى بقى إذن ؟؟ اظهر ايها السفيانى ، لينفخ فى الصور ، النفخة الاولى ، والثانية ، والثالثة ، تقبض الأرواح ، ويجيء الخراب ، أربعون الف سنة ، الوخز فى الصدر ، اى مرض خلفته الأيام ، لكن اى امر يخشاه ، والروح ساحة خرائب ، البيوت لا تامن ساكنيها ، ما الذى بقى إذن ؟؟

* * *

نعرف يا سعيد انك تتمنى رؤية مولاك ، هذا من حقك طبعا .. يا سلام يا أخى من علمنى حرفا صرت له عبداً ، انت نطقت باسمه مرات اثناء نومك ، ياشعلان .. اى اسم ردده سعيد فى نومه عندما اويناه زمنا ؟

« الشيخ أبو السعود .. لم يذكر غيره .. »

« أرأيت .. اذهب إليه ، لا تخف ، بالعكس نحن نريدك أن تعاود . سيرتك معه كالزمن الأول تماما ، نريدك أن تصبح محل ثقته .

لا تنفره منك ، اذهب إليه ، ارتم على قدميه ، ابك ... ابك فعلا .

سيسألك ، أين غبت عنه بعد عودتك ، قل له منعوني ، لكنني ضربت الآن بمنعهم عرض الحائط وجئتك ، العن أجدادنا ، استمطر الخراب علينا ، قل ما تريد يا سعيد .. ما تشاء ، لابد أن تحيي ثقته بك .

أنت ابنه الذى لم ينجب وأنجبه .

* * *

دار حول باب الوزير ، مشهد السيدة فاطمة النبوية ، قدماه تقطعان الطريق ، هذه البيوت لم يرها من زمن ، وهج الآمال ، رغبة الطواف ، الجرى ، الاندفاع ، الحب ، ملامسة يد حنون ، طعام هنى بعد غروب شتوى عتيق ، أبدا ، لم يطف به شيء من هذا ، أخيلة قديمة مخوزقة ، ذكريات بالية كحصيرة عتيقة داستها آلاف الأحذية ، إلى الممرات الطويلة ذهب ، حفر صغيرة بالجدران ، رأى آدميين ، « أتعرف هذا ؟ كان أميراً كبيراً عظيماً جليل الشأن ، له في الحبوس أربعة وثلاثون عاما ، يبول مكانه ، يأكل مكانه ، نسى اسمه ، فعلا نسى اسمه ، نسى الألفاظ والحروف وحركات الصوت وسكناته » ، حفرة أخرى ضمت سجينا صبيا ، لا يعرف الضوء . ولا طعمه ، في عينيه بريق أزرق كعيون القطط في السواد العقيم ، عمره عشرون ، كلها قضاها هنا ، ربما بدا خروجه إلى الدنيا كذهابك أنت إلى السجن ، بين حجارة الصخر تذوى الأعمار ، تفنى ، تغرب ، بين حجارة الصخر ، أو في الحجرات الضيقة النظيفة المخيفة ، يتمدد صاحبه منصور الآن ، فما الذى بقى إذن ؟

* * *

« ما نطلبه منك . ما نريده . الاستفادة من عظاته وحكمه . أن نعرف ثمين القول الذى يردده . آراءه في الناس . ما ينويه بالنسبة لطومانباى . منذ دخول الخنكار تعرف أن بقاءه في البيت . لكن هناك مريدين يمضون إليه . من هم ؟ إلى أين يذهبون ؟ هناك من يزعم بنية الشيخ على الخروج في إثر طومانباى . لكن هل تصدق هذا أنت ؟ هل يدخل عقلك أن الشيخ أبى السعود ، الشيخ الطيب الصالح ، الورع التقى . يمكنه حمل سيف وذبح رقبة ؟ أنت أدرى الناس به . إذا كانت هذه نيته فعلا . فهذا تغير لابد أن نعلمه . لا لشيء . لنستفيد منه ونفيد . كيف يتحمل العمر الكبير الحرب والهجوم ؟ والكر والفر ؟ طبعا .. لا تخبره عما نريد . أنت بهذا تنقل تعاليمه وحكمه

الى الخلق كلهم عن طريقنا . بقيت مسألة ثانية .

* * *

البيت هادىء مستكين . أحلى العمر قضاه هنا . هنا رتل عمره ترتيلا . غناه عذبا . يخطو عتبة البيت . بأى عينين يواجهه . بأى المعانى المتبقية فى حدقتى العين .

* * *

نعرف انك قادر على هذا . وإلا فلماذا لجأنا إليك . نحن نطلب معونتك . يا سعيد . أنت قريب منا . أنت منا . أنت بتاعنا .

* * *

انت منا .. انت بتاعنا ..

* * *

« أما المسألة الثانية ، تعال . اقترب .. يا شعلان أخرج .. أخرج لحظات لأن ما سأقوله سر عظيم لن يسمعه إلا سعيد وحده .»

« طبعا أنت ولا أى مسلم مؤمن يرضى عما فعله ابن عثمان بنا ، من هنا عزم الزينى بركات ، وبالمناسبة ، فهو يهديك السلام ، ويعتذر لك ، بوده لو رآك ، لكن عيون العثمانلية تندس حول بيته ، المهم ، عزم الزينى وتوكل على الله ، أن ينشىء جماعة تعمل فى السر لا فى العلن ، جماعة من الشباب الشديد المجاهد أمثالك ، تقلق راحة الخنكار ، تهدم أركان الخيانة ، ما نطلبه منك يسير ، أن تقدم إلينا أسماء الشباب القادر ، الذى لا يتردد بالتضحية بذاته ، بنفسه ، قدم لنا الأسماء ، ونحن سنعرف طريقنا إليهم ، سنعرف كيف نقنعهم ونضمهم إلى صفوف الجهاد ، اتفهمنى . يا سعيد : أتفهمنى ؟

طيب كرر على .. ما الذى أطلبه ؟

أهكذا عاد يتطلع حوله ، هنا جئنا أمام مولاه ، هذه الأرض ابتلت بماء غسل فيه التمر ، هنا لفظ باسمها ، لا حس فى البيت ، السرداب مهدوم ، اين راح مولاه ؟ ما الذى بقى إذن ؟ آه لو يراه لمحة ، سيقول كل شىء ، يبوح الخفى ، ينثر العطن ، يفتح جرحه ليشفى لو يراه لمحة ، بعدها تفنى الدنيا ، يعرف أن لفظة ود ، ونظرة صفاء ستقابله ، يسمع المولى كوابيسه ، يبنى ما تقوض ، لم يخطر بباله أبدا أنه سيأتى إلى هنا يوماً ولا يلقاه ، ما الذى بقى إذن لو رآه لباح بالقديم والجديد ، آه ، لا فرصة للرجوع ، بعينى عقله يرى مولاه ، أمازال مولاه ؟ يراه ساعياً فى الأرياف ، يستنفر الخلق ، من يدله ، من يهديه إليه ، ذهب مولاه ، ما الذى بقى إذن ؟؟

* * *



● رسم : أوچين ديلاكروا ـ متحف الفنون بأمريكا .

السرادق السابع

سعيد الجهيني
آه أعطبوني وهدموا حصوني



● رسم : چين باربولت ـ متحف اللوفر ـ باريس .

خارج السرارق

مقتطف أخير من مذكرات الرحالة البندقي .

فياسكونتي جانتي ٩٢٣هـ

في ترحالي الطويل ، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن ، بعد انقطاعي غامرت ونزلت إلى الطرقات ، في الهواء حوم الموت باردا لا يرد ، رجال ابن عثمان ، يدورون في الطرقات ، يكبسون البيوت ، لا قيمة للجدران . الأبواب ملغاة في هذا الزمن ، الأمان مفقود ، ولا فائدة من أي توسل أو رجاء ، لا يثق الإنسان أبداً من طلوع النهار عيه ، في حارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة ، مقلوعة النهدين ، تلفت حولي ، البلاط المضلع والتراب ، في بيت ناء عاط طفل لم أدر ابن من هو ؟ عند سبيل مياه قرب باب زويلة رأيت بشراً انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية ، إدخال سيخ محمي في الضلوع ، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة ، لسان أحدهم مدلي ، سؤال أبله معلق ، لماذا جرى ما جرى ؟

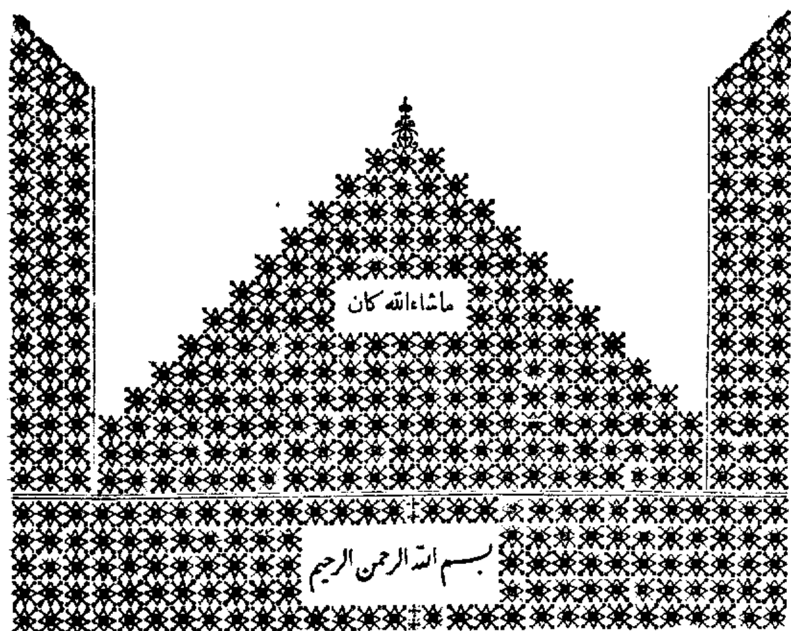
العيون برقوق عطن ، لم يهدأ المنادون طوال الليل والنهار ، اللهاث يشتد وراء طومانباي سلطان البلاد المختفي ، خاصة بعد ظهوره المفاجيء في جامع شيخون ، والتفاف الخلق حوله ، ثم هجومه على ابن عثمان في بولاق ، سمعت أنه بمجرد ظهوره في أي مكان يلتف حوله القوم وكأنهم يعرفون ميعاده ، سمعت أن جماعات كبيرة من الدراويش (رجال الدين) انضموا إليه ، راحوا يغيرون على جنود العثمانلية ، الذين يتطرفون في مشيهم إلى حارات نائية ، أو طرقات بعيدة ، يقتلون منهم ما استطاعوا ، أثار هذا الفزع بين الغزاة ، طولبوا بالتزام الحذر . والمشي جماعات ، صباح اليوم طلعت فوق السطح رأيت الأسى شفيفا كئيبا فوق المدينة ، كأن البيوت نفسها أسالت دمعا ، رأيت وجه صديقي الشيخ محمد أحمد بن إياس قبل دخول العثمانلية بيوم واحد ، في تقاطيعه رقدت نبوءة بالهزيمة المقبلة ، كان منكسرا ، لم أره من ليلتها ، سمعت ممن أثق به أن طومانباي ظهر في الصعيد ،

وانه جمع آلاف العربان المسلحين حوله ، وقيل ان وليا من أولياء الله (قديس) كان يقيم في القاهرة ، هجر بيته وانطلق إلى الريف يقيد فيه نارا حامية يستنفر الشعب ، واخبرني محدثي أن عمر هذا القديس يقدر بمائة عام ، بل ازيد ، وأنه أوتي شجاعة عظيمة ، وقال محدثي انه شرب من نبع الحياة ، ومن شرب من نبع الحياة لا يموت ابدا ولا يهزم قط وفعلا انطلق في اثره مئات من الشبان الصغار ، والرجال والنساء ومعظمهم لم يشاهده مرة واحدة أثناء إقامته في القاهرة ، وأخبرني محدثي ان هذا الولي (القديس) يطوى معه بيرقا رهيبا ، يقال له البيرق النبوى ، ومتى نشره تهب أمة مصر من ادناها إلى اقصاها ، فتضع السيف في رقاب الغزاة ، ولا ترتد حتى تفنيهم ؟ أبديت الشك لمحدثي وسألته ، لماذا لم ينشر هذا البيرق الآن ؟ قال واثقا إن هذا لا يتم إلا بامر من عنده ، واشار إلى السماء ، بكى محدثي وهو شيخ من مشايخ الأزهر ، قال : جاء في الكتب القديمة ، « مصر كنانة الله من ارادها بسوء قصمه الله » . اليوم فقط نودى في الناس بالأمان قلت لأنزل استقصى الأخبار ، أدركت مخاطرتي فالغزاة لا أمان لهم يعلنون الأمان وينقضونه وجدت بيت صاحبي الشيخ ريحان مهدما محروقا ؛ لم يدلني أحد إليه ، سمعت ظهور الرجل الذى تحدثت عنه كثيرا في رحلتي الثانية ، الزيني بركات ، قال بعض المشايخ انه يحاول لم الشبان لمجاهدة ابن عثمان لكن أحدهم ابدى شكاً في مقصد الزيني ؛ خاصة بعد طلوعه إلى القلعة مرات عديدة وجلوسه مع خاير بك او قاتا طويلة ، وعلمت أن خاير بك (سبق أن تحدثت عنه) ابدى رضاءه على الزيني ؛ فعندما دخل الغزاة مصر ؛ كان الزيني في بيته مغضوبا عليه من طومانباى السلطان السابق ، وكان مجردا من كل وظائفه ، ينوب عنه في اهمها أحد نوابه السابقين شخص إسمه عبد العظيم الصيرفي ، لم ينقض اليوم إلا وتحقق ما سمعت من اخبار قبيل العصر سمعت المنادى يدق طبلا ، وقفت منتظرا ، رأيت ثلاثة جياد سوداء يمتطي كل منها فارس يحمل في يده ميزانا وصنجا وعلما رسم عليه شعار المحتسب ؛ سيفا مسلولا ؛ وخلفهم جواد أبيض ركبه « الزيني بركات بن موسى » ووراءه ركب شخص بدين لم اعرفه ؛ الطريق خال ، الخراب الخفي ساع في الفراغ ، الدكاكين كلها مغلقة ، حول الموكب الصغير فاحت رائحة نتن ؛ تطلع مارة قلائل ، أصغوا إلى دقات الطبل هزوا رؤوسهم ؛ لم يتوقفوا حاذاني الركب ورأيت الزيني يضع لثاما حول وجهه : لا اذكر ملامحه فلم التق به إلا مرة واحدة ؛ لابد أن أسعى إليه ؛ صاح المنادى :

بامر خاير بك بتعيين الزيني بركات بن موسى محتسبا للقاهرة ؛ وكل من له شكوى او مظلمة عليه بالتوجه إليه ، ثم يتوقف المنادى لحظة ويتلو أمراً من الزيني نفسه ، اصغيت ؛ ينادى موضحا العملة العثمانية الجديدة حلت محل العملة المملوكية القديمة : تابعت الركب المتجه ناحية باب الفتوح عند المنحنى اختفى ؛ وابتعد النداء الخافت في خواء شاحب .

جمـال الغيطانى

الجمالية ١٩٧٠ - ١٩٧١



لكل أول آخر ولكل بداية نهاية



● رسم : ادوارد لين

الخراب الخفى ساع فى الفراغ .
وما كان أصبح فى حكم العدم .



● رسم هوراس فيرنيه ـ مجموعة والاس الفنية بلندن

وقيل بظهور جيش ابن عثمان عند الريدانية فأهتزت القاهرة .



● رسم چيروم ـ معرض ايسترن إنكاونترز

عندما اجتمع كبار البصاصين فى القاهرة ليتدارسوا ، كيفية تغيير الانسان .



● رسم : چيروم ـ مجموعة والاس الفنية بلندن .

هناك يزعق سعيد ، لن يرهب عينا
لن يخشى أذناً تتسمع ، أو تقريرا
يرفع عنه .



● رسم : ادوارد لين

لكل انسان ، مهما علا شأنه ،
أو قل ، أوراق مدوّن فيها كل شيء
عنه .



● رسم : إدوارد لين .

الشيخ آبو السعود الجارحى ،
يمشى عبر الأفئدة ، فوق القلوب .



● رسم : چيروم ـ مؤسسة كريستى بلندن .

يا أهالى مصر
الجهاد
الجهاد



● أسم : لويچي مايير .

وفيه خرج الناس فى القصف
والفرجة عن الحد .



● رسم : ادوارد لين .

ألستم عيون السلطان ، ألستم آذانه ، إذا عميت عين ، أو طرشت أذن ، كيف يعرف أحوال الخلق إذن ؟



● رسم : دافيد روبرتس .

لا يدرى انسان ، أن ثمة خيطا يشد ويربط كل أرباب المغانى والمنشدين إلى كبير البصاصين .